محمد الغزالى



سؤال عن الإسلام

الجزء الأول



دار ثابت

محمد الغزالى



الجزء الاول



دار ثابت

الطبعة الثانية

محرم ١٤٠٤هـ

اكتوبر ١٩٨٣م

الناشر : دار ثابت للنشر والتوزيع ـــ ٩٢ (أ) شارع محمد فريد
القاهرة ـــ ت : ٧٦٩٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

توجهنا الى فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى بمائة سؤال عن الاسلام .. وتوخينا أن تكون الاسئلة اثارة وتبيانا .. اثارة لشبه الذين يضعون الشبهات فى طريق الاسلام والذين يجهلون حقائقه ، فهم فى جهلهم يعمهون .. وتبيانا ونورا للذين هم مشغوفون بأن يزدادوا بالاسلام علما وله فهما حتى يثبتهم الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة .

والشيخ الامام ، من الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، ودراية كاثرة بدينهم .. نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدا .

وحين توجهنا بهذه الاسئلة المائة لم يخامرنا شك فى اننا سنظفر منه بأصدق الاجابات وازكاها — كما لم يداخلنا ريب فى اننا نقدم للمسلمين ولغير المسلمين من الذين يبحثون عن الحقيقة فى شوق عظيم نورا مبينا ورؤية جديدة ومجيدة لطائفة من قضايا الاسلام .

فالشيخ الغزالى من عدول هذا العصر الذين توجههم الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله . ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

والشيخ الامام من الذين اذا صمتوا اسمعوا .. واذا قالوا اقنعوا .. وله بالاسلام فهم مقتدر وثاقب .

وقد رأينا تيسيرا على القارىء أن يخرج الكتاب فى جزاين ، ينتظم كل جزء خمسين سؤالا باجاباتها .

وها هو ذا الجزء الاول نقدمه للقارىء .. قارىء اليوم ، وقارىء الغد من المسلمين ومن الذين هم فى طريقهم الى الاسلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مقـــــدمة

قلبت بصرى فى عشرات الاسئلة المعروضـــة على ثم قلت لصاحبى : اننى فى كتبى الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات ، واحسبنى اجبت عنها اجابة شافية .. !

قال لا تستطيع أن تحيل الناس على ما كتبت فى أسئلة محددة توجه اليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة فى الموضوع المطلوب منك ، حتى يرجع السائل وقد أضاء الحق لبه وقلبه !! وتريثت قليلا ثم قلت لنفسى : ان هذا العلم خزائن، لعل الاسئلة تكون مفاتيحه ! وما يدرينى ؟ لعل الله يؤتينى الرشد ويلهمنى الصواب ، فأكشف ظلمة ، أو أمحو حيرة ، أو أطفىء فتنة ، أو أثبت حقا يعصــف من حوله الباطل ... وقررت أن أجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل .

ولما شرعت اكتب ، وجدت أنى قلما أكرر نفسى ، ففى هذا الكتاب حقائق جديدة ، أو أداء ــ أخصر وأيسر ، أو ترتيب لادلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، أو مزاوجـــة بين التراث القديم والعقل الحديث .

فاذا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر ان شاء الله مع هذه الفوائد الجمة اللاحقة .

ان اللوم يتجـــه الينا ــ نحن دعاة الاســـلام ــ لاننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يقنع أهله ، والشبهات التى جدت مع مدنيته !

وبعضنا قد يحيا متخلفا عن عصره ألف سنة . يخاصم فرقا بادت ، ويناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوا عنها جدا ولا هزلا .. والاسلام لا يخدم بهذا الاسلوب .

وحين نظرت فى الاسئلة المطروحة على أدركت أنها وضعت بحكمة وسيقت الى هدف ، وان الاجابة الحسنة عنها تغنى الثقافة الاسلامية ، وتجلو غبارا كثيرا عن حقائق الرسالة الخالدة . أن الاسلام دين عظيم حقا ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا الى مستواه ، الا من عصم الله .. وكان لذلك أثره فى مسيرة الدعوة ، وايضاح معالمها .. ! ومصابنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمى دءوب مخلص شجاع ، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله المهداة ، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم ، طريق العقل المفتوح والمنطق السمح والجدال الحسن .

وانها لفجيعة أن يسبق الحاد اعرج ، ويتأخر هدى مستقيم لا لشىء الا لان حملة هذا الهدى كسالى ، ومفرطون !

اعترف بأنى لولا عون الله ما كنت لاخط حرفا ، فقد حاصرتنى متاعب كثيرة ، وأملى أن أكون قد وفقت ، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه .

محمد الغزالى

١ ـــ ما الاسلام ؟ ولماذا سمى كذلك ؟

الاسلام الخضوع لله ، وتسليم النفس والامر اليه سبحانه أى أقامة العلاقة بين الانسان وربه على مبدأ « السمع والطاعة »!

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لاحد فى الارض والسماء عليه ، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما . وقد يقبل هذا الشعور فى تحديد العلاقة بين انسان وانسان مثله ، أما بين الانسان وربه الذى خلقه بقدرته ورباه بنعمته ورسم له طريقا مستقيما وامره أن يسير عليه .. فلا مكان لهذا التمرد والشموخ .

اذ الواجب أن يجعل الانسان نفسه تابعا لمراد الله ، أو الشخص الذى يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها .. قال الله تعالى : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور » (١) .

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق ؟ بين موجود سيقضى على ظهر الارض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر ثم يرجع بعد ذلك الى من اوجده ؟

أتكون علاقة تجاهل أم معرفة ؟ أتكون علاقة تمرد أم خضوع ؟

انه طبيعى جدا ان يعرف الانسان هذا الرب الكبير ، وان يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هديه ، وهذا هو معنى الاسلام وهو المعنى الذى قرره المرسلون .

قال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » (٢) .

والمرء اذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه وانقياده المطلق لتوجيهه سبحانه ـــ يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه ، الهاتف

---

(١) لقمان : ٢٢ (٢) آل عمران : ١٩

بمجده « أفغير دين الله يبغون ؟ وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » (١) .

ويخطيء من يظن الاسلام عنوانا خاصا بالدين الذى جاء به « محمد » من خمسة عشر قرنا ، ان الاسلام عنوان لجميع الرسالات التى هدت الناس من بدء الخليقة الى يوم الناس هذا .

صحيح أن حقيقة الاسلام بلغت تمامها وأخذت صورتها الاخيرة فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بيد أن هذا العنوان أطلقه القرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء .

ان اسرائيل — وهو لقب التشريف ليعقوب — ليس الا نبيا دعا الى الاسلام وتشبث به ومات عليه وأوصى به أولاده « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » (٢) .

والواقع أن الدولة التى تسمى اليوم باسرائيل هى اسم بلا مسمى وعلم على وهم كبير لان اسلامها لله صفر أو قريب من الصفر .

وكان عيسى يعلم أتباعه الانقياد لله وصدق عبوديته . وتأمل فى هذه الاية « واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » (٣) .

ويشمل وصف الاسلام جميع الانبياء الذين نفذوا الاحكام السماوية بدءا من عهد التوراة الى اليوم . قال تعالى : « انا انزلنا

---

(١) آل عمران : ٨٣ (٢) البقرة : ١٣٣
(٣) المائدة : ١١١

التوراة فيها هـــدى ونور يحكم بهـــا النبيون الذين أسلموا للذين هـــادوا والربانيـــون والاحبار بمـــا استحفظـــوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .. » (١) .

ولا يصح الاسلام الا باكتمال حقيقتين مهمتين اولاهما حسن معرفة الله ، وتصور الالوهية بامجادها كلها ، فلا يعـــد مسلما من أشرك بالله شيئا أونسب لله ولدا أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالة فى الكون الذى نعيش فيه .. لابد من العلم الصحيح بالله .. ويجيىء بعد ذلك الانقياد له وتنفيذ أوامره .

وفى القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله والثناء عليـــه واحصاء لاسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وابراز لمعالم العظمـــه الالهية لا مثيل له فى كتاب قديم أو حديث سماوى أو أرضى

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشـــهود الالهى على كل شىء ، والهيمنة المطلقة ، « له غيب السموات والارض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا » (٢) .

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شىء ودبر كل امر وملك السمع والابصـــار ، وقلب الليل والنهار وارســـل الرياح لواقح ، وفرج الكروب واخرج الحيارى من الظلمات الى النور وفى القرآن الكريم انكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابنا ، أو يجعل له بعباده شبها « قالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض ان عندكم من سلطـــان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل ان الذين يفترون عـــلى الله الكذب لا يفلحون » (٣) .

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) الكهف ٢٦

(٣) يونس : ٦٨ ، ٦٩

وبعد اثبات هذه الحقيقة فى صحة المعرفة بالله تجىء الحقيقة الاخرى .... وأساسها الانقياد التام لله ، والاصطباغ بطاعته .

ولا يجتمع اسلام لله وتمرد عليه . أو خضوع له ورفض لامره !!

فهل معنى ذلك أن المسلم لا يتورط فى معصية ؟ الحق أن المسلم اذا عرض له عصيان كان ذلك طارئا غير محسوب ، أو عملا انزلق اليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشره ، ومن ثم فهو يتخلص منه آسفا ونادما وخجلان .. !!

وطبيعة النفس ، وظروف البيئة قد توقع المرء فى سيئة ما ، كالذى يقود سيارته آيبا الى بيته فتغفو عينه اغفاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره .

ان نور العقل قد ينكسف ، وطاقة العزيمة قد تنفد ، وعندئذ يقترف المرء ما لا يليق ، ولا يخرج المرء بذلك عن الاسلام «ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »(١) ولذلك رفض النبى صلى الله عليه وسلم استنزال اللعنة على شارب خمر أوهن الادمان ارادته ومروءته . ان هذا الشارب يمثل نوعا من العصيان أو حالة من الاضطراب غير ما يقع فى مجتمع آخر يزرع العنب ويعد المعاصر ، ويفتح الحانات وينظم توزيع الاثم ، ويفرض ضرائب على المتاجرة به .. الفارق بعيد بين مستبيح لا يرى لله حقا ولا يحس فى عمله جرما ومعتل خارت قواه فسقط ، الاول مجرم لا مسلم والاخر مريض تلتمس له العافية ، ويحسب بين اهل الاسلام .

---

(١) الاعراف : ٢٠١

وقد استطاع نبى الاسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تنهض للصلاة له من طلوع الفجر الى غسق الليل ، وتتردد على المساجد فى رتابة ودقة يمكن أن تضبط عليهما الساعات .

كما أن هذه الامة التزمت فى شئونها المدنية والعسكرية ، الثقافية والسياسـية أن ترضى ربها وأن تتوجـه وفق مراده ، بحرص واخلاص .

قدوتها الاولى والاخيرة انسـان تجرد للحق واصـاخ من أقاصى فؤاده الى أمر الله له « قل أن صلاتى ونسـكى ومحياى ومماتى لله رب العـالمين لا شريك له . وبذلك أمـرت وانا أول المسلمين » (١) .

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا ممـا قضيت ويسلموا تسليما » (٢) ... أن خضوع الانسانية لبارئها الاعلى صدق وشرف ، وهذا هو الاسلام .

---

(١) الانعام ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) النساء : ٦٥

٢ — لماذا كان الاسلام خاتم الاديان ؟

الاسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بدات الخليقة : وتكونت للبشر مجتمعات ونستطيع القول بأن القرآن حوى جملة التعاليم التى بلغها الانبياء الكبار — أعنى أولى العزم وحملة الرسالات المهمة — فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن فى ترسيخ العقائد وتأديب الامم .

اما الشرائع الجزئية فان التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة .

والاسلام الذى بلغه محمد واخذ الناس به هو الصورة الاخيرة للوحى الاعلى وهو كذلك الصورة العامة التى تستغرق الاجناس كلها وتتناول الاجيال التى تسكن الارض حتى قيام الساعة .. النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أى محدودة الزمان والمكان ، اما النبوة العامة الخالدة — فهى نبوة محمد وحده لا يشركه فى ذلك نبى من السابقين .

وعلة ذلك ان الاسلام بعد ما زود الانسان بالوصايا الاخيرة للوحى الالهى وكل الى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة .. فانتهاء عصر الوحى هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل فى كتابنا « فقة السيرة » .

ان نبى القرآن عليه الصلاة والسلام ارسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق وساق نصوصا حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة وهذه أسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصور ، ولا يمكن اختراق أسوارها .

اما ما وراء ذلك من شئون — وما أكثره — فموكول الى العقل الانسانى يمحو فيه ويثبت .. فى ميدان العلوم والانشطة الارضية

وشئون الحياة المدنية والاطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين . وفى كل المجالات التى تتحدد فيها المبادىء وتتحرر الوسائل يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق .

فالشورى مثلا مبدأ دينى لمنع الاستبداد السياسى ومنع عبادة الفرد ، وتمكين الامة من فرض رقابتها على ما يعنيها ..

والعقل له أن يضع من الدساتير ما يحقق هذه الغاية .

والعدل مبدأ دينى لمنع الافتيات والتظالم ، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشىء من المحاكم ما يحقق هذه الغاية اداريا واجتماعيا واقتصاديا .

والجهاد مبدأ دينى لحماية الايمان وكبح الفتنة ، ووسائل الجهاد فى البر والبحر والجو لا حصر لها ، والابداع العقلى فى هذه الميادين لا حدود له ... بل ان شرائع العقوبات المروية تركت اغلب الجرائم للاجتهاد العقلى ، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ... الخ .

وقد تنشأ أحوال يتعين على العقل أن يعالجها ويرقب آثارها لانها لم تعهد من قبل فى عهود الانبياء ، لا أقول مثل غزو الفضاء وحرب الاقمار الصناعية ، بل فى النشاط الانسانى العادى على ظهر الارض . فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف فى تاريخ الحياة البشرية من قبل ، وما يتم هذا العلاج الا بالفعل اليقظ ، مع استصحاب هذا العقل لوحى الايمان وتقوى الله .

ان الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر ، لكن هذا الارسال سيكون عبثا اذا كان عمل النبى المرتقب قطرة من البحر الذى

سبقــه أو ترسـمـا لخطاه أو تكــرارا لما قاله ... ومن ثم اكتفت الاقدار بكتاب محمد وحكمته فى قيادة الانسانية الى آخر الدهر .

ولو أن ورثة الاسلام من أمراء وعلماء ادوا واجبهم بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال :

لماذا كان الاسلام خاتم الاديان ؟

فان هذا التساؤل تولد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الاسلامية العامة ، وبخاصة فى العصور الاخيرة .

من المقطوع به أن الامة الاسلامية فقدت القـدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الثقافى والسياسى فكيف تقود العـالم ؟ او كيف تقدم نموذجا لصلاحية الاسلام الابدية لقيادة العالم ؟

أن اصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم الى وراء وان توضع قيود على حراكه الفكرى والحضارى ولو كان الاســلام مسلكا رجعيا ، أو توقفا حضاريا لرفضناه دينا يرقى باتباعه بل دينا يرقى بالعالمين .

لكن فقهاء الاسلام الحقيقيين قالوا : حيث تكـون العدالة والرحمة فثم شرع الله ! حيث تكون الفضيلة والحرية والمصلحة فثم شرع الله !

وماذا ينشد الناس الى آخر الدهر غير هاتيك الغايات ؟
ان اختلاف الليل والنهــار لن يقلب حقائق الاشياء .. فاذا كانت الوحدانية صفة الله فان هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما أطردت مواكب الزمان .

واذا كانت تبعية الانسان لربه حقا لا معدى عنه ، فان تقدم الحضارة لن يعنى أبدا أن الانسان استغنى عن الله والصلاة له والضراعة اليه .

وقل مثل ذلك فى ميدان الاخلاق ، والعلاقات الانسانية كلها .

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عنوان ومراسم وأوهام مقدسة قيل لهم : كلا ، الدين ارتباط بالله واحسان للعمل ، ولن يضام أحد أخلص لله قلبه ، وأصلح له عمله ، واستقام على الطريق .. ! وقالوا : « لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله ؟ رب العالمين يقول للناس فى القارات المعمورة من أرضه ، اتجهوا الى مخلصين ، واحسنوا كل عمل تكلفون به ، تظفروا بالامن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والاخرة ..

ماذا بعد هذا الكلام ؟ وماذا يقوله نبى آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام ؟

على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الاصل ارتباط الشجرة بجذعها ، ولا يقبل الاهمال لهذه الشرائع الفرعية !

غير اننا نلفت النظر الى أمرين مهمين — الاول أن تفكير المسلمين لان أمام بدع وخرافات أدخلت على دين الله وهو منها برىء ، وبرزت هذه الاهواء الدخيلة فى أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق ، ومن مصلحة الاسلام لكى يبقى أن ينقى من هذا الغش ... !

الثانى أن الترتيب المفروض بين شعب الايمان سرت فيه الفوضى ، فتحولت أركان الى نوافل ، ونوافل الى اركان .

---

(١) : البقرة ١١١ — ١١٢

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أموراً عقلية لها منطقها الحر ، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الاجناس التى اعتنقت الاســـلام .

والمعروف أن الحكم الشرعى هو خطــاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، فلا حكم حيث لا خطــاب .

ان الاسلام كان ولا يزال الدين الذى ارتضاه الله لعباده الى اللقاء الاخير ، ومصلحة الانسانية فى استمساكهــا بهذه العروة الوثقى .

٣ ـ هل يستطيع الانسان السوى الرشيد ان يعيش بلا اسلام ؟

لو كان التدين غباوة لآثرت العيش بلا دين ولو كان حرجا على النفس أو قبولا للدنية او سطوة عنصرية لآثرت العيش بلا دين ! لكن الدين ليس كذلك ، بل هو مخاصمة لكل ذلك . ان الملاحدة خلطوا خلطا قبيحا بين الحق الذى نزل من عند الله ، وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين .

ومن عرض باطلا ما على أنه دين فهو كاذب ، والكفر بما عرضه واجب .

والناس فى عصرنا هذا فرقاء متباينون ، منهم من ينكر الالوهية ويتصور العالم لا رب له . ومنهم من يعترف اعترافا غامضا بالالوهية ، ويحسب الاديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة . ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية ولا يرغب عنهما ابدا ، ومنهم الوثنى المغلق ومنهم المسلم الذى رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا .

وفى المسلمين غوغاء يحيون وفق ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهدى وهوى .

وفيهم دعاة الى الحق الذى نفذه السلف الكبار ، ثم استوحش قليلا و كثيرا مع مسيرة التاريخ ، ثم امسى غريبا فى هذه الايام .

ومشكلة الدعاة المسلمين تجيىء من الصورة التى يظهر بها الاسلام فى العالم الاسلامى ، وتجعل المرء السوى فى بلاد اخرى ينفر منه .

فلو أن رجلا يعيش فى بلاد حرة ، يناقش فيها الحكومة دونما رهبة ، ويعترض رئيس الدولة ويعارضه دونما قلق ، مثلما كان

يفعل المسلمون قديما مع أبى بكر وعمر ، لو أن هذا الانسان قيل له : اعتنق عقيدة التوحيد فهى حق ، ولكن اذا قلت للحاكم : لا ، رميت فى السجن ! او ضرب عنقك !!

اتحسب هذا الانسان يسلم ؟ كلا وماذا يغريه بالدخول فى دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة ودفن ثلاثين الفا تحت أنقاضها ويبقى بعد ذلك مهيبا مصونا توجل وسائل الاعلام القريبة والبعيدة من تناوله .

ان هذا الانســان يكفر ويكفر ، ولا يرضى بالدخــول فى هذه الدائرة المزعجة ... ومن المسئول عن محنته ؟ ساسة جبابرة لا دين لهم اشتغلوا فتانين عن الاسلام بأسلوبهم فى الحكم .

وهناك مشتغلون بالعلم الدينى يقدمون الاســلام على أنه حبس وتجهيل للمرأة ويجتهدون فى تقرير أحكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهدر الحقوق ، محقور المنزلة مغموص العقل يستغرب وجوده فى ميادين العلم والعبادة والجهــاد ، بل يستنكر عليه أن يقــود سيارة .

لا جرم أن النساء فى شرق العالم وغربه تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة فى تجنبه .. !! ويؤازرهن فى ذلك الــوف الرجــال الشرفاء .

ان فتنة الناس عن الاسلام بهذه الطريقة هى شىء محزن حقا وكثيرا ما أذكر قصة البدوى الذى قالوا : أنه عرض ناقته فى السوق بدرهم واشترط أن يباع مقودها معها بعشرة آلاف .. فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا المقود الملعون .

أجل وما أسهل اعتناق الاسلام لولا هؤلاء المحمولــون عليه اللاصقون به .

نسأل بعدئذ : هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحنه يمكن أن يكون سويا رشيدا ؟ ونجيب ان مثل هذا المخلوق مصـــاب يقينا فى بصيرته وسيرته ، وانكاره لربه افحش من عقوق الولد لابيه البر الرحيم .

وقد تكون له موهبة علمية لكن ذلك لا يرفع خسيسته ، وقـــد حكمت الولايات المتحدة بالاعدام على عالم بالذرة أفشى اسرار عمله للروس ، أنه عد من كبار المجرمين لانه خان وطنه وقومه .

وما الوطن ؟ قطعة من الارض . وما القوم ؟ قبيل من الناس . فكيف بمن خان رب الارض والســـماء ورب البشر كلهم ؟ الا يعـــد مجرما ؟

ان عظمة موهبة ما لا تنفى الاصابة بعلل مهلكة ، فقد يكـــون المرء حاد البصر جدا ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترم عمره ويورده المهالك فما غناء بصره القوى مع علته الجسيمة ؟

والشخص الذى يرفض معرفة الله والتقيد بدينه مهما نبغ فى امر ما فهو معتل الضمير،زائغ التفكير،مخوف السلوك على الاقربين والابعدين ، بل هو الى الحيوان اقرب منه الى الانسان .

وعبادته لهواه تجعله مشئوما على نفسه ومن اقترب منه ، وقد يعاقبه الله فى العاجلة فيجعل ذكاءه ضده ، فيبحث عن حتفـــه بظلفه ويحفر قبره بيده .

وقد وصف الله سبحانه عبيد اهوائهم الكارهين للاستضاءة به والاستمداد منه فقال « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب ان اكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا » (١) .

---

(١) الفرقان : ٤٣ ــ ٤٤

ولقد رأيت فى أرجاء البلاد العربية ناسا ينتمون الى«العلمانية» ويستبعدون بعنف كل اثارة للاسلام فى ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه .

وتفرست فى وجوه هؤلاء وأعمالهم فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية . فيهم مسلمون — كما يقال — يكرهون ما أنزل الله . وفيهم كتابيون ينضمون الى كل جبهة تخاصم الاسلام لكى يكثروا السواد ويشبعوا الاحقاد ، ويتظاهرون — مع ذلك — بالحياد !!

ويستحيل وصف احد من هؤلاء بأنه انسان سوى رشيد ، لانه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بنى اسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمه وسياسة جعلت الدين يغتصب الارض والعرض ، فكيف يقبل الدين مهاجما وترتضى سياسته وتحترم سطوته ؟ ويرفض الدين مدافعا ويعتبر اشراكه فى التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة .

ألأن الدين هنا هو الاسلام ، ولان الدين هناك هو اليهودية !!!

لا سياسة فى الدين اذا كان اسلاما يدافع ، وتقام الدول من الهباء اذا كان الدين صهيونية تسطو وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة وتقدم ؟؟

على انه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد ، وكراهية هذا الانسان العظيم والتحامل عليه . اننا نضحك من انسان يرى أن الارض كوكب مثلث أو مربع ، أو أن موسى عليه السلام ولد فى الولايات المتحدة . فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا الها ومحمد قاطع طريق ؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الاسلام عبادة اصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف ؟ اذا لم يكن هذا

الشخص مغفلا ، فهو جاهل بلا ريب ، والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد،قد يكون الجهل عذرا يسقط المسئولية الاخلاقية عند مخالفة القانون ، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها . . . ان هناك يهودا يصدقون أن الله صارع أباهم اسرائيل وكاد ينهزم أمامه . ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للعنة الخطيئه التى اقترفها آدم ، واذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداء له باء هـو الاخر باللعنه الابدية !

فليعتقد من شاء ما شاء ، ولا يتطاول فوق مكانته ، ولا يتعرض بالتكذيب للانسان الذى جاء ينقى رسالات السماء مما اهانها والذى جاء فى كتابه هذا التقريع لكل شارد « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى . الا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى » (١) ؟

ان جرس هذه الايات الموجزة ينبعث دقات رهيبة الرنين تثير الحذر وتوقظ الانتباه ! أو هى ومضات متقطعة تلفت السائر فى الدرب المتشابه كيف يعرف هدفه ولا يثنيه عنه .

ان الجهل بالاسلام نقص شائن ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه،وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته.وبشارته ونذارته ، لم ترطب قلبه لحظة خشوع ، ولم يقل يوما : رب أغفر لى خطيئتى يوم الدين . . . ؟؟

---

(١) النجم : ٣٦ — ٤١

٤ ــ كيف بنى الاسلام على خمس ؟ ومـــا هى ؟ ولماذا خمس بالذات ؟

شرحنا ان الاسلام هو العنوان المعروف للدين الذى جاء به خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الانبياء الاوائل بلغوا صورا محدودة لهذا الاسلام تناسب مـــدارك الامم الاولى وقدراتها فالدين فى الحقيقة واحد ، يشبه انسانا فى فترات الصـــبا واليفاعة . . . ثم اكتمل هذا الانســـان وبلغ اشده ، اكتمل مبنى ومعنى : ذلك هو الفرق بين الرسالة الاسلامية كمـــا بلغها النبى الاخير ، وهذه الرسالة كما بلغها فى فجر الخليقة مرسلون محليون محدودون . . .

وبناء الرسالة على خمس يحتاج الى ايضاح فان شعب الايمان ومعالم الانقياد الى الله تقارب السبعين عنصرا .

وهذه العناصر السبعون مبينة فى كتاب الله وسنة رسوله . وهى تتناول الفرد والمجتمع والدولـــة وتســـتوعب قضايا خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة !

من اجل ذلك لم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : الاسلام مؤلـــف من خمس أو يتكـــون من خمس وانمـــا قال «بنى على خمس » .

فهو يشبه الخيمة التى يقيمها الجوالة فى رحلاتهم . والخيمـــة تقوم على عمود أساسى فى وسطها وأربعة أعمـــدة تمد جوانبها وتثبت قماشها !

وانت تعلم ان جسم الانسان يتكون من اعضـــاء وعضلات واربطة واعصاب وعظام وحواس . . الخ ومع ذلك فهناك عـــدة أجهزة رئيسية هى دعائم هذا الكيان الدقيق أحصاها علم الاحياء

ى (١) الجهاز العصبى (٢) الجهاز الدورى (٣) الجهاز الهضمى (٤) الجهاز التنفسى (٥) الجهاز التناسلى والتنويه بهذه الاجهزة ووظائفها لا يلغى بقية ما يتكون الجسد الانسانى منه ...

والخمس التى بنى عليها الاسلام هى شهادة ان لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت ....

هذه دعائم البناء ودعائم البيت غير جدرانه وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه ... الخ .

وشهادة التوحيد ترجمة عن الايمان القائم فى القلب . والايمان معرفة بلغت حد اليقين أو تصديق جازم لا يحتمل الريبة ، وانقياد لله لا يقبل ذرة من تمرد .

عندما يشهد المرء ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فقد عالن الناس ورب الناس بانه ارتضى هذا الدين ، ولزم منهجه ، وتبع قائده ...

ولا تقبل هذه الشهادة من قائلها ما لم يكن لها رصيد قائم فى القلب مهيمن على باطن النفس . ويعنى هذا أن يكون المسلم ذا ضمير يرفض الدنايا ويأبى مواقعتها ، ويحذر ربه ويتقى عقوبته لانه يفقه قوله سبحانه « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » (١) « ويحذركم الله نفسه والى الله المصير » (٢) « انما هو اله واحد فأياى فارهبون » (٣) « فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » (٤) .

كما يعنى هذا ان يظاهر المرء دينه واتباعه وان اشتد ساعد الخصوم وامتد اذاهم وعظم بأسهم وتلك حقيقة التوكل المعتمد

---

(١) البقرة : ٢٣٥ (٢) آل عمران : ٢٨
(٣) النحل : ٥١ (٤) آل عمران : ١٧٥

على الايمان بالله الكبير ، انه ينفى العزيمة الخائرة والارادة المنسحبة « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » (١) « ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٢) ..

والايمان مصدر ولاء لاخوان العقيدة ونسخط على خصوم الحق ، فالمؤمنون يحبون لله ويبغضون لله ، ولا يكونون اذنابا أبدا ولا اشياعا لاهل الفسوق والالحاد « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء .. » (٣) ان شهادة ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله رمز لمعان نفسية بالغة الاثر فى توجيه المجتمع كله ..

ويجيىء بعد الشهادة اقام الصلاة ، انه ليس اغدر من انسان يسمع ويرى بقدرة الله ، ويأكل ويشرب من خير الله ومع ذلك يضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها .

اننا ننفق الكثير من اوقاتنا فى اللهو واللعب ونستكثر لحيظات نقفنا امام الله متعبدين .. والمدنية الحديثة مسئولة عن السعار المادى الذى اذهل الناس عن كل شىء الا نداء غرائزهم ، أن المرء ينطلق وراء رزقه انطلاق الوحش فى البرية لا يهدأ حتى يظفر بفريسته ، ثم يعود فيلتهمها هو واسرته ثم ينطلق لمثلها فى يوم جديد .

وهكذا دواليك حتى ينتهى عمره وهو يلهث وراء مآربه وحدها لا يعرف له ربا ولا يؤدى له حقا ! ما اتفه هذه الحياة ، وما اسوأ عقباها ..

---

(١) المائدة : ٢٣ (٢) آل عمران : ١٦٠

(٣) المائدة : ٨١

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصغى الى داعى الله يهتف بصوت جهير الله اكبر الله اكبر ، فيلبى النداء ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدى ربه قانتا خاشعا ..

والصلاة فى الحياة الاسلامية ليست عملا فرديا يهتم به صاحبه وحسب ، بل هى سمة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم الى التلاقى فى محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر الى العشاء .

ومن هنا جاء التعبير باقام الصلاة لا أداء الصلاة اذ المقصود اتيانها فى جماعة ، والتحشيد لها والخشوع فيها واعلاء شعائرها اعظاما لله ، وابرازا لحقه تبارك أسمه .

ونرجىء الكلام فى الزكاة والصيام والحج الى مكان آخر ونتحدث الان عن الاركان الخمسة جملة لماذا كانت خمسة ؟

ترى لو كانت اربعة أو ستة أكان السؤال ينتفى ؟ لا . والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه ، مثل لماذا كان اسم فلان زيدا ولم يكن عمرا ، انه سؤال يتسلسل الى ما لا نهاية فلا معنى لـه .. ومع ذلك فهناك اجابة مقنعة فى هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبد الله دراز تدور على أن هذه العبادات خاصة هى شارات الاسلام ومعالمه التى تميزه عن غيره ، وأن غيرها قد يقوم به هود أو نصارى أو ما ديون ، كمكارم الاخلاق مثلا !! وقد تكون هناك عبادات اسلامية محضة لكنها دون هذه الاركان فى الدلالة والقيمة .

وننقل ما قاله الرجل الذكى رحمه الله . فبعد أن تحدث عن الايمان وانه عصب الحياة فى الدين ومصدر الطاقة الكامنة فى اعماله كلها تساءل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لماذا

ذكرت دون شعب الاسلام الاخرى ؟ فقال : « لانها اعظم المظاهر واوضح العناوين على الايمان بهذا الدين من حيث هو دين سماوى — لما فيها من الاستسلام لامر الله لمجرد انه امره دون قصد الى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة ، اما ما عداها من الاعمال فليست لها هذه المنزلة فى الدلالة على الانتماء الى الاسلام .

ذلك أن الفروع الدينية منها ما هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالاخلاص والتوكل والرضا ومحبة الخير للغير وسائر ما يبحث عنه علم الاخلاق ، وهذا القسم لا يصلح شعارا ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلا عن أن يكون أساسا لشتى العبادات والمعاملات ..

اما الاعمال الظاهرة فى الشريعة فأنواع ، منها ما يرجع الى المصالح التي تقتضيها الفطرة ، كوسائل الحفاظ على الشخص او النوع من النظافة والستر وطلب الرزق وابتغاء النسل من طريق شريف ، وكالجهاد دفاعا عن النفس او العرض أو الحق كيف كان ..

ومنها ما يرجع الى المصالح التى تدركها العقول وتهدى اليها التجارب كقوانين المعاملات وآداب الاجتماع من الصدق والوفاء بالعهد والاقساط فى الحكم وبذل العون للمحتاجين والدعوة الى الخير والضرب على أيدى المفسدين ...

وهذان النوعان لا يعد الاستمساك بهما دليلا على اسلام صاحبهما ، فقد يستمسك بهما من هو على دين باطل ومن لا دين له اصلا ، استجابة منه لدواعى الفطرة والعقل دون نظر الى توجيه سماوى ...

بقى قسم العبادات وأعنى بها الامور التعبيرية التى لها رسوم واوضاع دينية خاصة لا تهدى اليها الغرائز ولا العقول ، كالصلاة المحدودة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها ، وكالزكاة المحدودة بأنواعها وانصبتها ومقاديرها ومواقيتها ، وكالصيام المحدود بزمانه وكيفيته وكالحج ، والاضاحى ، والكفارات ونظام التوارث ، والعقوبات المقدرة المعروفة بالحدود ، ونحو ذلك من الامور التى لا حظ للاجتهاد فى وضعها ولا فى تبديلها وتغييرها مهما تغيرت الاحوال والعصور . . .

فهذه الامور جديرة بأن تسمى رموزا دينية ، وشعائر اسلامية لانها لا يتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول ، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها اهل دين آخر بصورتها المرسومة فى الاسلام . .

لكن منها ما ليس بواجب قطعى عينا كالضحايا ، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شىء من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات ..

على أن الحدود ونظام المواريث ـ وان كانا تعبديين ـ الا انهما من الامور الموضوعة لاقامة مصالح الدنيا بالقصد الاول ، وقد يأخذ بهما من ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول .. فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون اساسا لشعائر الدين سوى الاركان الاربعة المذكورة فى الحديث ـ مع الشهادتين ـ لانها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده ، واجبة وجوبا عينيا ، مقصودة للشارع قصدا أوليا ، موضوعة لاقامة مصالح الدين أولا وبالذات ، ومصالح الدنيا ثانيا وبالعرض !

فلذلك كانت لها الصدارة على سائر الفروع ، حتى نظمت مع الاصل الذى هو مبدأ الاسلام — يعنى الشهادتين — فى سلك واحد ، وصارت القواعد خمسا ..

وهذا الكلام للعلامة الشيخ دراز من خير ما قيل فى شرح بناء الاسلام على خمس ..

٥ — ما مكان التصوف فى الاسلام ؟

اذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائهـــة لرجال يتبعون طرقا شتى ، وتنتظم فى المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر ، تخدم السلطات الغاشمة ، وتحيى البدع والخرافات ، وقلمـــا ارتفعت لها راية فى ميدان جهاد ..

والحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلا ولا كثيرا ..

التصوف — سواء كانت الكلمة عربية او مترجمـــة — يعنى حقائق أخرى جـــديرة بالدرس والتمحيص . والتراث الصـــوفى يتضمن أحيانا قضايا فى ذروة الشرف والسناء ، كما يتضمن احيانا أخرى شطحات لا وزن لها ، بل ينبغى اطراحها والنأى عنها ..

واول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفى الذى نقل عن الهنود واليونان الاقـــدمين عقـــائد الحلول ووحـــدة الوجـــود ومشيا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الاسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحى الصحيح كما أن هناك تصوفا ضاهى الرهبانية البوذيـــة والنصرانية ، واعلن حربا على الجسد لا عقل فيها ولا جـــدوى منها ، أو استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيهـــا ، وكون أجيالا من القاعدين والمنسحبين فى ميادين الحياة شقى بهم الاسلام دهرا ، ولم ينجحوا لا فى كسب الدنيا ولا فى كسب الاخرى .

اننا نرفض هذا اللون من التصوف ، ونؤكد أن الاسلام يستنكره ، واظن أن بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الانسانى تعترضه ...

لكن هناك تصوفا نبت فى اكناف الايمان والاسلام والاحسان، ونما على اغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع ان يلون المشاعر الانسانية بصدق العبودية ودفعها الى التفانى فى مرضـــاة الله

والحس الدقيق بوجوده وشـــهوده ، وجعل أصحـــابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة وان كانت أحوالهم نكدة فيما يرى الناس ، حتى يقول قائلهم : حبسي خلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة !!

هذا التصوف يحول المعرفة النظرية المجردة الى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تـؤدى برضا واســتحلاء لا بتعب ومعاناة والمعاصي تترك باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لاغراء الملكة وصويحباتها وفرش له طريق الغواية بالازهار «رب : السجن أحب الى مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن اصـــب اليهن وأكن من الجاهلين » (١) !!

وانتقال العلم من تصور ذهنى جاف الى شعور قلبى رقيق عطـــاء الهى جليل القدر ، وقـــد اشار ـــ اليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ، ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة .. » (٢) . كما أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « ذاق حلاوة الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا » . ويقول علماء النفس : ان للشعور ثلاثة مظاهر هى الادراك والوجدان والنزوع .

ونقول نحن : من أراد الله به خيرا جعل ادراكه يقوم عـــلى الصـــدق ، وجعل وجدانه يقوم على العمق ، وجعل نزوعه يقوم على الشوق ..

اننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة ومن ثم يكون نزوعهم حارا ممتدا .

---

(١) يوسف : ٣٣ (٢) الحجرات ٧ ، ٨

وتدبر الايات فى وصف موسى عليه السلام « ما اعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال هم اولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى » (١) .

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روى من ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يعرض ثوبه لبواكير المطر ، ويقول : « هذا مطر حديث عهد بربه . . »

أفكذلك نرى جماهير المتدينين ؟ او هل يرتفع علماء الدين الى هذا المستوى ؟ .

فى قراءاتى وتجاربى رأيت ناسا على حظ حسن من علوم الشريعة واحكام الفقة ، بيد أن قلوبهم خاوية من الاحساس اللطيف ، والرغبة فى التسامى ، والحب للاخرين . . كما رايت ناسا فى مشاعرهم لطف ، وفى مسالكهم ايثار لكن يشينهم قصور علمى وفقه قليل فى شرائع الاسلام .

كلا الصنفين مسيىء ومقصر ! والواقع أن العالم الذى لا قلب له كالشاعر الذى لا وعى له بلاء على الاسلام وعائق عن الانتفاع به . .

فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وادب ، ونظر صائب ، وبصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الاسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ، ومتصوفين صفر الايدى من قوانين الشريعة وضوابطها !

والراسخون فى العلم سالمون من هذه الآفات ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالى وابن الجوزى والرازى وغيرهم يرى رجالا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبحار العقلى .

---

(١) طـه : ٨٤

واسمع للامام المدقق ابن القيم وهو يحدو النفوس الى الدار الاخرة ، ويقول لكل سائر على الدرب :

فحي على جنات عدن فانها منازلك الاولى ، وفيها المخيم

او الى ابى حامد الغزالى الذى أشرف على تفكير أرسطو وافلاطون ، واستبان عثراته وكشف ما أعوج منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلى فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى اذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى !!

وعندى أن تفاوت هؤلاء الاعلام فى آرائهم يرجع الى تفاوت العلل التى عالجوها وتشخيص الاسباب التى أدت اليها ، ذلك الى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف فى الاذواق والآفاق .

والقدر المقبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون فى الميادين الآتية :

أولا : فى دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ويلاحظ أن النفس الانسانية شديدة المكر واسعة الحيلة ، وانها قد تحقق ما تهوى عن طريق ظاهره الطاعة ، وباطنه اشباع الهوى ..

ثانيا : التمرس بمقام الاحسان ، وطول البقاء فى نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك .

ولا يتم ذلك بتألق ذهنى فى خلوة بعيدة ، وانما يتم مع التقلب فى البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة .. الخ

ثالثا : تتبع آيات الله فى الانفس والافاق ، ومدارسة الحاضر والماضى ، ومحاولة الارتقاء الى مستوى — الكتاب الكريم والسيرة

الشريفة ، فان الابواب كلها موصدة أمام من حرم التأسى بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو امام الاتقياء وسيد المربين . .

وفى هذا المجال أذكر أننى أفدت افادة عظيمة من ابن عطاءالله السكندرى ، وقد شرحت جملة من حكمه فى كتابى « المجانب العاطفى من الاسلام » .

واذا كان سعد زغلول قد وصف ادب « الرافعى » بأنه تنزيل من التنزيل او قبس من نور الذكر الحكيم فانى — مع اكبارى للرافعى وأدبه — أرى أن كلمة سعد أصدق ما تكون فى حكم ابن عطاء الله رحمه الله . وأعرف أن ناسا سيقولون أننى خلطت بين تعاليم الاسلام وشمائل الانقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرى . .

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف على اسماء لا على مسميات ، ويكون سهلا . والمهم أن تتوقد روحانية الانسان من خلال كيانه المادى ، وتشرئب عواطفه الى السماء بدل ان يخلد الى الارض .

وأن يطالع أمجاد الالوهية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، ويطمئن الى دار الخلود !

٦ ــ ما موقف أهل الكتاب فى الاسلام ؟

اذا تحدثت ــ أنا المسلم المحرج فى هذا العصر ــ عن اهل الكتاب ، شعرت بظلم ذوى القربى ومقدار حزه فى النفوس . وشعرت بالدهشة للضغائن التى اكنها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته وما كان ينبغى بتة أن يقابل الاسلام بكل هذه البغضاء ولا أن يلقى نبيه كل هذا النكير .. بدأ الحديث عن أهل الكتاب مقرونا بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم وانتظار عونهم فى مواجهة عبدة الاصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، فاذا كذب الوثنيون التوحيد ، وخاصموا صاحبه فان اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك !

وشرحا لهذا الموقف المرتقب يقول الله تعالى « ويقول الذين كفروا : لست مرسلا ! قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب (١) !

وعندما يوغل المشركون فى عنادهم يعتز المسلمون بأن نفرا من أهل الكتاب أيدهم ، وصدق ما لديهم ، ودخل فى دينهم ، قال تعالى « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (٢) .

وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الاسلام ، وتحاملوا على نبيه ودعوته ، وتجهموا لما تلقاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم ؟

يقول الله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى احسن ، الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا

---

(١) الرعد : ٤٣ (٢) القصص : ٥١ ــ ٥٣

وانزل اليكم وآلهنا وآلهكم واحد ونحن لــه مسلمون » (١) .

لكن جمهرة أهل الكتاب ــ خصوصا اليهود ــ رفضوا الاعتراف بالنبى الجديد ، ونافسوا المشتركين فى اطفاء نوره ، واقتلاع جذوره ووضع العوائق فى طريقه حتى ينفض الناس عنه .

كان من الممكن بمقياس العقل والمصلحة ــ ترك الاســلام يعرض نفسه على الناس ، وهو لا يملك سلاحا الا الاقناع المجرد « ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخــذ الى ربه سبيلا » (٢) ومن لم يشأ فليدعنا وشأننا وندعه وشأنه .

وتدبر هذا التوجيــه الالهى « استجيبوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لا مــرد لــه من الله ، مــا لكم من ملجــأ يومئذ وما لكم من نكير ، فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظــا ان عليك الا البلاغ (٣) .

فليرفض الاسلام من كرهه ، فلن نحاول اكراهه على شىء . ان النبى مبلغ وحسب .. لكن اهل الكتاب وقفوا فى جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون الدين الجديد ويرفضــون مهادنته ولا يأذنون لــه بالمرور ..

فاذا انشرح بالاسلام صــدر ضاقت لذلك صدورهم وتمنوا لصاحبه أن يرتد عن ايمانه الجديد الى جاهليته القديمة « ود كثير من اهل الكتاب لو يرد ونكم من بعد ايمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ... » (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) المزمل : ١٩

(٣) الشورى : ٤٨ (٤) البقرة : ١٠٩

والغريب ان اهل الكتاب بعد خمسة عشر قرنا من مطلع الرسالة الخاتمة لا يزالون كما هم ، لم يثوبوا الى رشدهم . تهدد الفلسفات المادية وجودهم ، ويزحف الالحاد الاحمر على حضارتهم ، وبدل ان يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام المقبل ، يتجاهلون كل شىء الا ضرورة القضاء على الاسلام وابادة اهله ...

سمعت واحدا من أهل الكتاب يقول : من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء ، تزوج تسعا منهن ، من الصعب تصديق انه نبى ... !

قلت : ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى ببناته وهو مخمور .. !!!

ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى باحدى قريباته خداعا او اغتصابا .

ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امرأة مجاهد فى سبيل الله ، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى ينفرد بها ... !!

هؤلاء فى مواريثك الدينية انبياء عظام .. اما محمد الذى تزوج بعض الارامل وعاهدهن على ترك الدنيا وزينتها ، وطلب منهن ان يقمن الليل معه متهجدات ، وما تزوج واحدة الا لسبب اجتماعى ، وعرض عليهن جميعا مفارقته ان رغبن فى المتاع العاجل ، محمد بعد هذا كله ليس جديرا بالنبوة ، ان الزناة فى منطق العميان اولى بها منه !!!

وتوجد الان عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الامة الاسلامية ، وتقترف المناكر للاتيان على رسالة محمد ، وتشويه سمعته واطلاق الاشاعات الكاذبة حوله ...

على أن هنا ناسا من أهل الكتاب أوتوا سـعة فى العلم ، ونزاهة فى الحكم ورغبة الى الله ، آمنوا بموسى وعيسى ومحمـد جميعا ، ورفضوا ان يبهتوا عباد الله الصالحين ، ويناصبوهم العـداء . وقد اشار القرآن الكريم الى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى منوها بسيرتهم وعدالتهم « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ومـا انزل اليكم وما أنزل اليهم خاشـعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم » (١) كما قال تعالى : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الاخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » (٢) .

ويمتاز هؤلاء : ببحثهم عن اليقين ، وعشقهم للحق وازدرائهم للظنـون السـائدة مهمـا غلب سلطانها وقـد التقيت بالدكتور « موريس بكاى » فى ملتقى الفكر الاسلامى بالجزائر وسـمعته يتحدث باعجاب واحترام شديدين عن اسلوب القرآن فى تناولـه للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عصم من الاخطاء التى تورطت فيها كتب مقدسة أخرى .

وقد سأله أحد الناس : لم لم يعلن اسلامه ؟ فأجاب : قلما أسير الا متوضئا .. !

وقد أسلم بعض المستشرقين ممن غالبوا قيود التقاليـد ، ونلحظ أنه اذا أسلم عشرة آلاف نصرانى فلن يسلم الا يهـودى واحد ! ان النصارى أرق قلوبا والين عريكة « ... ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا مـا أنزل

---

(١) آل عمران : ١٩٩ (٢) النساء : ١٦٢

الى الرســول ترى أعينهم تفيض من الــدمع ممــا عرفوا من الحق .. » (١)

وهناك اهل الكتاب خطوا الى الامام خطوة واحدة ، فقالوا : ان محمد رسول حقا ولكن الى العرب وحدهم !

وقد ظهر هذا الفريق قديما وحديثا ، لانه تأمل فى ســيرة النبى وحبه العميق لله وتفانيه فى نصرته وحرارته فى دعــوته ، واستعداده للقائه بامداد لا تنقطع من العبادات والجهاد فاستيقن ان ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فماذا يصنع ؟ قال : انه رسول للعرب حتما !!

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومنا نقول : ان هذا الموقف لا يكفى ولا يشفى فمحمد يحمل اشفية السماء الى أهل الارض أجمعين ، والتنكر لعموم الرسالة قريب من انكار أصلها ..

والواقع ان المطالع للقرآن الكريم يجتذبه هــذا الحمــاس الجارف فى الحديث عن الله ووحدانيته وأسمائه الحسنى ، والحاح محمد — باسم الله — على الخلق كلهم أن يعودوا الى ربهم الاحد — « ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله الها آخر انى لكم منه نذير مبين » (٢) أرأيت ؟ انه نذيــر مبين وحسب ! من يرفض هذا الاخلاص الرائع ؟؟

وهناك أهل كتاب يحيون فى نطاق مــا ورثوا لا يعرفون عن محمد شيئا ، أو يعرفون ترهات من رجال الدين التائهين أو بعض السادة الموتورين .

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دين فى أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسداده ، ترى متى ينهضون ؟ وحساب هؤلاء الى ربهم!

---

(١) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ (٢) الذاريات : ٥٠ ، ٥١

والذى اراه أنهم مكلفون — فى غياب الوحى عنهم — بمقدار مـا أوتوا من ذكاء وقدرة على نقـد الموروثات الرديئة واتخـاذ موقف مـا منهـا .

ولا أظن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشـون بين ظهرانى المسلمين ! والذين جند الاستعمار العالمى نفرا منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسى وخانوا الجوار .... !

على أن الاسلام وضع شرائع فى معاملة اهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها فى الفصل القادم عند الحديث عن الرسالات السابقة ...

وهناك حـديث يعطى معناه للوهلـة الاولى حكمـا لم يقل به الفقهاء، ومن ثم فان قبوله مطلقا أو رفضه مطلقا لا يجوز ! والواجب استبانة معناه الحقيقى كما قرره الراسخون فى العلم !

والحديث من رواية البخارى « أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله » فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها .. » مصدر الخطأ فى الفهم « اقاتل الناس » فقد طارت أذهان الى أن كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم ! وهذا غلط باجماع العلماء فانهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهـود ونصارى .. !!

لمـاذا ؟ لان المهتدين من هؤلاء اذا ضربت الحرب بيننا وبينهم ونسوا منطق الايمان والحلال والحرام فى تصديهم لنا ، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين بل اذا كسر الله شوكتهم ، بقوا عـلى أديانهم ، وجردناهم من أسلحة العدوان ، وتولينا نحن الدفـاع عنهم اذا هاجمهم احد ، وعليهم — والحالة هذه — أن يسهموا فى نفقات الحرب .

وهذه ما ابانته سورة براءة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الـــذين أوتوا الكتاب حتى يعطـــوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فليست الغاية من القتال اذن أن يقولوا : لا الـــه الا الله : كما جاء في الحديث !!

فاذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور ، فهل يتناول الوثنيين كلهم ؟؟ والجواب لا ! ففي حديث آخر صحيح الحاق للمجوس بأهل الكتاب «سنوابهم سنة أهل الكتاب» الحق أن الحديث في مشركي العرب الذين ضنوا على الاسلام وأهله بحق الحياة . ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موثقا مأخوذا . وقد منح هؤلاء اربعة اشهر يراجعون أنفسهم ويصححـــون موقفهم ، فان أبوا الا القضاء على الاسلام وجب القضاء عليهم وقد فصلت سورة براءة هذه القضية في أوائلها « الا الذين عاهـــدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم » .

أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده الى آخر رمق فلا يلومون الا انفسهم .

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة في الحديث « أمرت أن اقاتل الناس » والجواب أن (ال) كما يقول علمـــاء اللغة للعهد ، تأمل قولـــه تعالى « الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » فكلمة الناس الاولى : تعني بعض المنافقين ، والثانية : تعني بعض الكفار . وهذا هو المعهود في اذهان المخاطبين وتامل قوله تعالى : « ورأيت الناس — يدخلون في دين الله أفواجا » ان الناس هنا ليسوا البشر جميعا ، انهم العرب وحسب !

رايت فريقا من الناس يخدعه الظاهر القريب فى هذا الحديث فيتوهم ان الرسول يشن حربا شاملة على البشر ، ولا يزال بحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين .

وهذا فهم — كما أسلفنا — لم يقل به فقيه ، ولا يستقيم مع مرويات أخرى فى غاية الصحة والوضوح ، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون « الامبراطوريات » الاستعمارية التى اظلم بها وجه الحياة قرونا عدة .

ورايت ناسا آخرين يسارعون الى تكذيب الحديث ، دون وعى ويتخذون منه ذريعة الى مهاجمة شتى الاحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن ، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق ، وقد رايت لاولئك القاصرين افهاما فى كتاب الله لابد من تفنيدها واهالة التراب عليها .

٧ ــ هل الايمان بالانبياء الاولين والكتب السابقة ضرورى في الاسلام ، وما حكمة ذلك ؟

وجـــود العالم لم يبدأ ببعثة محمد ، ولا بولادة عيسى ، ان قوافل البشرية تنساب في دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة .

ورب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون . لقـــد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له « وانا اخترتك فاستمع لما يوحى : اننى أنا الله لا اله الا انا فاعبدنى واقـــم الصـــلاة لذكرى » (١) ومن قبل موسى بأجيال اختار ابراهيم والهمـــه ان يقول لقومـــه « .. اعبدوا الله واتقوه ذلكم خـــير لكم أن كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقـــون افكا . ان الذين تعبـــدون من دون الله لا يملكـــون لكم رزقـــا فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه ، واشكروا له اليه ترجعون » (٢) .

ومن قبل ابراهيم بعث نوحا الذى مكث قرابة عشرة قرون يلح على قومه ان يعرفوا ربهم ويوحدوه ويستغفروه ويســـألهم موبخا (ما لكم لا ترجـــون لله وقارا وقد خلقكم أطـــوارا الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ..) (٣) .

ان المعانى التى رددها هؤلاء النبيون خالدة ، والحقائق التى شدوا الجماهير اليها يجب أن يبقى صـــداها مـــا بقيت الارض والسماء .

والنبى الخاتم أكد انه لا يبنى على فراغ ، وانما على دعائم مهدها السابقون ، وانه يذكر الامم كلها بالاصول التى جهلتهـــا أو

---

(١) طه : ١٣ ، ١٤ (٢) العنكبوت : ١٦ ، ١٧
(٣) نوح : ١٣ ، ١٦

تجاهلتها ، الله الواحد ، اليوم الاخر ، الطاعة المطلقة لرب الارض والسماء ، التزام صراطه المستقيم ، الاحتكام اليه فيما شرع ، التعاون على البر والتقوى ، الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واقامة العدالة وتحقيق الخير .. الخ .

وفى هذا يقول الله للمسلمين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك ، وما وصينا ، به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا ... » (١)

ونحن المسلمين نجزم بأن كل رشد آتاه الله رسله الاولين فقد أتى القرآن به ، ثم أربى عليه بعد ذلك ما تفتقر اليه الاجيال اللاحقة مما يسد كل ثغرة ، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين .

أننى أنا المسلم اشعر بولائى لموسى وعيسى ومن قبلهما من انبياء الله ، ومحبتى لاولئك المصطفين الاخيار نبعت من أن محمدا عرفنى بهم ، وأعلن اخوته لهم وجهاده معهم فى طريق مشترك !

وفى السورة الاولى — بعد فاتحة الكتاب — تذكر اصول التقوى كما بينها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك .. » (٢) .

ومع هذا التلاقى البين بين الاسلام والاديان الاولى ، فان تاريخ الحياة مع اتباع الاديان محزن موجع ، قال اليهود : ليست النصارى على شىء وبادلهم النصارى الحكم نفسه ، ثم قال

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) البقرة : ٢ ، ٤

الاثنان معا : ليس المسلمون على شيء !! وقال الماديون جميعا : ليست الاديان السماوية الثلاثة الا خرافة ، وليس أتباعها على شيء !

ويظهر أن النفس الانسانية تشدها الى شهواتها خيوط قوية ، وقد يكره المرء أن يظهر عبد غرائزه فماذا يصنع ؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق له ما يشتهى ! فاذا هو ينتمى الى احد الاديان ظاهرا ودينه الباطن عبادة نفسه ، وبلوغ هواه ، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله !!

وعندما نطالع مسيرة الانسانية من قديم تفجؤنا هذه المآساة. ولنتدبر قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم .. » (١) الجملة الاخيرة ازاحت الستار عن أسباب الاختلاف ، والتعادى والتقاتل الذى وقع بين المتدينين انه البغى .. !!

والانسان يتحول الى وحش خبيث عندما يغلف شهوته بالقيم الرفيعة ، ويزعم انه يقاتل من أجلها والواقع أنه يقاتل من أجل شيء آخر .. !

لنترك هذه التهم فكل دين ابتلى بمستغلين اساءوا الى الناس باسم رب الناس . ولنشرح تحديد الاسلام لعلاقته بمن سبق من رسل وبما سبق من كتب .

---

(١) البقرة : ٢١٣

عندما شاء أهل الكتابين السابقين تحكير الهــدى على ما عندهم وحدهم « وقالوا : كانوا هودا أو نصارى تهتدوا . . . » (١) قال الله لاتبــاع محمــد « قــولوا آمنا بالله ومــا أنــزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٢) .

ان هناك وحدة دينية يدعو اليها النبى الخــاتم تقوم عــلى أصول عامة جامعة ، وصحيح أن هناك اختلافا فى الفروع تنوعت من اجله الشرائع على مر العصور ، لكن الخلاف فى هذه الشرائع ليس ذا بال .

وعلى اية حال فان شبكة القوانين التى رسمها القرآن ، واوضحتها السنة هى الطريقة المثلى لضمان المصــالح المنشــودة الى آخر الدهر .

ولم يقع التقاتل على هذه التشريعات الفرعية ، انمــا وقع التقاتل على اركان العقيدة واصــول الايمان ، وان كان الشرود المبدئى قد جرالى مخالفات أهدرت معالم الحلال والحرام ، وجرأت على اقتراف الربا والزنى والسكر وكثير من الاثام . .

ونحن المسلمين المصدقين بنبوة موسى وعيسى وبمــا أنزل الله عليهما من كتب نرى أن اليهود والنصارى هجروا ما أنزل الله اليهم ، وتركوا الايام تجر عليه ثوب النسيان .

ومن هنا أوحى الى النبى الخاتم ان يستمسك بما أوتى ، وان يلتزم الانصاف فى معاملة اتباع اولئك النبيين « فلذلك فادع واستقم كماامرت ولا تتبع أهواءهم وقل : آمنتبما أنزل الله منكتابوامرت لاعــدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا

---

(١) ، (٢) البقرة : ١٣٥ ، ١٣٦

وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير »(١) ونثبت هنا أدباجليل القدر التزمه القرآن الكريم وهو يحكى سير الانبياء الاولين ، وما تعرضت لـه هذه السير ــ بعد ــ من تحريف يتصل بجوهر الايمان ، فقد ذكر سفر التكــوين أن الله تنزل من عليائه وتناول الطعــام مع نبيه ابراهيم !!

وقد ابى القرآن مناقشة هذه القضية الغريبة ، واكتفى بذكر قصة ضيف ابراهيم المكرمين على حقيقتها دون تكاذيب لاحــد من الرواة .. !!

والمعروف ان الله انزل التوراة على موسى قيل : كتبها لــه بيده ، وامره أن يأخذ بنى اسرائيل باحكامها ..

والذى يقرأ التوراة اليوم يجد فيها مشهدا مؤثرا لوفاة موسى ، وكيف انه عاش مائة وعشرين سنة فلم يتغضن له جلد ، ولم يكل له بصر ثم مات ، وناحت عليه نسوة اسرائيل كــذا يوما ، ودفن بعرصات « مؤآب » ولم يعرف قبره !!

وظاهر ان هذا الكلام لمؤرخ كان يســجل حياة موسى بين قومه ، ولكن كلام المؤرخ تسلل بطريقة ما الى التوراة نفســها ، التوراة التى نزلت على موسى ! واصبح جزءا منها !!

ولم يشأ القرآن الكريم ان يكشف هذا الزيف ، مكتفيا بتقرير العقائد والاخبار الصحيحة ، على نحو ما ورد فى عدد الفتية اهل الكهف ، ما قيمة الجدال الطويل هنا وهناك ؟ « فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا » (٢) .

ومع ذلك الخلط فقد اعتبر الاسلام أن ما لدى القوم من مواريث يجعلهم اهل كتاب ويجعل مكانتهم أرفع من مكانة الملاحدة وعبدة

---

(١) الشورى : ١٥ (٢) الكهف : ٢٢

الاصنام ، وان ما بقى لديهم من تعاليم سماوية يتيح مخالطتهم ، والاكل من أطعمتهم ، والتزوج من نسائهم وحماية معابدهم وشعائرهم ....

« يسالونك : ماذا احل لهم ؟ قل : اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا انيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » (١).

والمقصود من هذا كله تذويب الجفوة ، وتمويت الفرقة والتعرف بما لدينا فى جو من السماحة والود . واحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت المتعمد عن مناقشة مواضع التحريف الكثيرة فى مرويات القوم ، وانها جزء من نطاق العفو الذى ورد فى قوله تعالى « ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (٢) .

وما أجمل أن يعرض موسى قضية اليوم الآخر فى خطاب الله له « ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (٣) والتوراه القائمة ليس فيها ذكر ليوم القيامة أو الجنة والنار ..

وما اجمل أن يعرض عيسى نفسه قضية التوحيد فيقول لقومه : « أن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (٤)

هكذا عرض القرآن النبوات السابقة لتبقى تعاليمها مع النبوة الخاتمة هداية للانسانية حتى يومها الاخير ...

---

(١) المائدة : ٥ (٢) المائدة : ١٤ ، ١٥

(٣) طه : ١٥ : ١٦ (٤) آل عمران : ٥١

٨ ــ ما مفهوم الاسلام عن الحياة والموت ؟

نظرت عن كثب الى الفندق الذى أنزل به ــ وكنت فى احد أسفارى ــ ثم دار فى نفسى هذا السؤال :

ترى كم شخصا سكن غرفتى قبل ان اسكن فيها : وكم شخصا سيحل مكانى بعد ما اغادرها : ما أوهى علاقتى بهذه الغرفة ..! واحسست أن هذه الغرفة ، بل احسست ان الفندق كله شبيه بهذه الدنيا نظهر بها بغتة ثم نختفى .

ان ناسا كثيرين قروا هنا ثم ولوا .

لقد راى بعضهم بعضا كما يرى النزلاء انفسهم حينا فى صالة الفندق وكل مشغول بشأنه يعيش فى جوه الخاص فما تربطه بغيره الا نظرة عابرة وبسمة عارضة !

هكذا التقى أبناء كل جيل بأترابهم ، ثم ... ثم .. انتهوا .

وتذكرت الاية التى وصف الله بها هذه الحياه « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار ــ يتعارفون بينهم ... » (١) وشعرت بأن الدنيا تظفر من اهتمامنا بأكثر مما تستحق !!

هل هذه حقيقة الدنيا : وترددت شيئا ما فى الاجابة ثم تلت : على اية حال لا خلود لنا هنا، أننا راحلون يوما . ولكننا نؤثر ان نتناسى ذلك اليوم !

لست أسجل هذه الخاطرة تهوينا لشأن الدنيا ان شأنها يجب أن يهوى عندما تحاول احتواءنا ، وعندما نفقد فيها عزيزا فنكاد نهلك او عندما نكسب فيها نفيسا فنكاد

---

(١) يونس : ٤٥

نطير غرورا وفرحا وعندما نحتبس داخل مآربنا العاجلـة فنكاد نلقى مصير دودة القز التى تختنق داخل ما تنسج بريقها الناعم ....

والمخدوعون فى الدنيا أعداد فوق الحصر ، أن قتالهم رهيب للحصول على مغانمها وتصارعهم دامى الجوانب للعب منها دون وعى !

وتحت الاقدام فى هذه الساحة الخسيسة أرحام مقطوعة ، وحرمات منتهكة ومروءات ضائعة،وصداقات منسية ، ومستضعفون ديسوا . وأشياء كثيرة محزنة ...

ما أحقر الدنيا يوم تنال بهذا الثمن ، وما احراها بهذا الوصف الحكيم « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » (١) .

لكن للحياة الدنيا جانبا آخر من بحثه ودراسته ، اننا نوجـد فيها ونقضى فيها أمدا لا ندرى مبدأه ولا منتهاه ، والذى اوجدنا أخبرنا اننا لن نترك سدى ، وأنه لم يخلقنا عبثا !!

اننا أمام عمل جاد وامتحان خطير .. ! وان علاقتنا بالاشياء والاشخاص محكومة بقوانين دقيقة ، واننا خلقنا للبقاء لا للفناء ، وان اليوم بذر وغدا حصاد ..

وان المكان الممهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه ان تعلن ! « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا ...» (٢) واذا كانت الدنيا قنطرة لما وراءها فمن الحماقـة محاولة الخلـود فيها ، أو حصر الاهتمام فى مآربها وحسب !

---

(١) الكهف : ٤٥ (٢) الملك : ٢

ان ما يستصحب منها للغد المرتقب هو الحق ، والذى يعيش عبد بطنه دابة ، وقيمته ما يخرج منه ! والذى يسبيه جنون المال والجاه ، ويقلقل كل شىء لاثبات ذاته رجل تائه !

كان ابو الطيب المتنبى يرى أن العظمة هى مجد السلطة ونيل الحكم .

وتركك فى الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر !!

كان يرى نفسه قمة يجب أن تتوج بالابهة والسناء ، وما لم يتح لاحد ! اليس القائل :

وكل ما خلق الله وما لم يخلق محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى !!

وازن بين غرور هذا الانسان الذاهل وبين قول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه .. « من مدحك فانما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك » ..

كذلك يستكين المؤمن لله ، ويعرف نعمته ، ويقر بعبوديته ، ويمهد لنفسه عند عودته !

ان اغلب الناس بهم من نزق ابى الطيب ، وشرودهم فى الحياة يرجع الى ذلك ، وما أحوج الناس الى فهم قوله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ، ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (١) الحياة الصحيحة فى الاسلام ان تعتبر الدنيا لك ولست لها، ان الله لم يخلق الانسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزى كلا ان له حقوقه المصونة لا فى الضرورات فقط ولكن فى المتاع والزينة ! لكن على شرط أن يعرف المنعم ويشكره .

---

(١) النحل : ٥٣ ، ٥٥

بيد أن أكثر الناس يلهيه التهام ما يطلب عن رؤية مرسله كالحيوان الذى يتبع حامل البرسيم أو الفول ، فاذا نفذ ما بيده من طعام انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذى يشده اليه .. !! لماذا يكون بعض الناس كهذه الانعام ؟ لماذا ننسى من يطعم ويكسو . ولا نذكره الا اذا — احتجنا ؟

ان الله أنبت الحدائق لتبهجنا ، وملكنا الانعام تغدو وتروح الى الحقول وقال لنا : « لكم فيهـا جمال حـين تريحون وحين تسرحون » (١) ورصع السماء بالدرارى اللامعات ، وقال : « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » (٢) !

ورفض مسـالك اهل القنوت الذين يحبون الحياة الخشـنة فوق أرض تفور بالبركة والعطاء وقال : « من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٣) ؟

المعقول — بعد هذا الرزق المبسوط — أن ننتفع بهذا الفضل الاعلى ونقدر صاحبه حق قدره .. ! والحياة الصحيحة فى نظـر الاسلام أن تعرف ربك من خلال آفاقها . ان المهندس الماهر يضع بصماته على الالة المحكمة التى يبدعها ، ورب العالمين — وله المثل الاعلى — اظهر صفاته العلى فى خلقه هذا العالم الرائع ..

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الارض فرصة لا تتكرر لمعرفـة الله ، وانشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه وأنا لا أتفلسف حين أصف أعجابى بعظمة الله ، ولا أذهب بعيدا ! أننى أملأ صـدرى بالهواء ثم أقول : سبحان من غلف كوكبنا بهذا الجو الذى تتنفس فيه الوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور ان هذا الهواء سواء هب ريحا عاصفة أم نسيما عليلا شىء عجيب الخلق !

---

(١) النحل : ٦ (٢) الحجر : ١٦

(٣) الاعراف : ٣٢

وهذا الماء الذى يلف أرضنا ؟ ان العلماء قالوا : انه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول أمها الشمس ، ومع جريها الحثيث ما سقطت منه قطرة فى الفضاء ، وكان المفروض أن ينسكب فى كل ناحية ! من يمسكه فى بحاره وانهاره ؟ ويجتــذبه ليبقى فى قراره ؟ انه الله .

ان الملكوت الرحب الذى نسكن جانبا ضئيلا منه يشير الى ربه ويسبح بحمــده ، وعلينا أبناء الحياة الدنيــا أن نتجاوب مع هذه الحقائق حتى اذا غادرناها الى ما بعدها كنا أهلا لجوار كريم !

اما اذا عشنا نأكل ونلهو وحسب فالمصير كالح ، وقد نبهنا الى هذه الحقيقة الصارمة « ان هذه تذكرة فمن شــاء اتخذ الى ربه ســبيلا » (١) « ذلك اليــوم الحق فمن شــاء اتخــذ الى ربه مآبا » (٢) وحق على أهل الايمان أن يتمكنوا فى الدنيا ، ويقدروا عليها بنسعة العلم وقوة العمل لان الله لم يخلق عباده كى يعيشوا على هامش الحياة ، أو يضطرب فى أيديهم زمامها وهو القائل « ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش .. » (٣) .

ولهذا التمكن ثمرتان : الاولى حسن ارتفاق الارض ، واستغلال خيراتها فى رفاهة الانسان ومتاعه الى حين ...

والثمرة الثانية : تطويع ما فى الارض من قوى لدعم الحق ، واقامة نظام محكم لجعل الامور تمشى وفق ما شرع الله ، وهــذا ما تنضح به الاية الكريمة « .... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » (٤) ..

---

(١) المزمل : ١٩ (٢) النبأ : ٣٩
(٣) الاعراف : ١٠ (٤) الحديد : ٢٥

ان الجهلة بالحياة ليسوا ناسا صالحين ! وكيف يكون صالحا من لم يقرأ عظمة الله فى صحاف كونه ؟ وكيف يكون صالحا من ملكه الله الارض وقال له ولامثاله « هو الذى خلق لكم مـــا فى الارض جميعا ... » (١) فعاش ملكا للارض تافها فوق ثراها وملكته هى بدل أن يملكها ؟ وكيف يكون صالحا من سمح للالحاد أن يسبقه فى كل ميدان ويهزمه فى كل نزاع ؟

---

(١) البقرة : ٢٩

٩ ـ ما فكرة الاسلام عن البعث والجزاء ؟

انكار الدار الاخرة ليس بدعة هـذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الانبياء ويتهمهم بالجنون لانهم يؤكدون أن الموتى سوف يبعثون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون ! كان اولئك المكذبون يقولون للامم التى تسمع وعيد الرسل « هيهات لما توعدون أن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »(١)

لكن عصرنا امتاز بانه زعم للنزعات المادية أصلا علميا . واشاع بان الدين بعيد عن المنطق العقلى !! ومن ثم شاع الالحاد ، وعاش الكثيرون لدنياهم وحدها ، وقلما تذكر الآخرة فى مؤتمر جاد أو ينظر اليها على انها حقيقة مقررة ، والذى اراه أن الايمان بآخرة فرع الايمان بالله عز وجل ، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على ايجاد العالم بعد افنائه واقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقى فيه كل امرىء جزاءه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيدا » (٢) ان الفلاح يستطيع أن يزرع الارض مرة ثانية بعدما حصدها ، والمهندس يستطيع اعادة بيت تهدم ، فما الذى يعجز خالق هذا العالم على انشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ اجله الذى حدده لـه ؟

« وقالوا : أاذا كنا عظاما ورفاتا أانا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ قل : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة .... » (٣) !!

لو كان هـذا الكلام من خالق الكون ـ وعدا مجردا ، مـا تأخرت فى تصديقه ! فكيف وأنا أرى فى كل لحظة من دنيا الناس

---

(١) المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧ (٢) آل عمران : ٣٠
(٣) الاسراء : ٤٩ ـ ٥١

خلقا جديدا يبرز فيه الابداع الاعلى اجلى ما يكون ؟ فى كل ساعة من ليل او نهار تقذف الارحام بعشرات ومئات من الاجنة السوية الخلق الدوارة الاجهزة المتجاوبة مع عناصر البيئة التى ترتقبها ، فهى تسمع وترى وتعى وتمضى فى طريقها قدما الى استكمال وجودها المقدور ....

هل صنع الابوان شيئا فى هذا التخلق الباهر ؟ اعنى من صنع الحيوان المنوى واودع فيه خصائص الوراثة المادية والادبية ؟ ومن صنع بويضة الام ومد اليها صفات الاباء والاجداد ؟ « أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » (١) ؟

ان انشاء الحياة فى عالم الانسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا نستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا ؟ ان ذلك سر تقريع القرآن للذاهلين عندما يقول : (ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون (٢) .

ان انتشار الجهالة لا يعطيها وجاهة ! واذا كان منكرو البعث كثيرين ، فليسوا الا قطعانا من الغافلين أو المستغفلين !!

وعلى كل عاقل أن يستمع الى هذا النداء « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا .. » (٣).

ان العدالة لا تتحقق فى هذه الدنيا ، فهناك سفلة تبوءوا القمم ، وعباقرة توسدوا التراب ، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون .

---

(١) الواقعة : ٥٨ ، ٥٩ (٢) الواقعة : ٦٢

(٣) الانشقاق : ٦ ــ ١٢

ان اثنين وسبعين الفا من عـــرب فلسطين ومسلمى لبنان قتلوا فى الحرب الاخيرة ، فلنفرض ان الله أدال للعرب وارتدت لهم الكرة بعد سنين طويلة أو قصيرة ، سيكون الجزارون قــد ماتوا ، وقد يعفى عن ابنائهم أو احفادهم — كما فعل صلاح الدين — وقد يقتص ممن لم يقترف جرما !!

ان القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف ، ولهــا ضحايا يضيعون فى حركتها الدائبة يقول الشاعر :

وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما ذوى نبت جنبيه وجفت مشارعه

فقلت : الى ان يرجع النهر جاريا ويعشب جنباه تموت ضفادعه !

من اجل ذلك كانت الاخرة حافلة بالانقلابات المثــيرة ، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الاخــرة رب مالك هنا يكون مملوكــا هناك ، سيهبط ناس من الاوج الى القاع ويرتفع آخرون من القاع الى الاوج « اذا وقعت الواقعــة ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة » (١) .

ان الاخرة حق لانها تصحيح لاوضاع ، ورد لاعتبار ، وتحقيق لعدل أختبر الله الناس بتأخيره الى حين — هذا الحين جزء من نظام الدنيا ، ومن امتحاناتها الصعبة ، ولابد من مراعاته ، ولذلك جاء فى الحديث القدسى ، فى اجــابة دعوة المظلوم « وعزتى وجلالى لانصرنك ولو بعد حين » وجاء فى انتصار المؤمنين على الكافرين « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون ، أفبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين » (٢) .

---

(١) الواقعة : ١ — ٣ (٢) الصافات : ١٧٤ — ١٧٩

لقد تكرر هذا الحين وانتظاره مرتين فى سياق متقارب ، لان الله لا يعجل بعجلتنا ، ولان سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود ، ولكن وزن الذرة من الخير أو الشر لا يضيع أو ينسى .. وحديث الاسلام عن القيامة والحساب تناول مرحلتين : الاولى مرحلة الدمار الذى ينزل بهذا العالم ، والانهيار الفلكى الذى يمحو نظامه ويطفى نجومه ! وقد جاء فى السنة : من سره أن يرى القيامة رأى عين فليقرأ « اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت ... » « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت » « اذا السماء انشقت واذنت لربها وحقت .. »

ويظهر أن الهول الذى يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الافئدة بالفزع والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى ...

ومجىء الساعة يكون بغته ، والناس ما ضون فى أعمالهم المادية ، الآكل يرفع لقمته الى فمه ، والبناء يشيد البيت الذى يبنيه ، والتاجر يناول البائع السلعة التى يطلبها ، وهذا وذاك فى جدالهم — حول شئونهم ، مستغرقون فيما يعنيهم ! يقول تعالى « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون (١)

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الحساب الذى يشمل الاولين والاخرين ، ويحشد أبناء آدم منذ بدءوا حتى انتهوا ، ويستعرض أعمالهم منذ عقلوا حتى ماتوا !!

قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم فى يوم ؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم ...

---

(١) يس : ٤٨ — ٥٠

والذى نحسبه نحن أن الزمان سوف ينعدم — كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء — وهل الخلود الا انعدام الزمان ؟ وان رب العالمين سيجعل الخلق فى حال من الاحساس العام بكل ما اسلفوه فى الدنيا ، وكأن أشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملأى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه !

ثم يستعد كل انسان للانطلاق الى مصيره العدل « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره الا لاجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد »(١)

والجزاء مادى وروحانى معا ، انه للانسان الذى عبد بجسمه وعقله ، أو فجر بجسمه وعقله ! ولا يستطيع أى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته فى وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز ، وليس هناك بتة ما يدعو لهذا التعسف فى التفسير .

والنظر الى مادية الانسان بأنها معرة ، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها ...

نعم ان مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى ، معها الرضوان الاعلى والاستغراق فى شهود امجاد الالوهية « ان الابرار لفى نعيم على الارائك ينظرون تعرف فى وجوهم نضرة النعيم » (٢) جعلنا الله من هؤلاء المكرمين ..

---

(١) هود : ١٠٣ — ١٠٥ (٢) المطففين : ٢٢ — ٢٤

١٠ ــ ما البرزخ ؟ وما دلالته فى الاسلام ... ؟

المعروف عند جمهور المؤمنين أن الانسان مخلوق من عنصرين متباينين .

جسمه من هذه الارض خلق ونما ، وروحه من نفخة من الله سبحانه وتعالى ، فهو ليس حيوانا وليس ملاكا ، وفى كيانه تتجاور المتناقضات ، من غرائز مادية ، وسبحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع الى الارض ما نشأ منها وتغذى على نتاجها ، يرجع هذا الجسد ليبلى ، ويفنى منه ما شاء الله « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .. » (١)

أما الروح فله مستقر آخر ، لا ندرى بدقة مكانه ، لاندرى كذلك ما علاقته بالجسد الذى كان فيه هل انقطعت صلته به انقطاعا تاما ؟ هل ــ عند البعث ــ يعود اليه هو أم يعود الى جسد ــ شبيه به ؟ هذه أسئلة لا نبت فى الاجابة عليها ! انما الذى نبت فيه ان الشخصية الانسانية لم تفن بالموت ! وانها رحلت من عالم الى عالم آخر ، وانها بقيت كاملة الحس تامة الوعى ، وانها اذا فقدت الاذن والعين فلم تفقد السمع والبصر ، بل قد تكون أسمع وأبصر مما كانت على ظهر الارض ... اننا قد نكون مهرة فى المنطق المادى ، أما المنطق الروحى فعلمنا محدود بل صفر ... !!!

وقد أخبرنا الله أن الشهداء الذين قتلوا فى معارك الجهاد ومزعت أجسادهم ، موتى فى نظرنا نحن فقط لانهم غابوا عنا ، أما فى حقيقة الامر فهم أحياء .

وقد أسند اليهم خمس صفات تستحق التأمل .

---

(١) طه : ٥٥

هم اولا أحياء لا هلكى ! وثانيا فى جوار كريم لانهم عند رب العالمين ، وثالثا فى منزل خصب حافل بالخير يدر عليهم الارزاق ، ورابعا هم فرحون بما نالوا ، مغمورون بالعطاء الاعلى وخامسا مطمئنون على أقاربهم وأصدقائهم الذين خلفوهم فى الدنيا ، انهم على حق والى خير ، وقريبا سوف يجتمع الشمل ويلحق أحياء الارض بأحياء السماء !

هذا ما تذكره الاية الكريمة : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

صحيح اننا لا نشعر بهذا كله ولا بعضه ! وقد صرحت سورة اخرى بذلك « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٢) .

أن عدم شعورنا لان أجهزة الاستقبال السمعى والبصرى عندنا محدودة القدرة ، وغيرنا من الكائنات يرانا ولا نراه ، وكما قال العلماء : عدم العلم ليس علما بالعدم ،ه كما يسافر احدنا من بلد الى بلد يسافر الموتى من مكان الى مكان ، حيث تبدأ الحياة الاخرة ، ويبدأ الحساب الرهيب تمهيدا للمحاكمة الكبرى يوم النشور ...

وهذه المرحلة المتوسطة هى البرزخ كما ذكرت الايات « حتى اذا جاء احدهم الموت قال : رب أرجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ

---

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ (٢) البقرة : ١٥٤

الى يوم يبعثون » (١) ويشبه ما يلقاه الفجار فى البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالمجرمين عندما يقعون فى قبضتهم .. هناك تحقيق ابتدائى سريع ثم يرمى المتهمون فى السجن ريثما يقدمون للقضاء فىمحكمة كبرى ..

ويشبه ما يلقاه الابرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤلفا تقررت مكافأته أو عبقريا منح جائزة سنية ، أنه يجاء به مكرما ويستريح فى احدى الغرف الانيقة ريثما يأخذ ما تقرر له ...

والذين يفعلون الخير أو الشر سواء فى مراتبهم ، فمن الاشرار من ينفتح له شواظ من نار يشوى وجهه حتى يوم اللقاء ! ومن الاخيار من يتذوق النعيم من أول يوم كما جاء فى وصف الشهداء أن أرواحهم معلقة فى قناديل تحت العرش ترد أنهار الجنة وتطعم من ثمارها ... !

المهم أن الموت رحلة من حياة أرضية محسوسة لنا الى حياة غيبية نسمع بخبرها .. وحسب . وقد كان الاصحاب الكرام يعرفون ذلك معرفة يقين ، فلما حضرت « بلالا » الوفاة صاحت امراته : —

واكرباه .. !! وصاح المحتضر المشرف على الموت : بل واطرباه ، غدا الاقى الاحبة ، محمدا وحزبه ! والواقع أن الموت نقلة الى عالم مستقر مطرد النمو ، ان اودية الموت ، من بدء الخليقة تستقبل الاجيال المدبرة ، الاجداد ثم الآباء ثم الاولاد ثم الاحفاد وهكذا من قديم ، فعالم الموتى يتسع باستمرار والنتائج تتكشف فيه ، ومعادن الناس تعرف ...

لكل اناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

---

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

وليس القصد من زيادة القبور ان مبانيها تزيد ، وانما القصد أن اللاحقين يتبعون السابقين ! مددا بعد مدد وهؤلاء واولئك فى انتظار القيامه الكبرى حتى يجيىء اوانها ..

وتبدا حياة البرزخ بلونيها من ساعة مفارقة الروح للجسد ، وتدبر قوله تعالى « ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم : اخرجوا انفسكم ! اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » (١).

واليوم — لا الغد — يبدأ العقاب على ما مضى من افتراء وكبرياء .

ان الانسان طرق الدنيا عاريا ، ولقد تقلب فيها ثم ها هو ذاك ، يتركها كما جاءها — لا مال ولا جاه ولا عزوة ولا سلطان « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ... » (٢)

ويظهر أنه بقدر ما يكون المرء طاغية فى حياته الاولى ، يكون ترصد الزبانية له وارتقابهم لمقدمه كيما يؤدب على غلوه وفساده، فتكون مراحل البرزخ الاولى لطمات تتناوله من كل جهة ، واهانات تلفه بالخزى والعار ، وذلك كله أيام القبر الاولى ، أعنى أيام البرزخ ، وليس يحتاج الامر الى مساءلة فمامحلها اذا كان المجرم قد لحقته الوفاة وهو يقاتل الحق ويخاصم حملته من المرسلين والصالحين ترى ذلك فى قصة الفراعنة « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » (٣) وتراه كذلك فى كبراء قريش الذين أدركتهم مناياهم وهم يقاتلون النبى صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر قال تعالى :

---

(١) ، (٢) الانعام : ٩٣ ، ٩٤

(٣) غافر : ٤٦

«ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههموأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ! ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (١) .

وقد رميت جثث المشركين البغاة فى بئر ، ووقف النبى بعد دفنهم يقول بصوت جهير : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ وهو يناديهم بأسمائهم ! فقال له أصحابه : اتنادى قوما جيفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون !

اننا لا نشعر بما يلقاه الراحلون عنا ، بل لا نشعر بشىء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب !

ولن تتأخر نفس ابدا عن أخذ طريقها الى البرزخ ! وملاقاة الجزاء المعد لها ، مهما كان حب الاقربين والاصدقاء والاتباع ! وتدبر قوله تعالى يصف حالة المحتضر وعجز من حوله « فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين » (٢) .

لا أريد تفسير الايات ، ولا ذكر من عجزنا عن ابصاره وهو أقرب الى الميت منا نحن الملتصقين به الحانين عليه !! اللهم ان البشر كلهم أصفار أمام سلطان الموت ، وأمام ما يقترن الموت به من مبادىء الحساب .

ان الموت فضح الحياة ، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمى ويصم ! وذهولنا عن الجزاء المرتقب ادهى وأمر ! ذلك ، وقد ورد فى الآثار أن الموتى لا يرجعون الينا ، بذلك سبق القول من الله ، وبذلك أجيب شهداء أحد .

---

(١) الانفال : ٥٠ — ٥١ (٢) الواقعة : ٨٣ — ٨٧

ومن ثم فالزعم بأن الارواح تستحضر فى مجالس خاصة وتقصمها تلقى على الحضور يكاد يكون رجما بالغيب وقد تتبعت بعض ما نسب الى هذه الارواح الحاضرة من كلام فوجدته تخليطا وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر !!

١١ – ما طبيعة الجزاء الأخروى ! هل هو روحى أم مادى ؟

هل خلق الانسان من روح وجسد شيء يعاب ؟

كذلك يرى بعض الناس ! بل كذلك قال أعداء الانبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله ، مقترحين ان يكون الرسول ملكا « وقالوا ما لهذا الرسول ياكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » !!

وكما أستنكروا أن يكون المرسلون بشرا ياكلون ، استنكروا عليهم الزواج ، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الانسان الكبير ، وعليه اذا أراد الكمال أن يكبتها .

وقد رد القرآن هذه المزاعم ، وبين جل شأنه أن المصطفين الاخيار من عباده كانوا رجالا ناضجى الغرائز « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية .. »

ومع ذلك فان بقايا من منطق الجاهلية القديمة لا تزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشرى لا يتم الا باعلان حرب مجنونة على البدن توهى قواه وتدوخ غرائزه .

بل سرى ذلك الفكر الى بعض المذاهب الدينية ، وانبنى عليه ، ان التقوى فى هذه الحياة تعنى الرهبانية وان السمو فى الحياة الاخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك فلابد أن يكون النعيم الموعود روحانيا محضا وكذلك العذاب المرصد للاشقياء !!

ولما كان الاسلام دين الفطرة السليمة ، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة ، فانه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج ، وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الانسان كائنا متميزا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية فى شخصيته ، بها جميعا يسمو أو يهبط وبها جميعا يثاب أو يعاقب .

أو كمــا يقــول الاســتاذ العقــاد : « ليس مــا يدين بــه المســلم أن يرتــد النــوع الانســانى الى مــا دون طبيعتــه ، ولكن ممــا يؤمن بــه أن ارتفــاع الانســان وهبوطه منوطــان بالتكليــف ، وقوامــه الحريــة والتبعــة فهــو بأمانة التكليف قابل للصعود الى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط الى أسفل سافلين ، وهذه الامانــة هى التى رفعته مقامــا فوق الملائكة ، أو هبطت به الى زمرة الشياطين » .

ليس الهبوط أن يشــتهى الانسان طعامــا أو امرأة . انما الهبوط أن يأكل المرء من سحت ، أو يتصل بمن لا تحل لــه .

فاذا طعم من حلال ، أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن اليها ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شىء فى ذلك أبدا .

لقد أخطأ كثير من المنتسبين الى الدين فى احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامى لا يحصل الا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الاخروية لا وجــود للبدن فيهــا ، وأن النعيم أو الجحيم معنويان ، وحسب !!

وقد سرى هذا الخطأ — كلا أو جزءا — الى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتنقوه ، وحسبوه دلالة ارتقاء ، وتجرد ، فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خللا سيئا فى موازين الجزاء كمــا أقامها الكتاب العزيز ..

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة فى الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلبا لجنته ، أو تدع عصيانه خوفا من ناره حتى توهم الناس أن الامل فى الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين !!

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير اسلامى . انه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما يحاكم الى العقل والنقل على سواء .

ولنبدأ بالنقل ... يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء ، فيذكر لنا أن رجلا مؤمنا بحث عن صاحب لـــه كان ظاهر الالحاد والفسوق ، فوجده قد استقر فى سواء الجحيم ! فحمد الله أن لم يتأثر به : « تالله ان كدت لتردين ، ولولا نعمـــة ربى لكنت من المحضرين ، افما نحن بميتين الا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون » .

النجاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العاملون ، فكيف يجىء أحد من الناس ، رجلا أو امرأة ليقول : بل هو أمل تافه ؟

ويقول الله جل جلاله « ان كتاب الابرار لفى عليين ، ومـــا أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم يشهده المقربون . ان الابرار لفى نعيم . على الارائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم. يســـقون من رحيق مختـــوم . ختامـــه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافســـون » .

فى الرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف فى وجوهم نضرة النعيم، فى هذا الجزاء الجزيل ينبغى أن يتنافس المتنافسون ! فكيف يجىء انسان رجلا كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلبا لشىء من ذلك

ان هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الانسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الاعلى ، أو العقاب السرمدى .

أن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادى والاخر معنوى ، فالمادى تكريم للانسان بفيض من التجلى الالهى يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية .

وبديهى أن المتاع الثانى أكبر من الاول ، كما قال جل شانه « ... ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

ولكن هل هناك فواصل — فى هذا الكيسان البشرى — بين الاحساسين أم أن الانسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعا ؟

ان اللذة والالم قوانين انسانية صارمة فلم الطعن فيها ؟

ولو فرضنا أن الجنة محلّ الكرامة الالهية ، لكفاها ذلك ، ولاحترمناها من أجل هذه النسبة ! ولا يأبى الكرامة الا لئيم ، فكيف — وهى الى جانب ما وصفناه — تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل انسان ، حاجة ذلك البدن الذى يضيره الحرمان ، ويضنيه القل والذل ، حاجة ذلك البدن الذى يكره الجوع والعطش والعرى والهوان ..

أمن أجل فكرة خيالية نجيء الى مئــات الايات الصريحة الواضحة فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحل فى تأويلها وافساد الاثار التربوية المقترنة بها .

« قل انى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

ماذا يبقى من آيات القرآن بنجاة من التأويل والابطال اذا تمت هذه المحاولة .

ان الله وجه الى نبيه هذا الامر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم « كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » .

ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب « فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز » .

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرىء ير   بعبادة الرغبة والرهبة ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنه ، وأنه — ان عبد — فانما يعبد ابتغاء وجه الله !!

ما هذا اللغو ؟ وهل الوجوه الناضرة بنظرها الى الله تظفر بذلك فى قعر جهنم ، أم تظفر بذلك فى حدائق الجنة ؟

قال لى احد المتصوفين : ان من الخساسة أن تعبد الله منتظرا أجرا . فقلت : من العبودية أن تستبشر بفضل الله وان توجل من عقوبته ، وان تعرف قدرك وتلزم حدك ! أين تريد أن تضع نفسك ؟

ان الله قال عن نبيه ابراهيم : « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الاخرة لمن الصالحين ».

فهل أنت فوق الانبياء استغناء عن الاجر الالهى ؟

وقال عن عباده المؤمنين الموفقين « تحيتهم يوم يلقونه سلام، واعد لهم أجرا كريما » .

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم فى سبيل ربهم فقال « والشهداء عند ربم لهم أجرهم ونورهم » فهل أنت فى مكانة اخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين ، مكانة الزاهد فى أجر او الرافض له ؟ ما هذا الغرور ؟

لقد وصف الله أولى الالباب بأنهم « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

فهل يرفض أن يكون من أولى الالباب الا البله ؟

ولقد أهاب الله بخلقه أن يسارعوا الى جنة « عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » فهل يكره أن ينتظم فى عداد المتقين الا الحمقى ؟

اننى أطلب من اخواننا الذين يكتبون فى التصوف أن يدمنوا النظر فى كتاب الله ، وان يستوحـوه ما يستجيـدون من معان وغايات ، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم . أما ترويج فكرة لرجل أو امرأة تبتعد عن هذا الضوء الكريم فأمر لا يستساغ، ومن حقنا أن نرفضه

لقد سمعت اشعارا تنسب الى رابعة العدوية بل حكى الرواة عنها ــ والعهدة عليهم ــ انها لما سمعت التذكير بفواكه الجنة وخيراتها ، قالت : لسنا أطفالا ، فنغرى بهذه الاشياء وسـواء صح ما نسب الى هـذه السيدة أو بطل ، فنحن كمـا قال أمير المؤمنين عمربن الخطاب فى فاطمة بنت قيس ــ وهى صحابية أفضل من رابعة ــ « لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى احفظت أم نسيت » !

ان الجنة وعد الله لعباده فنعما هى ، وشكرا لمن أعدهـا للمتقين ، وهنيئا لمن يصير اليها ، يمرح فى بحبوحتها ويسعد بربه الذى طالما صلى وصام من أجله !!

انه فى هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب ، ويتلقى فضله فى قلبه وعلى بدنه ، لذات مادية ومعنوية متشابكة لا انفصـام بينها ، « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ... ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » .

ونحن نلفت نظر المفسرين الا ينخدعوا بما شاع فى الديانات الاولى من أوهام او بما نسب اليها من افهام فاننا ورثنا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ..

١٢ — ماذا عن القضاء والقدر ؟ وكيف نوفق بين الآيات التى تدل على أن الانسان مختار ، والاخرى التى تدل على أنه مجبر ؟

يقول الله تعالى مبينا عن حكمته فى خلق العالم « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (١) ؟ اى أن هناك اختبارا كبيرا مفروضا على الناس يتحقق بعده — مصيرهم !

ما هذا المصير ؟ يقول جل شأنه فى آية أخرى « ولله ما فى السموات وما فى الارض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » (٢) هناك مسىء ينتظره العقاب ومحسن ينتظره الثواب !

وتلك عدالة لا مطعن فيها! بيد أن بعض الناس يقول : هذا الامتحان مزور ، وهذه النتائج مغشوشة والذى حدث أن الله هيأ للجنة ناسا وللنار ناسا وأجرى الامور كما شاء وستر مشيئته وراء فصول هذه التمثيلية الهازلة !!!

الله يقول أنه أرسل للبشر رسلا يدلونهم على الصراط المستقيم ، وقبل اولئك المرسلين منحهم عقولا يحسنون بها التفكير ويستطيعون بها الاختيار وقال لهم انى اقطع بهذا كله أعذاركم » ... ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين . او تقولوا : انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » (٣)

لن يقبل من أحد كلام بعد هذا البيان ! ومع ذلك يجىء أناس معتوهون يقولون، لا شىء الا الله لا عمل الا الله، أصابعه وراء كل

---

(١) هود : ٧ (٢) النجم : ٣١

(٣) الاعراف : ١٧٢ ، ١٧٣

شيء ، وبقى أن يقولوا : ما فى الجبة الا الله ، لا موجود غيره ، نحن وهم ما نصنعه وهم !!

واعرف أن وراء هذا التماوت وانكار الارادة البشرية والقدرية البشرية من يزعم التقوى ويدعى التصوف ، ولقد ظل أولئك يتماوتون حتى ماتوا أدبيا ، وتحولوا الى دواب يمتطيها المستعمرون ، ويذللونها لمآربهم !

بحثت عن السبب فى هذا الكذب فوجدته أحيانا رغبة البعض فى أن ينحرف ثم يرمى بالتبعة على القدر القاهر !

ووجدته أحيانا أخرى سوء الفهم لايات القرآن الكريم ، وجنون الجدل الذى مس بعض العلماء ثم نضح على جماهير الغوغاء .

وربما نشأ هذا التعلل المردود عن الخلط بين مواطن الاختيار الحق ومواطن الجبر القاهر ، فان — الانسان يحيا بين جبر واختيار فى كيانه الداخلى وفى حركاته الخارجية !

ان قلوبنا تدق دون استئذان وتمضى فى اداء وظيفتها دون تدخل من رادتنا ، افكذلك السنتنا حين نتكلم ؟

وقد يكون بعضنا ابيض الجلد والاخر اسوده ! أيسأل عن هذا التلوين كما يسأل الانسان عندما يحسد ذا نعمة أو يزدرى ذا عاهة ؟

وندع هذه النماذج للقدر الظاهر والاختيار الحر ، ونسوق أمثله مما تشترك فيه الارادة الانسانية مع الارادة الالهية ، فان هذا الاشتراك هو غالبا المهرب الذى يلجأ اليه الجبربون ويسيئون فيه تفسير النصوص . .

اننا نستغل الكهرباء فى بيوتنا للانارة والاذاعة والتبريد والتسخين ، فتصور ساكنا جاءه المحصل يطلب منه ثمن ما افاد

من كهرباء ، فقال له : ان التيــار مر فى الاســلاك من عندكم ، والمصباح عندى لا يمكن أن يضىء من ذاته ولو بقى دهرا ! يقول لــه المحصل : ماذا تقصد ؟ يقول : لا أدفع ثمن شىء انتم السبب الاول فيه ! يقول المحصل : انك تحرك المفاتيح فتسمع الاذاعــة ، وتنير المنزل ... الخ يقول لــه الساكن : لولا التيار الذى أرسلتموه ما تم شىء ... هكذا يقول بعض الناس لله : لولا ارادتك ما كان شىء ، فلماذا أحاسب ؟

وتصور فلاحا — كما قلت فى كتاب لى — زرع حشيشــا أو افيونا ، أو أى نبت مخدر ، ثم وقف أمام القضاء يدافع عن نفســه يقول : كيف أحاسب على ما زرع الله ؟ صحيح انى وضعت بذرة تافهة ، لكن من الذى نماها وحملها ثمرها ؟ انه القائل : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (١) ؟

كثير من الناس يعالج قضاياه الدينية بهذا المنطق !

نحن نعلم ان الانسان اذا أراد الذهاب الى المســجد أو الى الخمارة بقى قلبه يدق بقدر الله ، وبقى جهازه العصبى يصدر اوامره الى الاقدام لتتحرك بقدر الله ، وبقيت الارض دون خسف ولا زلزال باسم الله ! فهل معنى ذلك أن الله هو الذى دفع هذا الى المسجد دفعا ودفع ذلك الى الخمارة دفعا .

كلا كلا ! ان للانسان ارادة حرة ، بها كلف ، وبها صــح اختباره ، وبها تم جزاؤه . وكون الله أعانه على ما أراد لنفسه ، او أنضج له ما بذر فى أرضه ، أو أمده بالتيار الكهربى الذى انار بيته لا ينفى مسئوليته التامة عما فعل !!

---

(١) الواقعة : ٦٣ ، ٦٤

الارادة ميزة محققة مؤكدة فى الكيان الانسانى ، بها حمل امانة التكليف ، وبها تميز عن الجماد الاصم والحيوان الاعجم ، وبها يعلو أو يهوى ويشكر أو يكفر !

وعندما يتجه المرء — بمحض اختياره — الى الاحسان والاساءة فان تيار الارادة المبعوث فى أرجاء الوجود طيع بين أصابعه ، ان شاء اضاء فمشى فى النور ، أو أطفأ فخبط فى الظلام ..

وآيات القرآن تؤكد هذه الحقائق ، ويجب أن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويصدقه ويكمله !

اذا قال تعالى : « كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو » (١) فلنسأل أنفسنا : من الذين يشاء الله اضلالهم ؟ ولنسمع الاجابة من القرآن نفسه « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » (٢) « ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار » (٣) « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (٤)

ليس الامر اذن ليّ عنان رجل صالح كى يتعرض لعذاب الله ، لان الله شاء اضلاله وتعذيبه ، كلا ، وحاشا للبر الرحيم ، العدل الكريم أن يفعل ذلك ...

هذا امرؤ اتجه الى الشر فدفعته الاقدار فى طريقه الذى اختاره ، وهل يجنى العنب من بذر الشوك ؟

وكلما أوغل الشرير فى الطريق زاد سمك الغشاوة المضروبة على بصيرته ، فيظلم القلب ونعجز أهل الارض عن انارته « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٥) وهكذا

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) ابراهيم : ٢٧
(٣) الزمر : ٣ (٤) غافر : ٣٤
(٥) المطففين : ١٤

يصنع الله بالمجادلين فى آياته ، المستكبرين على الحق « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (١) .

الاساس أن هذا الذى شاء الله اضلاله ، اضل نفسه أولا؛ فانتم الله له مراده كما قال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٢) وكما قال فى موضع آخر « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى .. » (٣) .

ومن السفاهة الظن بأن الله ازاغ طالب هدى . أو اضل من اتبع سبيل المؤمنين !

وكما يشاء الله اضلال هؤلاء يهدى الى الحق من ابتغاه ونشده « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤) وقال تبارك اسمه « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم (٥) وقال : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٦) وقال « يهدى اليه من اناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله »(٧)

---

(١) غافر : ٣٥ — (٢) الصف : ٥
(٣) النساء : ١١٥ — (٤) محمد : ١٧
(٥) يونس : ٩ — (٦) التغابن : ١١
(٧) الرعد : ٢٧ — ٢٨

ان المشيئة الالهية ليست رمزا للفوضى وعندما يقول الله « من يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل » (١) فالامر كما شرحنا وكما شرحته آيات أخرى مثل « من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » (٢) أى يزيده حيرة وعمى فيستحيل أن يعينه أو ينقذه أحـــد ! « ويزيد الله الذين اهتدوا هـــدى » (٣) فيستحيل أن يضرهم او يتمرد بهم أحد بعد هذا العون الاعـــلى !. حيث يكون التكليف الالهى تكون الارادة الحرة ، وتكون المسئولية الخلقية والجنائية فى الدنيا والاخرة !

فاذا انعدمت الارادة لسبب ما فلا مسئولية البتة ، وكيف يكلف الانسان بما لا يطيق والله سبحانه يقـــول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت » (٤) .

قال لى احدهم : كيف يكون للانســـان اختيار وارادة الله نافذة فى خلقه جميعا ؟

قلت : ان الله فاوت بين خلقه ، فهناك فارق بين الجـــدار والحمار والانسان ! الجدار لا يحس والحمار لا يعقل ، والانسان يحس ويعقل وله ميزة فى تكوينه تجعل له معاملة اخرى غير معاملة الجدار والحمار !!

ان معاملتى لسائق السيارة غير معاملتى للسيارة نفســـها ، الفـــارق واســـع بين القـــائد والمقـــود والراكب والمركوب !! والمساواة بينهما فى التكليف حمق ...

وذكر لى آخر قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما

---

(١) الزمر : ٣٦ ، ٣٧ (٢) مريم : ٧٥
(٣) مريم : ٧٦ (٤) البقرة : ٢٨٦

يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » (١) .

وقال : أليست هذه الاية نصا فى سبق الهداية الالهية والاضلال الالهى ؟ قلت له : انت واهم تدبر ختام الاية الكريمة تجد مفتاح المعنى الذى غاب عنك « يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

ان الرجس الذى خنق صدورهم نشأ عن عدم ايمانهم ، فلما رفضوا الايمان وغصت به حلوقهم جوزوا بهذا الضيق والحرج ، اما الذين رضوا بالحق واستراحوا اليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر ....

ذلك ، والاختيار بين النهجين يصحب المرء فى كل يوم بل فى كل لحظة وهذا هو السر فى اننا نطلب من الله الهدى فى صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة **بالليل والنهار** ...

ان ظروفا هائلة تحيط بنا لا تعرف ارادتنا ولا قدراتنا ما تصنع بازائها ، وما أشبه الانسان بزورق — هش الصنع يعوم فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه سحاب .. هنا يتشبث الانسان بالتوفيق الالهى ويسأل ربه النجاة .

ومن العقل أن نميز بين الاقدار التى تحيط بنا وتتحكم فينا ، والاعمال التى طولبنا بها ونسأل غدا عنها !

---

(١) الانعام : ١٢٥

وارى ان انكار الاختيار البشرى فرار من وظائف العبودية ، واتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة . ما الذى نحاوله بهـذا المسلك ؟ يقول الله سبحانه : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »(١) ثم يقول « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها » (٢) ثم يقول عن الجزاء الاخير « هنا لك تبلوكل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق » (٣) فأين الظلم أو الجبر فى هـذا الصنيع ؟

---

(١) يونس : ٢٦ (٢) يونس : ٢٧
(٣) يونس : ٣٠

١٣ ــ ما دور المسجد فى الاســلام ؟

فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ... (١) أحيانا أتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران انما هو للساحــات الطهور التى تخصصت للركع السجود ، فبعد أن كانت أرضــا عادية يغشاها اى انسان أضحت أرضا لا يدخلها الا متوضىء ، وبعد أن كانت لاى غرض عادى أضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس ، ومهادا للمعراج الروحى الذى ينقل البشر من مآربهم القريبة الى مناجاة الله وتسبيحه وتمجيده !

اليس هذا ارتقاء معنويا للارض نفسها ؟ أحسست ذلك وانا أطالع ما جاء فى السنة المطهرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ذات يوم المسجد،فاذا هو برجل من الانصار يقال له أبو امامة : فقال : يا أبا امامة ، مالى أراك جالسا فى المســجد فى غير وقت الصلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله ! فقال لــه : الا اعلمك كلمات ! اذا قلتهن أذهب الله عنك همك ، وقضى دينك ؟ قال : قلت : بلى يا رسول الله .

قال : قل اذا أصبحت واذا أمسيت : « اللهم أنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ... فقلت ذلك فاذهب الله عنى غمى وقضى دينى » .

هذا رجل احرجته الايام ، وبدل أن يذهب الى بيت واحد من الاغنياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ما قيل :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء !

---

(١) النور : ٣٦

ذهب الى بيت الله يرجو جداه ، وينتظـــر نداه ! فلم يخب سعيه ، ولم يطل همه ...!

لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفســـه وحياته ..

واذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل فى المسجد فى غير وقت صلاة فانه عزم على المسلمين كافة أن يثوبوا الى المسجد وقت الصلاة وقال : ان صلاة الجماعة افضل من صلاة الفذ ــ المنفرد ــ بسبع وعشرين درجة .

وذلك انه اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج الى المسجد ، لم يخط خطوة الا رفعت له بها درجة وحطت عنه خطيئة فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ، تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة »

والواجب أن تتوطد صلة المؤمن بالمسجد ، وان يكثر التردد عليه صباحا ومساء ، بل ينبغى أن يتعلق به قلبه وان يزداد له حبه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة الا منافق قد علم نفاقه أو مريض ! ان كان المــريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتى الصلاة ! وقال :

ان رسول الله علمنا سنن الهدى ، وان سنن الهدى الصــلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه قال عبد الله وما منكم من أحد الا ولـــه مسجد فى بيته ، ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجـــدكم تركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم ...

وجمهور الفقهـــاء يرى الجماعـــة فى المسجد سنة مؤكـــدة، ولاريب ان التجمع نزعة أصيلة جادة فى تعاليم الاســـلام ، وان الجماعة من شعائره العظمى .

والاسلام يحارب بذلك المتدين المنهزم الفار من الحياة العاجز عن مواجهتها ، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون انفسهم ازكى واتقى ، وأن مخالطة الناس تنقصهم ! فهم يؤثرون العزلة — ويتهمون الغير ويغطون كبرا فى صدورهم ما هم ببالغيه .

ولعل أولئك هم الذين عناهم ابن عباس لما سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة ؟ فقال : هذا من أهل النار .. !!

ان رسالة المسجد فى الاسلام حشد المؤمنين فى صعيد واحد، ليتعارفوا ويتحابوا ، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا ما يعنيهم من شئون !!

وهذا التلاقى المنشود ليس حشر أجساد ، انما هو اندماج الفرد فى المجتمع على أساس من الحب وطلب مرضاة الله ، وعلى كل مسلم أن يرتفع الى هذا المستوى ، وأن يقتل نوازع الانانية اذا حدثته بالعزلة لامر ما فقد جاء فى الحديث،«ثلاث لا يغل عليهن قلب أمرىء مؤمن — اى لا يحقد او يخون — اخلاص العمل لله ، والمناصحة لائمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم فان دعاءهم محيط من ورائهم » اى أن بركة الله على الجماعة تشمل الكل وان كان بينهم من هو دونهم كما جاء فى حديث اخر : —

« يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار » .

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف ، وتعويد المسلمين عليه،والغريب أن أمتنا أبعد الامم عن احترامنظام الصفوالخضوع له ... مع ما ورد فى تنظيم الصفوف بالمساجد من توكيد وتشديد.

وتأمل فى هذا الحديث عن أبى مسعود « كان رسول الله يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلنى منكم أولوا الاحلام والنهى ثم الذين يلونهم » .

وفى روايـــة « أقيموا الصـــفوف ، وحـــاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ولينوا بأيدى اخوانكم ولا ترزو فرجات الشيطان، ومن وصل صفا وصله الله ، ومن قطعه قطعه الله » !!

لقد قرات فى حرب فارس أن صفا من المجاهدين كان يعبر نهرا، فسقط كوز أحد المجاهدين فتريث الصف كلـــه حتى عثر الجندى على ما سقط منه !! انهم يتحركون بروح الجماعـــة ، ولا يتصرفون كأنهم عقدا انفرطت حباته !

وكم يشعر المسلم بالاسى وهو يرى أمته فى زحام الحياة تتحرك بروح التطيع ، لا يهتم المرء الا بنفسه ومصلحته !! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات فى مناسك الحج ، لان نظام الصف ، والاحســـاس بالغير مفقودا عندنا فالمسجد لا يؤدى رسالته !!

ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافى للامة ، وذلك عن طريقين : الاول تدبر ما يتلى من القرآن فى الصلـــوات الجهرية وخطب الجمعه ، والقرآن كتاب يتحـــدث فى العقائد والعبادات والاخـــلاق والقوانين والشـــئون المحلية والدوليـــة ويصـــف الكون ويسرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء .

وقد كان ذلك المصدر الاول للمعرفـــة عند السلف ، اذ ان سليقتهم اللغوية امكنتهم من الاستمداد المباشر من آيات الله والحق ان الذين انصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغـــوا شأوا لا يضارع من السمو الفكرى والتربوى ، فليس عجبا ان ينطلقـــوا مشاعل هدى فى أرجاء الارض وينقلوها من الظلمات الى النور .

أما الطريق الثانى لتثقيف الامة فهو الدروس التى انتظمت فى ساحات المساجد ، تتناول جميع العلوم بل ان الشعر كان يلقى فى

المسجد ، وكان الصحابة يستمعون الى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية !

ومعروف ان المدارس الفقهية الكبرى كانت فى المساجد وان الائمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها ، والفقه الاسلامى يحتوى على كل ما يهم البشرية من المهد الى اللحد .

ولما كنت مديرا للمساجد وضعت لايام الاسبوع الستة غير الجمعه ستة دروس فى التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والاخلاق ، أما يوم الجمعة فحسبه الخطبة،وأعددت لذلك كراسات تحضير تراجع بعناية . . .

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقوم على انشاء مستوطنات . اساسها ثلاثة رجال ، امام مسجد ومهندس زراعة وضابط جيش وتركت اختيار الاماكن للمتخصصين . . .

وكان رايى ان تبنى المساجد فى المدن والقرى على اساس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان . . .

ان المسجد كان القلعة الروحية التى ينطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو ، وقد قاوم الجامع الازهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخيلهم،وقاوم الانجليز اوائل هذا القرن ،وكان يستقبل الاحرار من اقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار ، ويؤازرون اخوانهم المسلمين . . وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد – ايام الحروب الصليبية – فقصت شعرها ، وأرسلت الضفائر الى الامام مقترحة أن تكون قيد جواد لاحد المجاهدين مما جعل المسجد يضج بالحماس ، واغرى الرجال بالتفانى . .

وهل انهزمت أوربا فى حملاتها الاولى الا بهذه المشاعر وهل تراجع الاستعمار الجديد الا بالروح نفسها ؟

١٤ ــ لماذا كانت الصلوات خمسا فى اليوم ؟ وما هو شــكل الصلاة المقبولة !

كما يحتاج الجسم الناشط الى وجبات غنية تمده بالحرارة ، وتجدد ما بلى من خــلاياه ، وتحفظ عليه عافيته ، تحتاج النفس الانسانية الى وجبات أخرى تعينها على التحليق وتمنعها من الاسفاف ، وتسـتنقذها من أمواج الفتنة والذهول ، وشتى الاهواء والاقذاء !

ان الانسـان ــ بجواذب من طبعه ــ يحب أن يذكر نفسه وينسى ربه ، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضيع الآخرين ، يحب أن يأخذ ولا يعطى ، واذا أخذ فالشكر ثقيل عليه ، وان شكر فبكلمات خفيفة ... ثم لا حق بعد لاحد !!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهرا من هــذه الدنايا وتربية على جميع الفضائل التى تصح بها انسانيتهم وتكمل بهــا عبوديتهم ، وتتم بها رسالتهم فى هذه الحياة ، وهل خلقوا الا لعبادته سبحانه ؟

وكون الصلوات عددا معينا ككون الســعرات الحرارية التى يفتقر اليها الجسم عددا معينا ! لا تتحقق الثمرات المطلوبة الا بهذا المقدار ، ويقع الخلل المادى والادبى بمقدار هنا وهناك !

وننظر الى حقيقة الصلاة التى شرعهــا الله للناس ، يقول الفقهاء عن هذه الصلاة : انها أقوال وأفعال مبدوءة بتكبـير الله تبارك اسمه ومختومة بالسلام على عباد الله جميعا ...

قالوا : اما الافعال فقد استوعبت صور التحية التى كان يتقدم بها الناس الى رؤسائهم وعظمائهم بعد تجريدهــا من المقاصــد الرديئة ! الوقوف الخشع ! القعود المؤدب ! الركــوع والسجود اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام .. !

فأفعال الصلاة أن نقوم لله قانتين ، وان نركع ونسجد لــه معظمين ، وان نقعد مخبتين قائلين لــه : ان هذه التحيات التى اديناها . وكل عمل صالح نقوم به فى حياتنا هو لك وحــدك يا ربنا الكبير !!

اليس ربنا أهلا لهذه التحيات اللطيفة نقدمها له ــ سبحانه ــ صباحا ومساء ؟

بلى! وهو أهل التقوى واهل المغفرة. .لذلك يقول الله لكل مسلم « أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنــات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » (١) .

وربما احس المرء بكلفة فى اداء هذا الواجب ! واستثقل تكراره الم نقل ان الانسان قليل الشكر ؟ لا بأس عود نفسك « واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين » (٢)

وتكتنف افعال الصلاة أو تتخللها أقوال كثيرة والمطلوب أن يكون المصلى حاضر الوعى حين يتكلم ، فاذا بدأ صلاته قائلا : الله أكبر ، فمعنى ذلك أنه فى موقف جديد يجمعه مع الله فلينتبه !

ويسمى الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الاحرام ، كأن الانسان حرم على نفسه الانشغال بشىء آخر لانه شرع فى مناجاة الله ، والالتفات اليه وحده . .

والاقوال التى يرددها المصلى كثيرة ، لعل أهمهــا تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة ليس اختبارا فى الحفظ ! فان كلماتها تمثل لقاء حيا بين الله وعبده ، العبد يتكلم والسيد يجيب !

فى الحديث القدسى « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل . . .

---

(١) هود ١١٤ (٢) هود ١١٥

فاذا قال العبد « الحمد لله رب العالمين » قال الله عز وجل حمدنى عبدى !

واذا قال « الرحمن الرحيم » قال الله : أثنى على عبدى ..

واذا قال : « مالك يوم الدين » قال : مجدنى عبدى ..

واذا قال : « اياك نعبد واياك نستعين » قال : هــذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ..

واذا قال « اهدنا الصراط المستقيم صراط الــذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل — أى أعطيته ما طلب ..

وتكرار هذه المعانى حق ، فان نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر ، وذكر الله بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ثناء صادق ومدح مستحب ، والشعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا ..

وتعهد المصلى أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحــده هو ب التوحيد . فاذا وفى المصلى بعهده ، وســال ربه من رفده منحه ما يطلب ، وأفضل ما يطلب الانسان هدى يقيه الانحراف، ورضا يقيه الطرد ، ونعمة تقر بها عينه ، وسدادا يقيه الحيرة ...! الظفر بذلك سعادة الدنيا والاخرى .. !

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفســه . وفى هذه الزيادة معرفة أكثر بالوحى الاعلى ، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها ..

ثم يركع المصلى مسبحا ربه العظيم ، فكم من سكان الارض يشرك به أو يجحد وجوده أو يجهل ما ينبغى له من نعوت الكمال ، اما المسلم فهو يخالف أولئك جميعا وينزه ربه عمــالا يليق به من

نقائص . وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صـــعد الى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلا : سمع الله لمن حمده .. أى استجاب الله لمن أثنى عليه وحمده .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع من ركوعه احيانا ويقول : اللهم ربنا لك الحمـــد ملء السمـــوات وملء الارض وملء ما بينهما من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد — وكلنا لك عبد — لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .. !!

ومعنى الجملة الاخيرة أن المرء لا ينفعه عند الله ما نال فى الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة،فليس فى ذلك دليل على الرضوان الاعلى « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقـــدر وفرحوا بالحيـــاة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الاخرة الا متاع » (١)

ثم يهوى المصلى ساجدا يسبح اسم ربه الاعلى . ومع كل ركوع سجودان ! والانسان يكون فى أزكى أحوال واشرفها عندما يضع جبهته على الارض بين يدى ربه ؛ فليدع بما شاء .

وكان النبى أحيانا يقول فى سجوده : « سجد وجهى للذى خلقه وصـــوره وشـــق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخـــالقين أو « سبحان ذى الملكوت والجبروت والعظمة » وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءا او ختاما ...

وفى القعود الاول او الاخير يذكر المرء لربه أن كل مـــا سبق من أفعال وأقوال تحيات لوجهه الكريم ؛ فهو يقول : التحيات لله ، والصلوات الطيبات ثم يلقى السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم وربى وأرشد ، وكأن هـــذا السلام اشـــارة الى أنه

---

(١) الرعد ٢٦

الاسوة الحسنة ، فى اقام الصلاة ، وسائر الشرائع التى جاء بها !
ثم يرسل سلاما آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين . !

ما احلى هذه الكلمات كلها ، وما أشرف الصلاة التى يكلف المسلم بأدائها . .

ولهم امران : أحدهما عقلى والاخر قلبى ! أما العقلى فيجب ان يعلم ما يقول ، ويعرف ما يناجى ربه به فقد جاء فى السنة أن المرء لا يكتب له من صلاته الا ما عقل منها ! اما أن يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها ثم يقف تائها لا يدرى ما يتكلم به فهذا هبوط وضياع « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون»(١)

اما القلبى فان الصلاة تورث الخشوع والادب والخشية . وهى معراج روحى يرقى بصاحبه الى الملأ الاعلى ، انها — ان اقيمت كما شرع الله — توبة كاملة تمحو الخطايا محوا ، وتطهر النفس تطهيرا قال عليه الصلاة والسلام : أرايتم لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، ما تقولون أبقى ذلك من درنه شيئا ؟ قالوا . لا يبقى ذلك من درنه — قذاه — شيئا ! قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا .

والاساس انها تعصم من الخطايا ، وتحول دون مواقعتها كما قال تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٢) .

---

(١) النساء : ٤٣
(٢) العنكبوت : ٤٥

بيد أن البشر ضعاف وقد تهى ارادتهم أمام اغراء ما . ويزلهم الشيطان فهل ييأسون من تسام ومتاب وعـود الى الله ؟ كلا ، فليفزعوا الى الصلاة فهى تنقى أرواحهم وتشد عزائمهم وتردهم الى الصراط المسـتقيم ، المسـلم لا يذهب الى كاهن يأخـذ بيده ، فليس الكاهن خيرا منه؛ ولو فرضنا أنه خير فما ينفع الا نفسـه ولامفزع الا الله . . .

١٥ ــ ماذا يرمز اليه الوضوء ولماذا لا تصح الصلاة الا به ..!

نظرت الى بعض الاشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها ، وجعل أوراقها داكنة ، فلم تثر انتباها وخلفتها دون توقف .. وشاء الله أن تمطر السماء بعد قليل ، وكان مطرا غزيرا ، ومررت بالاشجار نفسها فكان منظرها عجبا كانت خضرتها تزهو ، والاوراق تحت اشعة الشمس تلمع ! فقلت : ما أحسن النظافة ، ابرزت الخلقة الطبيعية فى جمالها الاصيل وبعثت النفوس على الاعجاب ..

كذلك جسم الانسان . ان النظافة تجلوه وتزكيه ، والجسم الانسانى أحوج من غيره الى التطهير الدائم ، لان متاعبه لا تجىء من الغبار وحده ، وانما تجىء من افرازات الجلد والاعضاءونفايات الاجهزة التى لا تهدأ حركتها ولم أر نظاما للتنقية والتطرية أدق من التشريع الاسلامى فى احترام الجسم وازالة القذى عنه ، واستئصال ما يشينه واستبقاء ما يزينه ...

والوضوء من شعائر الاسلام المطردة فى الحياة الاسلامية ، وهو من الوضاءة أى الحسن الباهر ، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة انه تخلية وتحلية ، والنظافة قد تعنى ازالة الاوساخ وحسب !

وكلمة الغسل فى اللغة لا تعنى اسالة المـــاء فقط ، يقال : غسلت السماء الأرض اذا كان المطر بالغ الشدة ، واذا فرض الاسلام غسل أعضـــاء معينة فهو يريد تدليكها بمـــا يطهرها ولا يترك أثرا منفرا فوقها ..

وقد أوجب الاسلام الوضوء كما فرض جملة من الاغسال التى تشمل الجسد كله ! ونستطيع جعل الوضوء رمزا لفلسفة الاسلام فى تكريم الجسم الانسانى واعزازه اذ أن هناك عقائد تعلن حربا

على هذا الجسم وترى الارتقاء فى اهماله وانحافه والجور عليه ، وذلك فى زعمها لترقية الروح .

والواقع أن الانسان معنى ومبنى وقلب وقالب ، وعزل المادة عن الروح صعب .

والمفروض أن يكون المعنى الشريف فى مبنى نظيف ، وأن يكون القلب الطيب فى اهاب نفيس .. !

روى مسلم عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف الوضوء ؟ قال أما الوضوء فانك اذا توضأت فغسلت كفيك ، فأنقيتهما ، وغسلت وجهك ، ويديك الى المرفقين ، ومسحت رأسك ، وغسلت رجليك الى الكعبين ، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك !

قال أبو أمامة : يا عمر بن عبسة انظر ما تقول ؟ أكل هذا يعطى فى مجلس واحد ؟

قال عمرو : أما والله لقد كبرت سنى ، ودنا أجلى ، وما بى من فقر فأكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد سمعته اذناى ووعاه قلبى من رسول الله .

والواقع أن الجزاء المذكور ليس على مجرد الوضوء ، فان الوضوء وسيلة الى الصلاة ، وهذى وذاك مظهران لايمان حسن ، ومسارعة الى رضوان الله ، فالثواب الوارد منظور فيه الى جملة هذه الخصال المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من احاديث كثيرة ..

والوضوء وحده لا يصلح اذا كان الجسم بحاجة الى تطهير تام ، كما فى حالة الجنب والحائض والنفساء ، وقد أمر الاسلام بتتبع ما يلوث البدن حتى لا يبقى أى أثر لنجس ، وكانوا قديما

يستعينون ببعض الاعشاب والالياف لادراك النظافة المطلوبة ، وفى عصرنا توصل العلماء الى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض !

ان المعلم كالطبيب ، كلاهما يريد الكمال للانسان ، والطبيب فى كشوفه وعلاجاته يتناول الجسم كله لا يسنسى منه شيئا ، وكذلك فعل الاسلام وهو ينقى البدن ويجمله ، انه لم يتحرج من ذكر شيء مهم وفى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الفطرة خمس ، الختان ، والاستحداد — ازالة الشعر حول المواضع الحساسة — وقص الشارب ، وتقليم الاظافر ، ونتف الابط » .

اى أن من المحافظة على الفطرة السليمة — وهى جوهر الدين — أن يتعهد المرء بدنه بهذه الاداب ..

ومن أطال شعر راسه ، يجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره ، ففى الحديث « من كان له شعر فليكرمه » !!

ولابد من غسل الفم وتعهد الاسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا ، ان الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر اذى لاصحابه ، وقد أسقط الاسلام صلاة الجماعة عن الابخر !! كما ندب لمن اكل ثوما أو بصلا أو فجلا أن يبتعد عن المجالس العامة ، وتعاليم الاسلام فى استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التى تنظف الفم ، وقد تغنى مكان السواك ..

والغريب أن الاسلام لم يكتف بالطهارات التى قررها ، بل ضم الى ذلك التزين الذى يصلح الهيئة ، ويجلب الاحترام ، وقد

روى أبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أو مأت امراة من وراء ستر ، بيدها كتاب ! الى رســول الله صلى الله عليه وسلم فقبض يده ! وقال : ما أدرى ، أيد رجل أم يد امراة ؟ فقالت : بل يد امراة ! فقال لو كنت امراة لغـيرت أظافرك — يعنى بالحناء — أى لظهرت حمرة الخضاب على الاظافر !!

وعن عائشة أيضا أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله بايعنى ، قال : لا ابايعك حتى تغـيرى كفيك كانهما كفـا سـبع — اى وحش — !

والتجمل شيء غير التبرج ، التبرج اهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الاثم ! أما التجمل فهو ابراز الجمال الطبيعى فى اطاره العادى المعتدل ، وجمال الانوثة غير جمال الرجولـة ، والاسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالاخر ، وليس معنى نهى المراة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر أو كريهـة الرائحة ، كلا فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام ، ولتكن طيبة الرائحـة دون تعطـر صارخ .. !

قلنا : ان الوضوء من الوضاءة ، اى الحسن والملاحة والاشراق ! والحياة الاسلامية الاولى كانت آية فى النظافة والارتقاء ، فلمـا ساء معنى التدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وان اهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الاخرة ! والحق أن الشكل الفوضوى دليل موضوع مشوش وأن من أهمل حق بدنه لا يؤتمن على كثير من الحقوق ..

أما نستحى — وقد أضاف الله الزينة الى نفسـه — ان ننآى عنها ؟ ألم يجيء فى الكتاب العزيز « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (١) .. ؟ ان الله يريد وضاءتنا فلم نريد نحن الدمامة والرثاثة ؟؟

---

(١) الأعراف : ٣٢

ان الوضوء رمز اسلامى لكل أسباب النظافة والزينة على ان يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيــف ، وأدب رائق جميل ، فيكمل الانسان جوهرا ومظهرا وحقيقة وصورة .. !

والوضوء ليس شرطا لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه فى أوقاته كلها جنبا او طاهرا بل يستطيع ان يقرأ القرآن الكريم — فيما أرى — وتسطيع الحائض ذلك . والمؤمن لا ينجس ابدا والجنابة عارض لبدنه يمكن الخلاص منه على عجل..

اما الصلوات المكتوبة كلها فيستحيل الدخول فيها دون طهر، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر ، أما الحدث الاكبر فلابد من الغسل ..

وانما اشترط ذلك حتى لا يتجوز المؤمن فى شئون النظافة ، ويتركها لاى عذر ينويه ، فما أسرع الناس الى الترخص فيما لم يلزموا به حتما ، واذا كانت الصلاة من أركان الاسلام الخمسة ، فان النظافة تعد من الاركان لانها تمهيد لامناص منه للصلاة ، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم والطف اذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدى الله «يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد.»(٢)

والنظافة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الغنى او الفقــــر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعدم أية وسيلة تجعله تقيا وسيما ، وكم من فقير نظيف ! وغنى ممجوج ... !

---

(٢) الاعراف ٣١

١٦ – ما حكمة الحج ؟ ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهى بناء من حجر ؟

سمعت أحد الدعاة يقول : ان الله كلفنا بما نعقل فأطعنا ، فأراد أن يبلونا بأفعال الحج ليرى : أنطيعه فيما لا نعقل أم نعصيه ؟ قلت له : هذا كلام ردىء ، وأفعال الحج ترتبط بحكم لا ينكرها العقل ، وقد شرحتها فى موضع آخر ولابأس من اعادتها هنا .

ان الامم تغالى بكثير من ذكرياتها ، وتقترن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد ربط النصارى أنفسهم بقبر المسيح وطريق الالام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى ، وأسسوا عليه حقوقا ما أنزل الله بها من سلطان ! فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم المقدسة ، ارتباطا – يبدو – عندما يدرس – أقرب الى الرشد ، وأبعد عن الوهم ؟ ..

الكعبة هى البيت الحرام الذى بنى لتقام فيه وعنده الصلوات لله وحده ، وقد قيل لابراهيم وهو يؤسسه « لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » (١) .

وهذا المسجد الحرام – أعنى الكعبة – هو أول مسجد بنى فى الدنيا لتوحيد الله ، ونبذ الشركاء ، وتمحيض العبادة لرب العالمين

أليست لهذه الاولية حقوق ؟ بلى . وطليعة هذه الحقوق ألا يشاد مسجد فى العالم الا اتجه اليه وشاركه غايته فى التوحيد

---

(١) الحج ٢٦

الخالص ! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذى أصبح قبلته حيا وميتا . !

هذه المعانى هى التى ذكرها القرآن الكريم فى اثناء الحديث عن هذه الكعبة«ان أول بيت وضع للناس للذى ببكه مباركا وهدى للعالمين » (١) لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٢) « فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (٣) ...

من اجل ذلك تنبعث الوفود من المشارق والمغارب لترى البيت الذى تصلى اليه ، ولتطوف حوله طواف تقدير واحترام !

ماذا يقول الحجيج وهم يطوفون بهذا البيت ؟ يقولون « لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » ! يقولون : « سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر » ..

انهم لا يعبدون البيت وانما يعبدون رب البيت ، والطواف كما جمع العلماء ـ صلاة لابد لها من طهارة البدن ولابد فيها من خلوص لقلب لله .

ومن زعم أن الكعبة كلها او بعضها يضر او ينفع فهو خارج من الاسلام .

---

(١) آل عمران ٩٦
(٢)آل عمران ٩٧
(٣) البقرة ١٤٤

ومن حق رب البيت أن يضع طريقا لزيارة بيته ، فاذا جعلها طوافا من سبعة أشواط فليس فى الامر مــا يستغرب ، ففى طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات!!

وحكمة أخرى لا تقل جلالا عن سابقتها ، تفسر الطواف حول البيت العتيق ، ان الامة الاسلامية التى تبلغ الان الف مليون من البشر ، بدات دعوة حارة على السنة الرسولين الكريمين اللذين توليابناء هذا البيت!دعوة ملؤها الاستسلام لله،والرغبة فىمدعبادته من الاباء الى الابناء الى الاحفاد الى قيام الساعة « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمــة مسلمة لك .. » (١) كمــاأن هذين الرسولين الكريمين دعــوا الله أن يجعل فى هــذه الامة نبيا يعلم ويربى ويتلو آيات الوحى الصادق ، فكانت بعثة النبى الخاتم بعد قرون طوال !

اهناك ذكريات تاريخية أعز من هذه الذكريات ؟ فاذا لم يحج المسلمون البيت الذى بدأ عنده تاريخهم ، فأين يحجون ؟ واذا لم يقصدوا البيت الذى كان نبيهم دعوة مخبوءة فى ضمير عند بنائه استجابها الله وباركها فأين يقصدون ؟

ان الكعبة بناء من حجر ، ما يغليها أن تكون بناء من ذهب ولا يرخصها أن تكون من خشــب ، المهم هــو المعنى الــذى يحفها .. !

رجل واحد هو فى طاقته أمة ! أحب الله من أعماق قلبه، والقى فى النار لحرصه على توحيده ، وخاصم الملوك والجماهير لاعلاء هذه الحقيقة ، وتنقل بين أرجــاء رحبة من الارض يدعو

---

(١) البقرة : ١٢٨

ويجادل ، طوحت به سياحاته الى هذا المكان النائى ليشيد على انقاض الوثنية حصنا للتوحيد، ويسأل ربه وهو يبنى ان يجعل من عقبه امة تحمى الحق وترفع رايته ، أكان للناس عجبا ان تهرع هذه الامة بعدما تمخض عنها الغيب لتزور المسجد الذى وضع ابوها ، وتهتف من حوله بشعار التوحيد ؟

ان الاب الراحل دعا الاجيال لتزور بيت الله ، وتوثق حبالها بالعقيدة التى انشأته ، ووقع فى قلوب الالوف المؤلفة صدى هـــذا النداء ، فأتت من كل فج تقـــول : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والملك لك ، لا شريك لك !

فهل تتهم هذه الوفود الموحدة بأنها وثنية ؟ أليست هـــذه السفاهة بعينها ... ؟

ان بعض الناس لا يدرى المعانى العظيمة التى تحف مناسك الحج ، وقد يكون الحجاج انفسهم من هذا القبيل !

نظرت الى « المسعى » وهو يموج بحشود كثيفة تطوف بين الصفا والمروة ، وساءلت نفسى : ان هذا الســـعى بين الجبلين الصغيرين شرع لترسيخ عقيدة التوكل عـــلى الله ، وان وهت الاسباب المادية ، فهل الساعون يعون ذلك ؟

من قرون خلت كانت هذه البقعة يسودها صمت الوحشة والانقطاع ، لا انيس هنا لك ولا عمران ، جاءهـــا ابراهيم عليه السلام بامرأته وابنه الرضيع ، ثم قال : للام الضعيفة : سأترك هنا .. !

وتساءلت هاجر دهشة : تتركنا هنا أنا واسماعيل .. ؟

حيث لا زرع وضرع ، ولا دار ولا ديار ؟ نعم قالت : الله امرك بهذا ؟ نعم ..

اذن لا يضيعنا !! وانصرف الاب لا يدرى ماذا سيقع له ولا ما سيقع لاسرته ، لقد نفذ ما أوحى الله به وحسب !

ونفد الزاد والماء من هاجر ، وجاءت الساعة الحرجة ، وانطلقت الام بين الربوتين الجاثمتين على صدر الوادى تبحث عن غوث للرضيع الذى يوشك أن يهلك .

وبعد امد جاء الملك وفجر بئر زمزم ، وحامت الطير حول الماء الدافق ، واحس الناس ما جد فأقبلوا على المكان يعمرونه !

ان ثقة هاجر فى الله أثمرت الخير ، ولم يخذلها الله بعدما آوت اليه ..

والتوكل على الله — مع ضعف الاسباب أو انعدامها — زاد يحتاج اليه المجاهدون ، والمضطهدون ، يعتمدون عليه فى اليوم الكالح كى يسلمهم الى غد رابح .

وقد خسر المسلمون معارك كثيرة ، كانوا جديرين بكسبها لو استندوا الى الله ، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هانوا فى ارضهم !

هل يعى ذلك الساعون بين الصفا والمروة ؟ وهل عرفوا عقبى التوكل عندما يمثلون الدور الذى قامت به أم اسماعيل وهى تتحرك جيئة وذهابابين الربوتين ؟

قال التاريخ : واعترض الشيطان ابراهيم لمـا ترك اسرته بالوادى المقفر ، يقول له : كيف تنفذ أمرا فيه هلاك أهلك ، لان الله أمرك ؟ فحذفه ! ابراهيم بحصيات التقطهـا من التراب ، فكانت تلك سنة رمى الجمار فيما بعد !

ان مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهـم وماضيهم وحاضرهم .

ويكفى أنها تجمعهم من أطراف الارض شعثا غبرا لا تفريق بين ملك وسوقة ، ولا بين جنس وجنس ، ليقفوا فى ساحة عرفة فى تظاهرة هائلة ، الهتاف فيها لله وحده ، والرجاء فى ذاته والتكبير لاسمه ، والضراعة بين يديه ، فقر العبودية ظاهر ! وغنى الربوبية باهر ! ومن قبل الشروق الى ما بعد الغروب لا ذكر الا لله ولا طلب الا منه سبحانه ..

ان الحج من الناحيـة الروحية اذكاء مشـاعر ، وتجـديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التى تكفل مصلحة المسلمين العليا .

ولكى ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون فى السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة .

فى السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ، ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم ..

وفى السنة العاشرة وضعت تقاليد انسانية وآداب عامـة تضمنتهـا الخطبة الجليلـة التى القاهـا الرسول صـلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ..

فهل يسمع المسلمون شيئا ذا بال عندمـا يحجون فى هـذه الايام ؟

١٧ ــ ما هى دار الحرب ، وما هى دار الاســلام ؟

يقصد بدار الاسلام جميع الاراضى التى يعمرها المؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم العاملون بكتابه وسنته المنفذون لشرائعه ، والمنضوون تحت لوائه . ويقصد بدار الحــرب جميع الاراضى التى يقطنها الكافرون بهذه الرسالة ، المخاصمون لها ، المعترضون لدعوتها ..

قد تتسع هذه الدار فتشمل كل الاوطان التى غزانا منهــا الصليبيون القدامى ، أى أوربا كلها تقريبا ! وقد تتسع لتشمل كل الاقطار التى أغار منها التتــار علينا ، فوصلوا من الصــين الى فلسطين ! ، وقد تضم كتابيين ، ووثنيين ، وملاحدة !

وقد سميت هذه البقاع واهلوها دار حرب من باب المعاملة بالمثل ــ كما يتبين ذلك قريبا ــ فان أرض الاسلام لم تكن لهــا حرمة عند أعدائه فلم تصان ارض أولئك الاعداء .. ؟

على أنى أشعر بالالم لهذه الجفوة القاسـية وآسى لانسانية انقسمت على هذا النحو الدامى ، وتاريخ مليىء بالاحن والحروب !

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين ، ولا عهـود تؤمن الاتباع من هنا ومن هنا ، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاترة تشعل الاحقاد ، وتورثهــا للاحفاد ، وليس بين الفريقين الا مــا يقوله الشاعر .

الله يعلم انا لا نحبكم ولا نلو مكمو الا تحبونا

كل له نية فى بغض صاحبه . بنعمة الله نقليكم وتقلونا !!

من المسئول عن ذلك ؟ قبل أن اذكر ما عندى اذكر مـــا قاله اقطاب القانون الدولى عند الأوربيين ، وهي أقوال نقلتها عنكتاب « المجتمعات الدولية الاقليمية » المقرر فى معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية .

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يوما فى ميدان الدعوة الاسلامية هو الدكتور محمد حافظ غانم وزير التعليم العالى الاسبق ..

كتب تحت عنوان « العائلة الدولية كانت تستبعد دار الاسلام من حظيرتها » فقال : منذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الاسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الاسلامية بالحقوق التى يقررها هـــذا القانون » (١) .

وعلى هذا الاساس لم يكن الفقهاء الاوربيون راغبين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءا من الجماعة الدولية فـ « جروسيوس » أبو القانون الدولىقال بوجوب عدممعاملة الشعوب غير المسيحية على قـــدم المساواة مع الشـــعوب المسيحية ! ومع أنه يرى القانون الطبيعى مجيزا لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى الا انه نادى بتكتل الامراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة .

و « جينتليس » هاجم « فرانسوا الاول » ملك فرنســـا لعقده معاهـــدة مع السلطان سليمان القانونى — الخليفة العثمانى — سنة ١٥٣٥ مع أن هذه المعاهدة اقامت سلاما بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنســـيين من دفع الجزية التى كانت مقـــررة على غير

---

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤصلة بمراجعهـــا العلمية والاجنبية وقد أثبتها كلها فى كتابى « كفاح دين »

المسلمين اذا ما أقاموا فى دار الاسلام ! ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

وذلك على اساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاونا بين ملك مسيحى وبين غير المؤمنين !

اقول : وهو تعاون — فى نظر رجل القانون الدولى — لا يجوز بل يجب ان يبقى التناكر والتعادى بين الفريقين وان تهيأ الفرص لسفك المزيد من الدماء ! بم نعلق ؟ « قل : لا تسالون عما أجر منا ولا نسأل عما تعملون ، قل : يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » (١) ..

يقول المؤلف : بل لقد ذهب فقهاء آخرون الى أنه من الممكن اقامة سلام دائم فى أوربا ، على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين — أى ضد المسلمين — وظهرت عدة مشروعات — من هذا النوع .

ويستطرد المؤلف — بعد شرح هذه المشروعات — فيقول : ان الدول الاوربية فى تعاملها مع الشعوب الاسلامية كانت تنظر اليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد قانون الحرب ! ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضى المسلمين عملا فاضلا يدعو الى الفخر .. !!

ثم يقول المؤلف : ونخلص مما تقدم الى انه حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة اسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولى .

---

(١) سبأ : ٢٥ ، ٢٦

هكذا كانت النظرة الينا حتى بدايات العصر الحديث ! والواقع ان رجال الحـرب والسياسة والقانون كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون الينا ببغضاء عميقة ، وقد ورثوا عن آبائهم كفرا برسالة محمدٍ ورغبة جامحة فى تشويهها والقضاء عليها !

محمد مـدع لا صلة له بالنبوة ! واتباعه مخدوعـون لا يقبل منهم ايمان ،وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادى او ادبى ينبغى ان يراعى ! انهم خارجـون عـلى القانون فمن اغتالهم او اجتاحهم لم يرتكب اثما !

ماذا يفعل المسلمون اذا رأو هذا الحيف ، وهم موقنون بأن الله واحد ، وان رسله كلهم — ومعهم محمد — حق ؟

اذا اعتبرت أرضـهم دار حرب اعتبروا ارض غـيرهم دار سلام ؟ هذى بلاهة !!

كان عباد الاصنام يشمئزون من عقيدة التوحيد ! ويرفضون سماع شيء عنها « واذا ذكرت ربك فى القرآن وحـده ولوا على ادبارهم نفوراً » (١) .

ليكن « لى عملى ولكم عملكم انتم بريئون مما أعمل وانا برىء مما تعملون » (٢) !!

لا ، لن ندعك تدعو ولن ندع الاخرين يتبعوك ، والسيف هو الحاكم ! ويصور القرآن الموقف فى هذه العبارة « لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (٣)

---

(١) الاسراء : ٤٦
(٢) يونس : ٤١
(٣) البقرة : ٢١٧

فاذا تجاوزنا الوثنيين الى أهل الكتاب وجدنا الضغائن اشد والانياب أحد . . انهم لا يطيقون سماع كلمة عن الاسلام « وقالوا : كونوا هودا او نصارى تهتدوا . . » (١)

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن ننسلخ عن ديننا ونتبعه !

اننا يا قوم أعرف بموسى وعيسى ، وأرعى لتراثهما الصحيح، واسرع الى مرضاة الله الذى أرسلهما ، وأرسل بعدهما محمدا . .

لا لن نصفولكم « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . . » (٢)

ويبذل أهل الكتاب جهود المستميت لسحق الدين الجديد ، وتعويق المصدقين له ، وصرفهم ولو الى الالحاد أو الوثنية !!

وانك لترى تقريع الاسى والغضب فى تعليق القرآن على هذا الموقف الوضيع « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » (٣) .

ماذا يصنع المسلمون بازاء هذه العداوات المحيطة ؟ ان الذى يطلب منهم الاستكانة لها لا ذرة لديه من عقل . .

---

(١) البقرة : ١٣٥
(٢) البقرة : ١٢٠
(٣) آل عمران ٩٨ — ٩٩

وها قد طلع العصر الحديث ، عصر عصبة الامم ، ثم هيئة الامم ، ومجلس الامن ، وقيل ان للانسان حقوقا ، وللشعوب كرامات ! فهل اختفت المواريث القذرة فى تاريخ العالم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن ؟

ان قضية فلسطين نموذج لشر ضروب التعصب ؛ فقد طرد شعب مسلم من داره،وحلت محله اسرائيل،وقالت الدول الراقية : لقد خلقت اسرائيل لتبقى ...

وستتبع فلسطين اقطار اخرى مادامت جزءا من أرض الاسلام لانها فى نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب !!

اننا لا نحب هذا التقسيم ، ولكن غيرنا الجأنا اليه واذا تركه تركناه ....

١٨ — ما حقيقة الحرب والسلم فى الاسلام .... ؟

ألف « ابن تيمية » رسالة صغيرة عن القتال فى الاسلام بداها بهذا السؤال : هل مقاتلة الكفار بسبب عدوانهم ام لمجرد كفرهم ؟ ثم أجاب (١) : فى ذلك قولان مشهوران للعلماء .

الاول قول الجمهور كمالك واحمد بن حنبل وابى حنيفة وغيرهم، فهؤلاء يرون أن الكفار يقاتلون لاعتدائهم لا لضلالهم !

والثانى قول الشافعى وربما علل به بعض أصحاب احمد ، واساس هذا القول أن الكفار يحاربون لسوء عقيدتهم وجحدهم لله ولحقوقه !

قال ابن تيمية : وقول الجمهور هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فان الله سبحانه قال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (٢)

---

(١) تصرفنا فى العبارات بما يقرب المعانى الى القارىء
(٢) البقرة : ١٩٠ — ١٩٤

فقوله : « الذين يقاتلونكم » تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا ، فدل على أن هذا علة الامر بالقتال . ثم « ولا تعتدوا » والعدوان مجاوزة الحد فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان ، ويدل عليه أيضا قوله بعد هذا « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » فدل على انه لا تجوز الزيادة .

ثم قال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسرا كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا !

« ويكون الدين لله » وهذا يحصل اذا ظهرت كلمة الاسلام وكان حكم الله ورسوله غالبا ..

ذاك ما جاء فى الكتاب الكريم ، أما ما جاء فى السنة فقد صح ان النبى صلى الله عليه وسلم مر فى بعض غزواته على امراة مقتولة ــ فكأنه كره ذلك ــ وقال : « ما كانت هذه لتقاتل ! فعلمنا ان العلة فى تحريم قتلها انها لم تكن تقاتل » .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصى بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال روى ابو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوصى الجيش الذاهب الى المعركة « انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ، ولا صغيرا ، ولا امراة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم واصلحوا ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وقد ادعت طائفة ان هذه الاية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا رأى ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج الى دليل وليس فى القرآن

ما يناقض — الايات التى ذكرناها — بل فيه ما يوافقهـا فمن أين يجيىء النسخ ؟ الصحيح انها محكمة وان من ليس معدا نفسـه للقتال كالرهبان والشيوخ الفناة ، والزمنى والمكافيف والمجانين ، فان هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ ، وهذا قـول جمهور العلماء ..

ونمضى نحن فى مناقشة القائلين بالنسخ بشىء من التفصيل يزيد الحق وضوحا . .

من اعجب ما قرات أن قوله تعالى :« قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » منسوخ بالاية التالية مباشرة « اقتلوهم حيث ثقفتموهم » !!

وهذا ضرب من اللغوما كان يجوز اثباته ، لان القائل قطع جملة من الاية عن بقيتها « واخرجوهم من حيث أخرجوكم » وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ فى دماغ عاقل ، ولذلك نتجاوز هذا الراى ...

الدليل الذى يعتمد عليه القائلون بالنسـخ مـا يسمى بآية السيف يعنون مثلا قوله تعالى : « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... » (1)

وفى هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذى عينين فان كلمة المشركين هنا فسرت فى الايات السابقة والايات اللاحقة بانهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حدا لا يطاق ، وانهم جماعةمن

(1) التوبة : ٥

الفتاك القادرين تعرفهم عندما تقرأ الاية التى استثنت من تصان دماؤهم من المشركين ، وهى قوله سبحانه « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحد (١) .

يعنى أن المشركين المطاردين هم قوم نقصونا حقوقنا وظاهروا أعداءنا ، واحتقروا عهودنا .

ولكى نزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم فى الايات الاتية « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولاذمة ؟ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن الا ولاذمة وأولئك هم المعتدون » (٢) !!

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم فى صدر سورة براءة ، واعطوا اربعة اشهر مهلة ليروا ما يصنعون بأنفسهم ! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية«قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم»

ان القول بنسخ لا قتال الا للمعتدين لا مساغ له أبدا ، ولا يدل على نقه فى القرآن الكريم .

قال لى بعض الاخوة : على رسلك ، ان الاطار الذى تريد وضع الجهاد الاسلامى داخله قد محته آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذى يخاصم الضلال حيثكان ،ويريد غسل الارض منه ، فلا داعى لهذه القيود التى تذكر .. . !!

---

(١) التوبة : ٤

(٢) التوبة : ٨ ، ٩ ، ١٠

قلت : اين هذه الايات ؟ قال : الم تقرا قوله تعالى يغرى طلاب الاخرة بالجهاد : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما » (١) ان هذه الاية تحث على خوض الحروب انتصر المرء فيها او انهزم وما دام يريد اعلاء كلمة الله فله اجره !

قلت : لعلك لو قرات الاية التى تليها مباشرة لعلمت ان هذه الحرب لم تكن عدوانا بل ردا للعدوان وكسرا للطغيان !

اليس يقول الله سبحانه فى حفز الهمم لخوض هذه الحرب « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » (٢) .

ان هذا القتال من اشرف ما دار على سطح الارض بالنسبة الى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بانه قتال لم يرتبط بقيد معين ؟

فصمت قليلا ثم قال خذ آية أخرى قال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق . . » (٣)

قلت : هذه آية تصف ما يجب عند التحام الرجال فى المعركة ، ولا تتحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فان

---

(١) النساء : ٧٤
(٢) النساء : ٧٥
(٣) محمد : ٤

اول السورة التى ذكــرت فيها الاية يحـــدد من هو العدو الذى نحاربه !

أول هذه السورة « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل اعمالهم » (١) والصد عن سبيل الله يعنى تعويق الدعوة عن المضى فى مسارها ، وايذاء المؤمنين الذين تنشرح صدورهم بها ، وهـــذا عدوان حقيقى !!

قال : خذ آية أخرى والايات كثيرة « انفروا خفافا وثقـــالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله » (٢) قلت : هذه الاية بين عشرات من الايات التى نزلت فى غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كى يقاتلوا الروم ، ويحدوا من طغيان النصرانية شـــمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومـــان قتلوا بعض من اسلم فى مــدينة «معان»،ونشروا الرعب فى بقاع واسعة كان عملاؤهم يحكمونها . .

وقد حاول المسلمون أن يقفوا هذا التحدى ، وارسلوا جيشا الى « مؤته » هزمه الرومـــان ، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به ، ولم يجد المسلمون بدا من الانسحاب ، فعادوا الى المدينة وقلوبهم كسيرة .

وازداد الطين بلة ، فان تيار الدعوة ركد تحت تأثير السطوة الرومانية المحذورة ولم ير النبى مناصا من اعداد اكبر جيش فى تاريخ الدعوة لينازل الامبراطورية العجوز ويلزمها حدودها ! ان الحرب كانت واجبا حتما ، ولم تكن غارة عمياء ، وسوف نزيد الامر وضوحا فيما بعـــد

---

(١) محمد : ١

(٢) التوبة : ٤١

١٩ — لماذا حمل الرسول السيف ؟ ولم يكتف بالاقناع ؟

فى هذا السؤال ايماءة مرفوضة الى أن الرسول حارب ليحمل الخصوم على قبول الدعوة ! وهذه تهمة لا أصل لها من عقل أو نقل ! ماذا يدعيه المدعون بعد أمر الله لرسوله « قل : الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) » وقوله سبحانه : ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » (٢) .

ان الاسلام بنى خطته فى الحياة على استحالة زوال الاديان كلها ، واكتفى بأن يبقى مذكرا بالحق ، منكرا للهوى ، وترى ذلك فى قوله سبحانه « ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين»(٣)

حسبنا نحن المسلمين أن نقرر الحق ، وأن نحيا على هداه، وان نمهد طريقه لمن احب سلوكه ، ولنا بلا ريب ان نرد المهاجمين، وان نحمى المستضعفين ، وان نسكت المفترين اذا تمادوا فى أذاهم !

ولننظر فى الكتاب الذى ارسله النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل يدعوه الى الاسلام ، ولنتأمل ما جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوك بدعاية

---

(١) الكهف ٢٩

(٢) الانسان ٢٩

(٣) البقرة ١٤٥

الاسلام . أسلم تسـلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت فان عليك اثم الارسيين « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمـة سـواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخـذ بعضنا بعضـا أربابا من دون الله ، فان تولـوا فقولوا اشـهدوا بانا مسلمون » (١) !

بم ختم هذا الكتاب ؟ ان رفضتم الاسلام فاعلموا أننا مسلمون باقون على اسلامنا ، لا تهديد ولا سباب ! وانما جاء التأثيم فى موقف هرقل — اذا بقى على دينه — من « الاريسيين » .

ونحن نرى مع بعض المحققين أن الاريسيين هم أتباع آريوس البطريق الذى قاد حركة الموحدين فى التاريخ الكنسى ، ورفض بقوة جعل عيسى الها أو ابنا لله ..

وهذا القس الموحد لقى مع أتباعه اضطهادا شديدا، وتضافرت قـوى الدولـة الرومانية عـلى مطاردته ومصـادرة دعوته ، وورثت الحكومات الاخرى هذا الترويع حتى انقرضت كنيسته أو كادت .. !

ونستبعد ان يكون المراد بكلمة الاريسيين الفلاحين ، ومأساة الموحدين فى أرجاء الامبراطوريـة الرومانية ثم فى أرجـاء أوربا معروفة ؛ ومن حق نبى الاسلام أن يندد بها ، ويذكر هرقل بموقفه منهـا .

---

(١) آل عمران ٦٤

اننى بعد اذ هـديت الى ذلك الفهم ــ عرفت أن الاستاذين معروف الدواليبى وأبا الحسن الندوي سبقانى اليه ، وذلك مـا يقويه ويؤكده ...

وربما كان الرومانيون يحسـبون الاسلام امتدادا لبدعـة آريوس ــ كما يصفونها ــ وأياما كان الامر فقد حاولوا البطش بالاسلام ودعاته ، وشرعوا يقتلون من دخل فيه !

ولولا السيف الاسلامى الصلب ، ولولا الرجال أولو البأس الذين حملوه ، ولولا نبى الملحمة الذى انتصب دون دينه وعرينه . لذهب الاسلام فى خبر كان ، وربما ضن عليه الاستعماريون بدموع التماسيح بعد ما يزول ! !

ان المؤرخين الاوربيين غضاب لان الاسلام قاتل الرومان ! فهل سأل أحدهم نفسه : ما الذى جاء بالرومان الى الشام وآسيا الصغرى ؟ وما الذى جاء بهم الى مصر والشمال الافريقى ؟

أكان الاقناع طريقا الى اخراج أولئك المستعمرين من أرض احتلوها أكثر من خمسة قرون ؟ هل أفلح الاقناع فى انهاء استعمار البيض لجنوب افريقية ؟

ان الحرب وحدها بكل مغارمها ومتاعبها هى الطريق الفـذ لمحو الاستعمار الطويل !

ان الاسلام أغنى الاديان بالادلة وأحرصـها على استثارة الافكار ومناشدة الضمائر ، وكان يمكن أن يلام لو أنه آثر أعمال السيف على أعمال العقل ، أو قابل اللطف بالعنف ! أما أن يعرض

حجته فيلقى الهزء والهوان ، ثم يحاول المتمرسون بالدهاء والجبروت ان يواروه الثرى ، فدون ذلك ركوب الاهوال .

والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجـدى على الدنيا من السلم .

يقول ابن تيمية فى رسالته عن القتال : كانت سـيرته صلى الله عليه وسلم أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله ! وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازى تنطق بذلك ، بل هو متواتر فى سيرته ، فلم يبدأ أحدا من الكفار بقتال ... ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب — ولكنه لم يفعل —

ثم قال : أما النصارى فلم يقاتل أحدا منهم حتى السنة السابعة من الهجرة — يعنى الى عشرين سنة من بدء الرسالة — فلما ارسل بعد صلح الحديبية يدعو جميع الملـوك الى الاسلام ، وكتب الى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشى ، وملـوك العرب بالشرق والشام دخل فى الاسلام من النصارى من دخل ، فعمـد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبارهم بـ « معان » .. !!

قال ابن تيمية : فالنصارى هم الذين حاربوا الاسلام أولا ، وقتلوا من اسلم منهم بغيا وظلما !! ورسله عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون الى الاسـلام — دعوة مجردة — فمن دخل فيه دخل طوعا لا كرها ، ما اكرهوا على الاسلام أحدا ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل النبى جيش مؤته الذى انسحب كما ذكرنا فى الفصل السابق بعد مصارع قواده الثلاثة ، ثم كانت غزوة تبوك التى قرر الرومان الا يشتبكوا مع جيشها لحظة رأوها ..

ان القتال فرض على المسلمين فرضا ، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين ، واضطروا لخوضه دفاعا عن انفسهم وعقيدتهم أو الى هذا تشير الاية الكريمة « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله .. » (١)

اترى المطرود من وطنه لانه مؤمن بربه يعد مهاجما اذا قاتل طارديه ؟ ان الدهشة تملكتنى عندما رايت كتابا يصفون معركة بدر بأنها دليل على أن الحرب فى الاسلام هجومية ! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة !

انه المنطق نفسه الذى اتبع فى وصف المقاتلين الفلسطينين الذين اغتصبت أرضهم ودورهم والجئوا الى العراء !! اعتبروا ارهابيين معتدين على اليهود الامنين الطيبين !!

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والاستسلام « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره » (٢) !!

أيحسب عاقل أن هذه النتائج النبيلة نشأت عن حروب عدوانية ؟ ترى لو أن الرومان نجحوا فى قهر المسلمين واجتياح بلادهم أكان يبقى مسجد يرتفع فوقه صوت مؤذن ؟ ذاك سر الغضب فى نظم الاية الكريمة «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها

---

(١) الحج ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الحج ٤٠ .

اسمه وسعى فى خرابها ؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الاخرة عذاب عظيم » (١) .

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسرى كتاب الرسول الذى يدعوه فيه الى الاسلام ، لقد غضب هذا الكسرى غضبا شديدا وكلف واليه على جنوب الجزيرة أن يأتيه بمحمد هذا ؟

وكان الفرس ينظرون الى العرب بازدراء ، ويحتلون أرض العراق.ومن ثم انف كسرى أن يحاول عربى هدايته !! أفكان الفرس يأذنون لمسلم ان يجوس خلال ديارهم يدعو أحدا الى الله ؟

السيف وحده هو الذى يحل تلك المشكلة ، وماذا صنع السيف ؟ قلم اظافر الطغاة ، وتركهم بعد تجريدهم من السلاح يفكرون فى هدوء ! ويتدبرون ما يعرض عليهم بعقل ! لا اكراه على دين !!

لا نعرف فى تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد ، ما غضب لنفسه قط ، ما غضب الا لله وحده ...

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم

جهل ، وتضليل أحلام ، وسفسطة
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

والجهل ان تلقه بالحلم ضقت به
ذرعا وان تلقه بالجهل ينحسم

---

(١) البقرة ١١٤

٢٠ هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لاكراه الناس بالقوة على الدخول فى الاسلام ؟

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل فى سبيل الله . ويعد مسيئا اذا تخلف عنها ..

الموطن الاول منع الفتنة ، فقد يتعرض المسلمون فى بعض البلاد لصنوف من الترويع والاذى تنزل بهم حتى يرتدوا عن دينهم ، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب ، بل يجب كسر شوكة المعتدين واسقاط سلطتهم حتى تتقرر حرية الضمير . ويؤمن من شاء دون خوف ! قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فان الله بما يعملون بصير، وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير»(١)

الموطن الثانى تأمين الدعوة ، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضا عاديا لا تقترن به رغبة أو رهبة ، اى رشوة أو تخويف ، فاذا عطلت اذاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعاتهم جازلهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق ، اى جازلهم أن يكسروا السياج الحديدى الذى تحتمى وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة .

الموطن الثالث عند الحفاظ على الدم والمال والعرض ، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين أو الدوليين عليه أن يناضل لتبقى له ، ولا يحل له أن يقبل الدنية فى دينه

---

(١) الانفال ٣٩ ، ٤٠

أو دنياه « والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) .

ويمكن أن ينضاف الى هذا الموطن جهاد المجرمين الذين يحيون فى الميدان العالمى على القرصنة والتفرقـــة العنصرية وايقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا ..

اما القتال لنعرة جنسية أو لاطمـــاع شخصـــية أو لفرض الاسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض قال تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (٢) .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الاسلام أساسه الاقناع الهادىء ، والتعليم المجرد ، وترك الناس احرارا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوهـــا او يردوها !!

وقـــد كان الرسول صلى الله عليه وسلم شـــديد الالحاح على الناس ليفهموا ما جاء به ، ويهجروا عبادة الاصـــنام ! وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتناق الحق وترك الباطل فقال الله لـــه : « ولو شاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٣) .

والواقع أن الاكراه على الحق لا وجود له فى الرسالات السماوية كلها وتدبر مـــا جـــاء فى القـــرآن الكريم عـــلى لسان نوح « قال

---

(١) الشورى ٣٩ — ٤٠

(٢) البقرة ٢٥٦

(٣) يونس ٩٩

يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمـــة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » (١)

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبى صلى الله عليه وسلم فى نشر الاسلام ، فكشف أنه ليس حاكما عسكريا يفرض على الناس ما عنده أو موفدا من السماء لارغام مستمعيه على قبول ما يقول.

« فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٢) .

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٣)

« فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الاالبلاغ » (٤)

نعم بعد بيان شاف لحقائق الايمان بالله واليوم الاخر يقال للمستمعين « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » (٥)

« قد جاءكم بصـــائر من ربكم فمن أبصر فلنفســـه ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » (٦)

---

(١) هود ٢٨
(٢) الغاشية ٢١ ، ٢٢
(٣) ق ٤٥
(٤) الشورى ٤٨
(٥) النبأ ٣٩
(٦) الانعام ١٠٤

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السـمع وهو شهيد » (١) .

هذا نموذج من الايات التى نزلت فى مكة ، قبل أن يشتبك المسلمون مع أعدائهم فى حروب دامية ، كان أولئك المشركون هم موقدى نارها وحاملى عارها ، فماذا حدث فى المدينة بعد ما قامت الدولة الاسلامية ؟ يقول تعالى « فان حاجوك — يعنى خصوم الاسلام — فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين السلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (٢) .

وفى موضع آخر « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا، فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » (٣)

ويؤمر صاحب الرسالة الخاتمة بهذه الاية « قل : أطيعوا الله واطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم مـا حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين»(٤)

وقد قلنا : ان اسلوب عرض الاسلام على الناس تحدد فى نحو مائة وعشرين آية

قال ابن تيمية : بعد فتح مكة ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أهلها ، قائلا لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لم يكرههم عـلى

---

(١) ق ٣٧
(٢) آل عمران ٢٠
(٣) المائدة ٩٢
(٤) النور ٥٤

اسلام.ولا يقدر أحد ابدا أن ينقل أنه اكره احدا على دخول الاسلام.
لا منحصنا ولا مقدورا عليه ، ولا فائدة فى اسلام مثل هذا ..

نقول : وهذا بداهة وقع نزولا على قوله تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » !!

ومن أغرب الاقوال زعم بعض الناس ان هذه الاية منسوخة !!

قال ابن تيمية : وجمهور السلف والخلف على أن الاية لا مخصوصة ولا منسوخة ، وأنا لا نكره أحدا على الاسلام ، وانما نقاتل من حاربنا ..

وآفة ثقافتنا الاسلامية أنها تدون كل شىء ، ويتجاور فيها التافه والثمين ! فهذا القول الشاذ بأن آية « لا اكراه فى الدين » منسوخة كتب الى جوار القول الذى تواتر عن السلف والخلف ! وأصبح كلاما يقال ! ثم اصبح رأيا يذكر !

وينضم اليه أن الرسول حارب فى بدر مهاجما !! وبذلك وهذا يصبح الاسلام دين عدوان ... ثم يجىء دور المبشرين الذين يصيحون : الم نقل لكم ان الاسلام انتشر بالسيف ؟

ان هذا المنطق اللصيق بالاسلام يعجب علماء البدو الذين يحبون الغارات ، ويرحبون بويلاتها ويقولون :

واحيانا نكر على اخينا   اذا ما لم نجد الا اخانا

وتسرهم الحياة على ما وصف دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفى بنا ان أصبنا ، أو نغير على وتر
قسمنابذاكالدهر شطرينمن بيننا فما ينقضى الا ونحنعلى شطر!!

وما أسواها حياة أن نغير طلاب ثأر ، أو يغار علينا لمثل ذلك .. !!

وهذا المنطق الدموى قد يعجب السلاطين والقادة المرضى بجنون العظمة ، انهم قد يحملون اسم الاسلام والحقيقة أنهم يعبدون أنفسهم ، ويسفكون فى سبيلها دماء المؤمنين والكافرين جميعا ..

لماذا فتح السلطان سليم مصر ؟ وأجرى الدماء فيها انهارا ؟ ولماذا لم يستعن بالمسلمين العرب على نشر الثقافة الاسلامية فى بلاده وفى غيرها ؟ ولماذا ترك مسلمى الاندلس يبيدون دون عون وتموت دولتهم امام الزحف الصليبى ؟

اننا نكرر القول بأن الاسلام يأبى الاكراه فى الدين ، وان كل ما ينشد حياة تتلاقى فيها التيارات الفكرية من كل جهة ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ..

قال ابن القيم فى كتابه هداية الحيارى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » هذا نفى فى معنى النهى ! أى لا تكرهوا احدا على الدين ، نزلت هذه الاية فى رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا أو تنصروا قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام أسلم آباؤهم وارادوا اكراه أولادهم على الدين فنهاهم الله سبحانه عن ذلك . حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول فى الاسلام !

قال : « والصحيح ان الاية على عمومها فى حق كل كافر »

ان الاكراه سلاح كل فقير فى براهينه فاشل فى اقناعه ، اعوزه المنطق فأسعفته العصا !

وانه لمن الجهل المخزى أن يتحدث فى الاسلام من لا يعرف اعجازه العقلى ، وقدرته الذاتية على الانتشار والانتصار ...

٢١ ــ هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة ؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها ؟

ما من أيام الجهاد فيهن احب الى الله من هذه الايام النحسات التى يذوق فيها المسلمون هزائم فى كل ميدان ويفقدون فيها الارض والعرض والدنيا والاخرة !!

غير ان الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما الف الناس ، انه جهاد الكلمة ، وجهاد البحث والدرس ، وجهاد المال والقانون ... وأخيرا الجهاد بالنفس حتى لا نفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والادبية ..

كان العدوان على أرض الاسلام قديما يتم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية ، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد !

أما فى العصر الحديث فجريمة القتل تتم بمسدس به كاتم للصوت ، ووسط كلمات معسولة تخفى وراءها الحقد الدفين ..

ان الاستعمار العالمى لم ينس يوما كراهيته العميقة للاسلام، ورغبته الهائلة فى وأده !

وقبل أن أشرح خطته الجديدة اشير الى خطة قديمة مستغربة.

ان الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لاسباب اقتصادية مجردة !! بل كان لاسباب دينية أهمها القضاء على الاسلام !! واترك الكلام للمؤرخ العالمى « هربرت فيشر » « لا يمكن القول بأن

الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهــب اذ اختلطــت المشــاعر الدينيــة بالمطــامع الاقتصــادية ، ففى الفاتيكان كانت المشروعات التبشرية تتناول العالم بأسره وكانت مشروعات البرتغال وأسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لانها تفضى الى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها أيضا ستفضى الى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق !! كان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحى ، وكان المعتقد أن بالهند دولــة مسيحيــة يحكمهــا عــاهل يلقب بالخــان الاكبر وكان يداعب أوربا الكاثوليكية أمل كبير فى أن تتلقى من هؤلاء الملــوك الشرقيين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين ، تلك هى خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس ــ بابا روما ــ منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ١٤٥٤ فى مرسوم بابوى الى ملك البرتغال ، وفى هذا الجو المفعم بالامال الكبار أقلع كولومبس ليكتشف الطريق الى الهند غربا » (١)

نقول وليبدأ تنفيــذ المخطط الاستعمارى كما رســمه البابا نقولا الخامس ..

لكن القدر لم يقد كولمبس الى الهند كما كان يتصور ، لقد قاده الى أمريكا !

وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة ، الى أن استولت أوربا عــلى الشرق الاسلامى وغير الاسلامى فى القرن الرابع عشر للهجرة ،

---

(١) من كتاب « أصول التاريخ الاوربى الحــديث » ترجمــة أساتذة التاريخ بجامعة عين شمس وقد لفتنى الى هــذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلبى الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية .

وشرع الحقد القـــديم يتنفس انه يتنفس هـــذه المرة بخبث هائل، ويعمل بدهاء واناة داخل حجرات ناعمة ، تاركا خصومة ينبحون فى العراء !

واذا احتاج الامر الى البطش اخمد انفاس الجماهير فى صمت كذلك او باقل الضجيج !!

وقد شرحنا فى موضع آخر من كتبنا الاسلوب الذى اتخـــذ للقضاء على الاسلام وأمته ودولته ولا بأس من الاشارة اليه هنا .

١ ـــ بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص أطرافها وجهت اليها ضربة قاتلة فى أعقاب الحرب العالمية الاولى طوت رايتها ،وقضت على الوجود الرسمى للاسلام فى الميدان الدولى .

والخلافة بين المسلمين تمثل ـــ كما قلنا ـــ أبوة روحية وثقافية مهيبة ، وترمز الى ولاء المسلمين لدينهم ، واستمســـاكهم بوحدتهم الكبرى واخوتهم العامة .

وفى الوقت الذى محا الاستعمار فيه هذه القياده التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الاديان الاخرى .. !

٢ ـــ أكثر الاستعمار من صناعة دول لها صبغـــة تريحه ، وليس لها كيان طبيعى ، ولما كان الدين الاول فى افريقية هو الاسلام فقد أعاد رسم القارة المنكوبة جغرافيا وسياسيا فأنشأ أكثر من خمسين دولة راعى فى تكوين كل واحدة ضم كثرة اسلامية الى قلة خلقها التبشير ، وجعل الحكم فى هذه القلة ! واسبغ عليها رعايته وتأييده ، وترك الجمهور المسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض .. !

٣ ــ عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة ، واجتهد ان تحيا وفق مذاهب علمانية او شيوعية واوعز الى ساستها الا يجعلوا الاســلام دين الدولــة ، وان يحــذفوا هــذا النص من الدستور .

٤ ــ فى الاقطار التى يعز فيها ذلك ، يكون تمويت النزعــة الاسلامية باقصائها عن ميادين التعليم والتشريع وخلق اعلام مائع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتدوخ الجماهير .

٥ ــ فسح الطريق أمام الحركات الدينية المخرفة ، وتركها تنشط لجمع الاجيال التائهة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون البله عون عظيم ــ من حيث لا يشعرون ــ للاستعمار العالمى ، وطريق مختصر للازراء على الدين وأهله .

٦ ــ الغاء التعليم الاصلى ان امكن ، وتنصيب رؤساء تافهين على معاهده التقليدية يدورون حول انفسهم ولا يغنون عن الاسلام شيئا ، ويلحق بذلك الحاق هزائم منكرة باللغة العربية فى كل ميدان .

٧ ــ ابقاء التخلف الحضارى والصناعى والثقــافى وجعل المسلمين أمما مستهلكة لا منتجة بحيث اذا حدثت صحوة اسلامية ــ رغم كل حيطــة ــ لم تجــد وراءهــا ، ما يمدها بالقوة أو يهيىء لها التقدم والنجاح .

من أجل ذلك قلنا : ان الجهاد الاسلامى حق ، لكن الوسائل الصحيحة ليست فى العنف والنزق والحماس الطفــولى ، بل فى خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبى حاجات أمة كســيرة ودين مهزوم فى اغلب الجبهات !!

ان الجهاد أضحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة فى وجه غارات دائبة لحوح تريد اقتلاع الاسلام من جذوره وترفض كل الرفض أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه .

وقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضارى الحديث قد محا أحقاد الماضى ، ويسر للناس جميعا ان يتعارفوا لا أن يتناكروا ، فلما وقعت مذابح لبنان الاخيرة رايت كأن العداوة ولدت اليوم أو امس فقط ! ورايت جثث الاطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشـــهد بأن القوم يقتلون فى هؤلاء الاطفال امتداد الاسلام للغد القريب أو البعيد !! انها هى مذبحـــة بيت المقـــدس أواخر القرن الرابع الهجرى !

ومن المفيد أن يعرف من يجهل ان مذابح صـــبرة وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة ، وان مذابح سبقتها بين الفلسطينين واللبنانيين تمت فى صمت كئيب ، وخرس من شاهدها من الصحافيين الاجانب لانهم وجدوا انفسهم فرادى مروعين .

وقد احصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين الفا منذ الهجوم الذى اغضت عنه المنظمات الدولية وأكتفت فى استنكاره ببيان شاحب خافت ...

ان من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا وانها لسفالة إن يطلب منا طالب أن نرتد عن ايماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا ...

لماذا يباح لليهودى أن ينتمى الي توراته ، وإن يهتدى بنصوصها على تحديد الارض التى يريدهـــا من كيانا ولا يباح للمســـلم أن ينتمى الى قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء

لماذا يكون الايمان — من خلال تعاليم القرآن — رجعية ممقوتة ، ويكون الالحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدما محترما ؟

لماذا يكون سجن يهودى فى روسيا جريمة يضطرب لها الضمير العالمى ويكون قتل الالوف المؤلفة منا شيئا عاديا ؟

ان الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يظفر الاسلام بحق الحياة لنفسه وأتباعه دون ضغائن وعوائق ، ولسنا نوجب الجهاد لاضطهاد اقلية أو قسر الغير على عقيدة يأباها .. !

بيد أن حق الحياة للاسلام وأمته مطلب منكور بغيض لدى الكثيرين ، والاستعمار العالمى بشعبه كلها يمتد فى فراغ ، وسط أمم استهلكها اتباع الشهوات ، وحب الدنيا وكراهية الموت ! ! وتوجد حرب دامية الان بين مسلمى افغانستان والاتحاد السوفيتى ، وأعرف من المجاهدين رجالا يقاومون ببسالة ما يراد بهم ، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من المبيدات الكيماوية ، والالات الجهنمية فى البر والجو ؟

اننا ندفع ضريبة تخلفنا العام ! والجهاد المثمر ينبغى أن يتجه الى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجلوبة. وبذلك ننجح فى صد الطغاة ودحر العدوان ...

٢٢ ــ ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطا ؟

قالوا من قــديم : أن الفضيلـــة وسط بين رذيلتين ، وسواء اضطردهذا القول أم لم يضطرد فان الحقيقـــة تضـيع بين الافراط والتفريط ، والناس يعانون كثــيرا من الغلو الشــديد والاهمال البارد .

وعندما ظهر الاسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوى للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الاخرى، وكان المسيحيون يرون التقوى فى الرهبانية والزهد واحتقار المال، حتى قيل فى كتبهم : لان يلج الجمـــل فى سم الخيـــال أقرب من أن يدخل الغنى ملكوت السموات !!

وجاء الاسلام فرفض المسلكين ، وعد المال وسيلة لما بعده وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان هذا المال خضر حلو ! ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وان مــن يأخــذه بغــير حــق كمن يأكل ولا يشــبع ، ويكــون عليه شهيدا يوم القيامة » .

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين فى تعاليم اليهود ، كأن التقوى عقوبة مرصــدة لكل ذنب ، وكأن مرضـــاة الله لا تتم الا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة ، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة الى عفو الله .

وقالوا : انه ترك امرأة اقتيدت متهمة بالاثم ، وقال لليهود : من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها .. !

وجاء الاسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس ! وبسر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه ! واقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذى المجتمع بالاصرار عليه !!

اى أنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم المعصية النادمة وطلب الصلاح المتواضع الرقيق ! يقول على بن أبى طالب : الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكره !

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى ، ولكنه كما روى الامام مالك عنه يقول : لا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فانما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية ..

والاسلام دين وسط يأمر الامة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينا والمنحرفة يسارا .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم فقال تركنا محمد فى أدناه ، وطرفه فى الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعنى طرقا شتى — وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت بهم الى النار ، ومن اخذ على الصراط المستقيم انتهى به الى الجنة ، ثم قرا ابن مسعود « .. وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١) .

والغلو فى الدين قد ينتج عن خطأ فى الفكر أوعوج فى الطبع ، وغالبا ما يزيغ عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح لذلك

---

(١) الانعام ١٥٣

يقول الله تعالى لنبيه «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » (١) .

هناك من يبالغ فى التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يسارا بالاهمال المنتهى بالجحود والتمرد .. يقول الشيخ محمد عبد الله دراز : « كأنه أشار باليمين الى طرف الافراط والتعمق فى الدين ، وباليسار الى طرف التفريط والتقصير ، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذى لا يميل الى أحد الجانبين . ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التى اشارت اليها أحاديث افتراق الامة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التى أشارت اليها أحاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الامة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم الخ لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين » ...

ان الاسلام يجعل التوسط فضيلة فى شئون الدين والدنيا جميعا ، ففى مجال التعبد يرفض الاسلام الجهد المضنى ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لكل شيء شرة ـ حماسا ونشاطا ـ ولكل شرة فترة ـ برودا وعجزا ـ فان صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وان أشير اليه بالاصابع فلا تعدوه » .

---

(١) المائدة ٧٧

وفى شئون الدنيا يكره الاسـلام التبـذير والتقتير ، ويحب الانفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (١) .

فى مجال العلم الدينى رأيت ناسا متبحرين فى المنقول والمعقول بهم فقة واسع ، ومحفوظات كثيرة ، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضـاء ، وقدمت اليه أمرأة متهمة بالزنى ، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له ، وحكم برجمهـا ، لانها متزوجة !!

قلت : هذا منهج يهودى ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرشد المتهم ليفر من العقـاب ويتراجع عن اقراره . ويتحايل عليه لينصرف آمنا .. أما هذا القاضى فانه احتال على المذنب ليقتله ! ليس هذا أسلوب الاسلام ، والعلة أن جانبا آخر من الثقافة الاسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلا ، ولو الف « علم القلوب » وذاق الجانب العاطفى من الاسلام لستر وغفر يستره الله ويغفر له !!

والمحزن أن هناك انفصـالا فى علومنا الدينيـة بين الفقه والتصوف ، مما جعل المتصوفين ، يجنحون أحيانا الى الجنون ، وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتى الاصم ..

والوسطية فضيلة تبرز فى توجيهات الاسـلام الاجتماعية والاقتصادية ، ففى العلاقة بين الرجال والنساء مثلا ابى أن تكون

---

(١) الفرقان ٦٧

المرأة حبيسة البيت أو طريدته ! وان تكون نظرة الرجل اليه نظرة السجان أو الصياد !

البيت هو المحضن الذى تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده ، وليس البيت سجنا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ، وليس ملتقى عابر للابوين والاولاد كما تألف ذلك أوربا حيث الاسر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة ، فهى تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع ، وقد تشارك الجيش فى بعض الخدمات الطبية ، وقد تقاتل ان اقتضى الامر الدفاع ، وينبغى أن تكون خبيرة بشئون امتهاالدينية والمدنية .

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه ... فى الوقت الذى اسرفت فيه المرأة الغربية اسرافا شائنا فى الذوبان خارج البيت ، وضد رسالتها الاولى .

لو التزمنا وسطيه الاسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للامة وازكى للجنسين معا .

وفى الناحية الاقتصادية اقر الاسلام حق الملكية الفردية ، بيد انه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين ..

وبذلك ضمن انتاجا غزيرا لان الحوافز قائمة ، وحفظ الجماعة من التفكك لان التواصى بالرحمة لم يدع ثغرة الا سدها ، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والراسمالية الجائرة ...

والمفروض ان المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها ، فان الله سـائلهم عن الهدايـات التى بلغتهم : هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس ؟

وما من امة الا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة « فكيف اذا جئنا من كل أمه بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (١) ؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخـذهم بتلك التعاليم الجليلة ، وسيدلى بهذه الشـهادة امام الله ، كمـا أن المسلمين سيسألون : هل علموا كما تعلموا ؟ ان الامم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد !

وهم شهداء على الامم لانهم حملة الرسالة العامة ، ومبلغو « الوسطية » التى شرحناها آنفا وكما كان محمد استاذا لهم فهم اساتذة لسائر شعوب الارض !!

ذلك معنى قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢) .

والمؤسف أن الامة المكلفة بذلك فرطت فى البلاغ والتعليم ! ، بل فرطت فى العمل والتاسى بنبيها ، بل لقـد أصبحت اليوم ذيلا لاحزاب الميمنة والميسرة فى الشرق والغـرب ونسـيت الصراط المستقيم .

---

(١) النساء ٤١

(٢) البقرة ١٤٣

٢٣ كيف يبني الاسلام الامة المسلمة ؟

الف الناس في عصرنا أن يكون ولاء الانســـان الاول لوطنه وقومه ! حسنا ما الوطن ؟ قطعة من الارض تربطنا بها حقوق وذكريات ! لكن من صاحب هذه الارض ومالكها ؟ « قل : لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون » (١) ؟ ومن خلق الاقوام الذين يحيون فوقها وشد اسرهم ودبر أمرهم ؟ « الا ان لله من في السموات ومن في الارض .. » (٢)

الا تكون العلائق اوثق واسبق بهذا الاله الخالق المالك ؟

ان الاسلام حين يبني الامة يجعل الايمان العميق هو الدعامة الاولى في هذا البناء ، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الاولى للانسان الراشد السوي .

ان عواطف من الربانية الغامرة هي التي تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه ، وهي عواطف تتنامى كلما سمع الاذان للصلوات الخمس ، وكلما حجزه ايمانه عن رغبة مجنونة أو دفعه الى عطاء سخي ، او وقفه ليشد أزر ضعيف ، أو أغراه بالصياح في وجه منكر ... ! !

ان الربانية التي صنعها الدين أنفس معدنا وأرجى ثوابا من المواطنة التي صنعها الناس ، ومع ذلك فالمسلم اول المدافعين عن الوطن ، وأول المحامين عن العشـــيرة ، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل انسان كريم ، لانه يأبى الضيم ويرد العدوان .

وبديه ان يكون ذلكم الايمان هو الروح الساري في كيان الامة كلها ، والمنتظم للكبار والصغار والاقوياء والضعفـــاء والاغنياء والفقراء ..

---

(١) المؤمنون ٨٤ (٢) يونس ٦٦

وبعد أن يرسى الاسلام أسس هذا اليقين يفرض مبدأ الاخوة « انما المؤمنون أخوة » (١) .

والاخوة ليست لفظا اجوف ، انها رحم دينية موصولة تعطى ثمارا اشهى وأزكى مما تعطى الديمقراطية والاشتراكية فى الميدانين السياسى والاقتصادى ، انها خلق فردى ونظام اجتماعى ، وقد اعتمدت الدولة الاسلامية منذ نشأتها الاولى على هذه الاخوة فى مواجهة ظروف الحرب والسلام والاقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الاعباء والواجبات ..

ومن ينبوع الاخوة ينبجس رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحارب ..

أساس التناصر أن المسلم لا يدع أخاه أبدا يحرج او يذل ، ويمضى لشأنه تاركا اياه يواجه وحده ما يقع لـه كلا ؛ يجب ان يلزمه ويثبته ويدفع عنه ، يحامى معه أو دونه ..

والواقع أن أشجع الشجعان لا يستغنى عن عنصر مسادى يسعفه فى الشدائد ، ان المرء قد يغضب اذا أهين ، وقد يستعد للقتال اذا قطع عليه الطريق ! ولكنه يغضب ، ويستعد ويهجم على المعتدى اذا كان معه سلاحه ، والمؤمن سلاح لاخيه، وعضد له فى الشدائد ، والمؤمن بين اخوانه يتحرك بقواهم كلها، لا بقوته وحده ، وهذا الشعور الجماعى من معالم الجماعة المسلمة ..

قال عليه الصلاة والسلام : « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ... » وفى رواية « المسلم اخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه ، ان احدكم مرآة أخيه » !! وقال « من ذب عن عرض اخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة » .

---

(١) الحجرات ١٠

على أن لهذه النصرة الواجبة صورا مختلفة تقتضى التبصر والروية ، فليس الامر عصـــبية عمياء ، كلا ، المهم احقـــاق الحق وابطال الباطل فعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : « أنصر أخاك ظالما أوْ مظلوما ! قيل : انصره اذا كان مظلوما ، فكيف أنصره ظالمـــا ؟ قال : تحجزه عن الظلم فان ذلك نصره » .

والاستعمار العالمى بجتهد فى قتل مبدأ التناصر ، وفك تضافر الامـــة ، وقـــد أعانه على ذلك الاستبداد الـــداخلى ، أو قل : ان الاستعمار سخر الحكم الفردى لاشاعـــة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشـــعوب الاسلامية تفقـــد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر ، فاصبح أحد لا يلوى على احـــد !!

ولكى نحيـــا لابد من احيـــاء مبدأ التنـــاصر بين المسلمـــين جميعا . . .

امـــا المبدأ الثانى من آثار الاخـــوة الاســـلامية فقوامـــه التحاب لوجه الله ، وجعل الانتماء اليه عاطفـــة شريفة تعلو كل صداقة وترجع كل قرابة ولذلك جاء فى الحديث القدسى « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى »

والواقع ان الحب فى الله يهـــون مشاق الحياة كما يهون الحـــداء مراحل الطـــريق ومتاعب العمل ، وعندمـــا يستوحش المرء من الناس ، بل من نفسه ، تجيىء هذه العاطفة المباركة فتؤنس البعيد ، وتمنحه قوة على مواصلة العمل لله والجهاد فى سبيله .

وتقديرا لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه فى الحديث القدسى :
« وجبت محبتى للمتحابين فى ، وللمتجالسين فى وللمتزاورين فى ،

وللمتباذلين فى » يعنى من ينفقون أموالهم بسخاء اجابة لهذه العاطفة حين تفرض النفقة !

وليس حب المؤمن لاخوانه نافلة يتطـوع بها اذا اراد كلا ، انها أثر اليقين الناضج ؟ ولا يسوغ ان يكون المؤمن ميت الاحساس يتحرك لما يعنيه ويبرد لما يعنى غيره ، أن هذا الانحصار الشخصى هدم للجماعة واضاعة للامة ، والمؤمن الحق يحب غيره كما يحب نفسه ، فى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ،الا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

وتحية الاسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء فى انخلاع المـرء عن عزلته واهتمامه باخوته ، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم !

ومن اللطائف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا أحب احدكم أخاه فليخبره بأنه يحبه » وقوله « اذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ؟ ، فانه أوصل للمودة » !

وفى كل مجتمع بشرى اغنياء وفقراء ، حتى المجتمع الشيوعى فيه من يصبرون كرها على طعام واحد ، ومن يطاف عليهم بالصحاف المنوعة ، ان العلاقة بين هؤلاء وأولئك جديرة بالتأمل ...

أيكون ذلك التفاوت مبعث حقد ؟

عند المؤمنين بالدنيا وحدها لاريب انه يخلف فى النفوس آثارا سيئة ! اما المشغولون بآخرتهم — الى جانب دنياهم — فهم لا يأبهون لذلك كثيرا مادام عند كل امرىء مايكفية ويغنيه بل لقد وجدنا التنافس اتجه الى ناحية أخرى ، فقد شكا الفقراء الى رسول الله انهم متخلفون عن الاغنيـاء فى مجال الاحسـان ! قـد تجمعهم الصلاة والصيام ، ويتساوون فى الاجور ، لكن الاغنياء يعتقون ويتصدقون ويجاهدون بمالهم ويمكنهم التفوق الاقتصادى من اعمال صالحة كثيرة ...

أرأيت فيم فكر فيه القوم ؟ انهم لم يشكوا عيلة فى الدنيا ولا غبنا نزل بهم ، انهم يفكرون فى الاخرة ، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع ربانى ...

جاء فى السنة ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ! قال : وما ذلك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله : الا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ الا من صنع مثل صنيعكم ! قالوا : بلى يا رسول الله ! قال تسبحون وتكبرون وتحمدون ثلاثا وثلاثين مرة دبرة كل صلاة ! قال ابو صالح : فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله فقالوا : سمع اخواننا أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، يعنون انه بقى لهم تفوقهم — فقال رسول الله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !

ان همة المؤمنين تنشد الرضوان الاعلى ومنازل الاخرة ، وهذه الصبغة الربانية صانت الامة الاسلامية فى ميدانين مهمين .

الاول : فى تلقى العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للاخرين ابتغاء وجه الله .

والثانى : فى الجهاد المتفانى لرد أعداء الاسلام ، واستبقاء دولته قائمة مع الحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها . .

ان النجاح فى هذين الميدانين استبقى أصول الاسلام ومعالمه وغطى عيوبا كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم ، وشهوات الحكام . .

وامر آخر يظهر فى ثبات البناء الاسلامى على تراخى الازمنة ، ان الاسلام عد العمل للحياة عبادة ، وعد المال قيام الحياة

وسياجها وكان الصحابة يقسمون أيامهم ، فيجعلون بعضها للبقاء مع النبى صلى الله عليه وسلم يتعلمون ويقتدون ، والبعض الاخر للضرب فى الارض يكدحون ويكسبون ، فاذا غابوا عهدوا الى اخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجد من وحى وسنة ، ليعرفوا بعد عودتهم ما هنالك ، ثم يردون الصنيع لاخوانهم اذا غابوا ...

ومن ثم لم يقع قط ان كان المسلمون فى الشئون المدنية أخف كفة ، أو اسوأ حظا ، والدين لا يتم تحصينه الا بدنيا قائمة ، وسناد مدنى متين ... !!

٢٤ ـ كيف يبنى الاسلام المسلم القوى فى مواجهة متغيرات العصر ... ؟

لا أظن الانسان المعاصر يختلف عن الانسان القديم الذى خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون ! ولا اظن انسان هذا العصر مكلفا بوظيفة أخرى غير الوظيفة التى كلف بها الانس والجن من فجر التاريخ ، والتى أوضحها القرآن فى هذه الكلمات الوجيزة « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (١) .

انه هو الانسان السوى القوام ، الخصب المواهب ، المفضل على مخلوقات أخرى تملأ البر والبحر ، الذى حمل وحده أمانة التكليف ، وقدر على الترفع والاسفاف والتقوى والفجور .. !

نعم ، هناك أمور جديدة فى هذا العصر ، فقد تقدم العلم ، واكتشف كثيرا من أسرار الكون وقواه ، وارتقت الصناعة ، واخترعت آلات واجهزة رفهت المعايش ويسرت للانسان فى لحظات ما كان يعجز عن تحصيله فى سنوات .. كما افتن الانسان فى صناعة آلات الفتك والدمار الشامل حتى لأمست الحروب تؤذن بانتهاء العمران البشرى .. وازدهرت العلوم الانسانية وطمحت ان تقود العالم أجمع فى شئونه الادبية والاقتصادية والسياسية ... الخ

ماذا يصنع الانسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله .. ؟ اننى لخبرتى الحسنة بالاسلام لا أشعر بقلق مـا على ايمانى او منهجى فى الحياة ، لكاننى اشعر بأن الاسلام هو الدين الاوحد لمواجهة هذا العصر ! اليس عصر العلم ؟ بلى ، وكذلك دينى

---

(١) الذاريات ٥٦

دين العلم الذى أهاب بالناس أن يبحثوا كل شىء « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء » (۱) .

ان العلم مؤمن لا ملحد ، وهو يدعو الى الايمان لا الى المروق ! وما كفر العلم — فى الاعم الاغلب — الا بما يجب الكفر به من كهانات وخرافات ومتناقضات ! وانا أؤيده فى ذلك كله . . !

اننى أرى بلادة الكفر ضربا من الحيوانية ! أو هى اقتراب منها ! أليس يقول ربى « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (۲) .

وقد تابعت استطلاع الاراء بين جماعات علمية فى أوربا وأميركا فرأيت الكثرة الكبرى تؤمن بالله ، ووجدت قلة متوقفة حائرة ، ووجدت ندرة تافهة زائغة القلب لا عقيدة لها . . فالزعم بأن جمهور العلماء لادين لهم كذب ، أو شائعة تنشر لغرض خسيس !!

ان روحى تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية ، ومن محبة العلم يجيء هذا الدعاء « وقل رب زدنى علما » (۳) ، وعلى المسلم اذا أحب مرضاة ربه ان يزداد تضلعا فى العلم ، واستكشافا لافاقة .

وما يسمى بالعلم المادى — أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله — أرجح موضوعا وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديما وحديثا ، ولم تكسب الانسانية منها الا الحيرة والجدل ، والغرور .

اما التقدم الصناعى الذى نعم الانسان وأراحه فهو خير كثير ! ونعمة جديرة بالشكر الجزيل ، ألم تر أن الله تبارك

---

(۱) الاعراف ۱۸٥ (۲) الانفال ۲۲

(۳) طه ۱۱٤

اسمه كى يرغب آدم فى الطاعة ، اسكنه الجنة وقال له : « أن لك الا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى » (١) اى لا تتكلف الكدح فى وهج الشمس ، فتتصبب عرقـــا ويحول لونك وراء لقمة العيش .

من قال : ان الانسان يحب الوصـــب والنصـــب وركوب المشقات ؟ اذا كان هناك ما يغنى عنها !

والمرء الان ينتقل من بلد الى بلد ، ومن قارة الى قارة ، وهو جالس فى كرسى وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب ، تشـــق الطائرة به الجو فاذا هو بعد ساعات بين احبته !

ماذا كان يفعل اجدادنا عندما يغبرون اقدامهم ، وتتغير ملامحهم ويتعرضون للحتوف فى هذه الاسفار المعنتة ؟

الحق ان هذا المتاع الميسر لنا ما ينقصه الا شكر الله على ما هدى واسدى !

وعلى المسلم ان يجيد هذه الصناعات المحـــدثة ، وان يألف استخدامها واستصلاحها وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . اعملوا آل داود شـــكرا . وقليل من عبادى الشكور » (٢) !

نعم أن المهارة فى تلك الصناعات المدنية مهاد لابد منه لاجـــادة الصناعات العسكرية التى تحتاج اليها حروب البر والبحر والجو .

اننى اكره الحـــروب ، ولا اتمنى لقاء العدو ، ولكن مـــاذا اصنع اذا اجتاح الطغاة دينى وبلدى وأرادوا اثبات باطلهم ومحو

---

(١) طــه ١١٨ ، ١١٩ (٢) سبأ ١٣

حقى ؟ ماذا صنع اذا كان هناك من يحرق الثمار حتى لا يرخص سعرها ولا يرى أن يطعمها الجياع ؟

ماذا أصنع اذا وجد من ملأ من خير الله فمه ، فاذا حدثته عن الله رد يده فى فمى لاخرس عن الكلام .. ؟

لا حل الا القتال ، ولا يقدر على القتال من يعجز عن صنع ادواته ، ان المهارة هنا دين ، والصبر جهاد ! وكما يقول شوقى :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء !

من ناحية أخرى يجب التنويه بالشأو البعيد الذى بلغته الحضارة الحديثة فى التنظيمات السياسية والاقتصادية والادارية التى تحرك الجماهير ، وتوجهها الى أهداف مرسومة ...

ان من وراء هذا النجاح تقدما عظيما فى دراسة العلوم الانسانية كلها ، حتى كادت هذه العلوم تكون « الشريعة » التى تلتزمها اوربا فى أحوالها الخاصة والعامة ..

وهذه العلوم ليست الا فروع الفلسفة القديمة بعد ادخال المنهج العلمى عليها ، أو بتعبير أصح على بعضها ، لان هناك نظرات فى علوم التربية والاجتماع والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية ..

وأرى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقها فى ميادين الحياة ..

ان ضوابط الشورى هناك نجحت فى محق الحكم الفردى . واعلاء سلطات الامة ، لم لا نستفيد من ذلك ؟

وحماية المال العام من الساسة المهرة فى اختلاسه أو الموظفين المحبين للسحت بلغت منتهى الدقة ، لماذا لا نقلد القوم فى تلك الوسائل الناجعة .. ؟

لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الانسانية وما نشأ عنها .. لانه يقصر نظرته على ما بها من أخطاء ، ولانه يرى أن هذه العلوم تتحدث فى النفس الانسانية والمجتمع البشرى ، وقد قال الدين كلماته فى هذه النواحى كلها ...

ومعاذ الله ان نهمل كلمة الدين فى قضية نفسية أو اجتماعية ! اننا نقتبس من جهود البشر ما يحقق الاهداف التى يتفق عليها العقل والنقل ، واذا سبقنا غيرنا الى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به .!

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لانه خطة فارسية ، أو حيلة لم تألفها العرب ؟ كلا ، والحضارة الحديثة — برغم مقابحها الكثيرة — تجاوبت مع العقل والفطرة فى ساحات علمية ودستورية واسعة ، من حقى أن أترك شرها وأقبل خيرها .

وربما يدفعنى الى هذا ان الدين أصيب بمتحدثين عنه يجهلون جوهره ويكترثون للمظهر الملصق به ، وليس غالبا منه .

سمعت رجلا يقول بفخر انه اقنع أحد الاميركيين باعتناق الاسلام ، وان الداخل فى ديننا بلغ من تقواه أنه اقتنع بلبس الجلباب الابيض !!

قلت له فى أسى وسخرية :هل اقتنع بلبس العقال ؟ قال : ما تعنى ؟ قلت : ما دخل الملابس فى ديننا ، ولماذا لا تترك الرجل يرتدى زيه القديم ، ويعرف الناس من سمته وسيرته وشرف فكره وخلقه أنه مسلم ؟

ان الاسلام لا يؤخذ من فقهاء البدو ، ولا من عسكر الترك ولا من دراويش التصوف !

لماذا ننسى فرائض ديننا وفضائله الاولى ونعلق الناس بتقاليد جنس ما ، أو بخصائص عصر ما ؟

عرفت « انجليزيا » أسلم وتصوف ، وانتمى الى الطريقة النقشبندية ! واشهد أنه كان انسانا طيبا ! بيد انى يئست من انه سينفع الاسلام بشىء طائل !

ان عدد المسلمين المهاجرين الى انجلترا يبلغ المليونين . وهم ضعف اليهود الانكليز ، ولكن اثر اليهود فى ميدان الثقافة والسياسة والاقتصاد بعيد المدى ، عميق الاثر ، يكادون يوجهون انجلترا كلها .. أما المسلمون الذين يحمل اكثرهم جنسية انكليزية ، فلا وزن لهم فى شىء !

انهم — مثل غيرهم — لا يحملون الاسلام النازل من السماء ، وانما تستبد بأفكارهم وأحوالهم قضايا دخيلة واضافات تافهة ...

ان الاسلام يصفى القلب من الاهواء ، والعقل من الاوهام . ويرص صفوف المؤمنين بعدئذ فى جهاد موصول لاعلاء كلمة الله

أما مع فساد الفطرة واعوجاج الفكر ، فلا مكان لاسلام ...

٢٥ ـ لماذا كان الحل الاسلامى لمشاكلنا هو الافضل والامثل والانجع ؟

الشعور عام بان الامة الاسلامية تعانى فى العصر الاخير من علل معقدة ومعضلات اجتماعية كثيرة !

كانت حكومة الخلافة العثمانية تسمى « الرجل المريض » ثم ذهب الرجل المريض ، واقتسمت تركته حكومات أخرى ! فهل شفى الحكم العليل وصحت الشعوب المريضة ، واصبح الشرق الاسلامى موارا بحركات الاصلاح ووثبات النهوض .. ؟

لا أظـن إن الحاضر ليس خـيرا من المـاضى ، فالمسلمون جميعا والعرب خاصة يترنحون أمـام ضربات « اسرائيل » التى أقامت سطوتها على أنقاضهم المادية والادبية .

ولا يزعم عاقل أن هذه الحالة تدل على عافيـة وسلامة أوضاع .. !

ان الرجل المريض عاد مرة أخرى فى أشخاص رجال يحكمون اممهم كرها ! ويعالجون عللها بجهل ! ويسكتون الناصحين بكبر ! ويفلسفون الهزائم المخزية حتى يبقوا فى الحكم الى أن يقضى الله امرا كان مفعولا .. !!

نظرت يوما فى برنامج رجل يدعى الاصلاح ، كان شيوعيا يستر نفسه بعناوين مزورة ، فقلت : تجربة فاشـلة ! وسألنى سـائل : لمـاذا ؟ فقلت : هل يمكن ان يزرع الشـاى فى الشرق الاوسط ؟ لا ، لا التربة تقبل البذر ، ولا الجو يعين على النمو ، انه جهد ضائع ! قال : ان الجيش معه ، والصحافة معه ، و ... قلت : لو كان كل شىء معه فالتجربة فاشلة .

قد يهلك الاجسام ولكنه لن يملك القلوب ! قد تحفه طوائف من المرتزقة ، وهواة الكسب الحرام ، ولكنه عند الجد سيفقد كل شيء .. !!

ان هذه الامة الاسلامية لا تصلح الا بدينها وحده ، بعد استكمال العناصر الناقصة منه — وهي خطيرة — وبعد استبعاد الخرافات الملصقة به — وهي كذلك خطيرة — !

ان أمتنا بطبيعتها سوف تستعصى على كل حل غير اسلامى، وسوف تبذل المحاولات الدامية لاكراهها على تجرع أدوية لا تريدها، وسوف تتبدد الطاقة — طاقة الشعب والدولة معا — بين الاخذ والرد !

وفى غضون هذا التناقض الداخلى يكسب الاستعمار العالمى معاركه ، ويفرض نفسه .. !

وهنا حقيقتان يحتاجان الى الشرح . الاولى ان الاسلام صدى الفطرة الانسانية وخلاصة ما قال النبيون كلهم لكبح جماح البشر وهداية العالم الى ربه الواحد .

ان الاسلام لم يجيء لهدم موسى أو عيسى بل جاء لاحياء ما قالوه وضاع فى غمار الماضى « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ، ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » (1) فاذا كان الاسلام رسالة لاصلاح العالم بوحى الله ، فكيف يعجز عن اصلاح الامة التى حملته وبلغته ؟

والحقيقة الثانية ان العرب ما دخلوا التاريخ الا بهذا الدين وما عرفت لهم حضارة ، وتمت لهم قيادة ، وتحققت لهم سيادة الا تحت راية الاسلام فكيف تكلف أمة بنسيان شخصيتها وحضارتها

---

(1) فصلت ٤٣

وتاريخها ؟ ان هذا تكليف لها بالانتحار ! وتلك هى المهمة القذرة التى ينفذها بعض الساسة المرتدين ..

ان العرب عاشوا بلا دين أيام آبائهم عاد وثمود ومدين . فبماذا جوزوا ؟ رجفت بهم الارض ورجمتهم السماء حتى بادوا وتطهرت منهم الدنيا ..

ثم اختار الله محمدا وقومه لاقامة حكم صالح مصلح ، أساسه القرآن العربى ، ومنهج محمد الهادى الملهم . وقال الله سبحانه للانسان الذى ناط به اصلاح الارض : « وكذلك انزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » (١) فكيف يكلف أحد اتباع محمد بترك ما لديهم من علم ، واتباع الاهواء الراشحة من شرق أو غرب تحمل الشر والشرر ؟ ..

ان العرب لا يصلحون الا بالاسلام وحده ! هو الذى أذهب جاهليتهم وأخرجهم من الظلمات الى النور ، والمرء قد يعرض له ذهول فيكبو ، ثم يفيق فيبصر الطريق كما قال تعالى « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (٢) وكذلك العرب قد يفقدون رشدهم حينا ويفسدهم الترف والبطر ، ثم تصحو ضمائرهم فيتوبون ، أو تظل قلوبهم قاسية حتى تنزل عليهم سياط الغزو الخارجى ، وتجوس الاعداء خلال ديارهم ، وعندئذ يكسوهم الندم ويسارعون بالعودة الى الله فيقبلهم ويرد لهم الكرة على أعدائهم ..

واليوم نريد أن ننفض تراب الهزيمة عنا وان نستأنف مسيرتنا كما كنا ... أعنى كما كان سلفنا الاوائل الكبار ..

لابد لذلك من عناصر معينة لا يصنعها الا الاسلام

---

(١) الرعد ٣٧ (٢) الاعراف ٢٠١

نريد العاملين الذين يرقبون الله فى الخلوات ، فلا يكسلون عن واجب ، ولا يخونون فى أمانة ، ولا تمتد أيديهم الى رشوة . ولا يبحثون عما لهم ويتجاهلون ما عليهم ..

نريد أساتذة وطلابا يسعدون بالمعرفة ، ويلتذون بالبحث ويحترمون الكتاب ، ويرون الدراسة عبادة ، والسهر فى التحصيل تهجدا ، ونفع الامة بأى نوع من العلوم قربى الى الله ..

نريد زراعا وصناعا وتجار ينمون اقتصاد امتهم كما ينمون ثرواتهم ، ويدركون أن غنى الامة يقدرها على صون شرفها وحفظ حقوقها ، وان الجهاد المالى صنو الجهاد النفسى ، وأن الامم التى تتسول الاعانات من الدول الكبرى لن تعلو لها رسالة مادامت يدها السفلى ..

نريد ناسا يحافظون على المال العام ، ويشعرون بحق الله فيه . وان الاخذ منه دون وجه حق غلول « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١) .

نريد حكاما لا يعبدون أنفسهم ! يبرءون من جنون العظمة وشهوة السلطة ، ويعرفون أن كل رئيس يجىء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه ، فكه عدله أو أوبقه جوره كما جاء فى الحديث الشريف .

ان حكام المسلمين من زمان غير قريب آذوا الله ورسوله ، واستهلكوا شعوبهم حتى فنيت أو كادت خصال الاباء والانفة ، لطول اذلالهم لمن أعز الله واعزازهم لمن اذل الله !!

ان الاسلام وحده هو صانع هذه العناصر التى لاتتم لنا حياة الا بها ، والامر كما قال الله : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٢)

---

(١) آل عمران ١٦١ (٢) الرعد ١١

ربما استطاعت أمم أخرى أن تعيش قصيرا أو طويلا وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء ! لكن أمتنا تحول مزاجها وكيانها الى جهاز فريد لا يدور فيه الا مفتاح واحـــد هو الاسلام ، وستذهب جميع المحاولات الاخرى سدى ، لا محالة .

ثم من من أهل الملل والنحل ترك دينه ؟ لقد اقبل اليهود فى موكب تظله صحائف التوراة والتلمود ، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، ورأى الناس بين القطبين الشمالى والجنوبى هذا الولاء الدينى العاصف فما انكروا له صيحة ، مع أنها صيحات جزارين ، وديست مدننا وقرانا فما رثى لنا أحد !!

فهل كل ولاء مقبول الا الولاء للاسلام ؟ وهل كل حل حسن الا الحل الاسلامى ؟

لقد آن الاوان ليختفى الى الابد أولئك الساسة العرب الذين يكرهون الاسلام ، ويطلبون من أمته أن تدير ظهرها لكتاب الله وسنة رسوله ، الواقع أنهم ثرثروا أكثر مما يطاق ، وطال بقاؤهم أكثر مما ينبغى ...

على أن الحل الاسلامى المنشود يخشى عليه من التزوير فى أيام اعتقلت فيها الحقائق ، وتجرأ المفتون الكذبة على التزوير ، وتصـــوير الاسلام دينا لا يحترم الشـــورى مثلا ، أو لا يعترض استغلال النفوذ ، أو لا يكترث لهضم الجماهير ...

ان الحل الاسلامى ، لا يحتاج الى عبقرية فى تصوره وتصويره، لانه سهل المأخذ من مصادر الاسلام المعصومة ، والواقع أن العوائق دون تحكيم الاسلام خلقية لا علمية ، وان الحل الاسلامى يعرفـــه أهل الذكر ، ولكن ابعادهم مقصود مرسوم ...

ان « المراكسة » فى الصين وروسيا ، شكوا من تحكم الفرد، ومع ان نظمهم بطبيعتها استبدادية فقد قرروا ان تدور شئونهم فى وسط جماعى ، يتم فيه تبادل الاراء والبحث عن الصواب .. وأسرة الدول الاوربية تأبى أن ينتسب اليها الا الحكام « الديمقراطيون » .

ليس هناك الا العالم العربى والاسلامى الذى يعيش وحده فى ضباب من الدعاوى والترهات ؛ أنه وحده دون اقطار الارض كلها هو الذى يقول فيه حاكم : أنا صانع القرار .. وهو وحده الذى يسمع فيه أن الحاكم لا يسأل عما يفعل !!

ان الاسلام غريب فى هذا الجو الاسن الكريه ، والحل الاسلامى لا يؤخذ من أفواه الجهال والكذبة .

الف الناس أن تكون العبادات أقرب الى شئون الغيب منها الي دائرة المنطق ، لكنى أرى غير هذا ، فأنا إنادى الى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزمارات انذار ، وانما بصوت يشدني من عقلى .. !

وعندما انصرف من صلاتي لا أجزى الا بما عقلت منها !

والدين الذى اعتنقته قام على معجزة عقلية ، تعرفنى أن الله واحد فى الارض والسماء لانه « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (١) .

وفى القرآن مئات الايات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والاساليب الصحيحة لاستدلاله ، وبعده عن الاوهام والظنون !

وقد احصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الالباب . وترى انهم هم الناس حقا ! وهل الانسان الا عقله ؟ ما أصدق قول المتنبى .

اولا العقول لكان ادنى ضيغم   أدنى الى شرف من الانسان !

من أجل ذلك يرى الاسلام ضرورة صقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة اشراقه بأنواع العلوم والتجارب ان الاعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق ما يفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم .

والحق ان الامم تتقدم او تتأخر بمقدار انصبتها من العلم وقدرتها على تحويله الى حضارة مثمرة . والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرؤها فى المصحف . أما التخلف العقلى فستارة تسدل على البصائر والعيون فلا تكشف

---

(١) الانبياء ٢٢

سرا ولا تدعم حقا « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (١) .

ان الامم المتخلفة عقليا كالاطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون فىوصاية الكبار حتى ينضجوا ! وربما كرهت الامم المتخلفة هذه المنزلة المهينة ! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعا أو كرها ..

وقد رأيت عابدين فى أفكارهم — لا فى قاماتهم — قصر فشعرت بخيبة الامل ، لان هؤلاء العابدين كانوا بلاء على دينهم ، وربما ضروه من حيث أرادوا نفعه ، لانهم كالدبة التى قتلت صاحبها .. !

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة ، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس ، وعافية البدن ، ويحفظ بازدراء المسكرات والمخدرات والمفترات التى تنال من وعى المرء وكرامته، ويحفظ قبل ذلك وبعده باستلهام الله الرشد واستمداد النور منه سبحانه !!

وقد وردت فى ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها ..

وننتقل من صون العقل الى صون النفس . ان احترام الانسانية كلها يبدو فى احترام فرد واحد قال تعالى « من اجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ..» (٢) وجاء الاسلام فجعل النفس الانسانية أقدس من الكعبة المشرفة ومن الاشهر الحرم قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) الحج ٤٦ (٢) المائدة ٣٢

« ... الا وإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، الا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال اللهم اشهد — ثلاثا — ويلكم لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض.. »

ونظر عبد الله بن عمر الى الكعبة وقال : ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما اعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك حرمة دمه وماله وعرضه .. !

ومقتضى الايمان الا يكون المؤمن مصدر افزاع أو ترويع لغيره ، ومن جوامع الكلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم « الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن » يعنى كما تربط الاغلال يدى الرجل فلا يقدر على عمل شىء ، يقيد الايمان يدى المؤمن فلا يعتدى على نفس ، المؤمن اشرف من أن يفتك بأحد.. !

وفى الحديث كذلك « قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا » « لو أن أهل السماء وأهل الارض اشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله فى النار »

ويرى الاسلام من المحافظة على الحياة أن يعتنى المرء بصحته ، ويستكمل أسباب عافيته ، ويهتم بحواسه وأعضائه وسائر بدنه ، فان البدن القدير على أداء الواجبات الناهض بشتى الاعباء من أجل النعم .. !

وقد كان من أدعية النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم متعنا باسماعنا وابصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعلها الوارث منا » اى استبقيها مادامت الارواح فى الاجساد حتى اذا متنا خلفناها فى أبداننا فورثتنا ، بدل أن نرثها ونحن على ظهر الارض ..

ومن المحافظة على الحياة توقى الامراض ، وتناول الادوية وقد رفض عمر السفر الى ارض موبوءة بالطاعون ! قيل له : تفر من الله ؟ قال : أفر من قدر الله الى قدر الله !

وقد اصاب أمير المؤمنين السنة ، وأخذ كلمته أحد العارفين فولد منها هذه الحكمة « الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله .

ان الله يمهد للانسان السبيل ، وعليه بعدئذ ان يقدم لا أن يحجم ، وهذا معنى قول الله فى ذى القرنين « أنا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا » (١) .

ان النفس شىء غال ، وقد كرمها الاسلام فلم يهنها، وصانها فلم يضعها حتى تؤدى فى الحياة رسالتها ..

ويجيىء بعد النفس المال ، وهو قوام الحياة الشخصيه والعامة، فما من أحد يستغنى عن المال ليطعم ويلبس ويقوت عياله ، ويصون مروءته ، وما من أمة تستغنى عن المال لتحمى كيانها وتدبر مصالحها ، وتستبقى ذاتها .

ولذلك أمرنا بتأثيله وتنميته ، ونهينا عن جعله بين أيدى السفهاء ، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الافادة منه قال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (٢) .

ونظرا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الاسلام من صاحبه ان يرد عنه عدوان الغاصبين ! ولو بذل دونه دمه !! روى النسائى عن مخارق بن سليم الشيبانى أحد الصحابة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، الرجل يأتينى ليأخذ مالى ؟ قال : ذكره بالله ! قال : فان لم يذكر ! قال فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين ! قال : فان لم يكن حولى أحد من المسلمين ؟ قال : فاستعن عليه بالسلطان ! قال : فان نأى السلطان عنى ؟ قال : قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة ، أو تمنع مالك — تحميه —

---

(١) الكهف ٨٤ ، ٨٥ (٢) النساء ٥

وقد روى مسلم فى صحيحه حديثا يؤكد هذا المعنى ، ويحكم بالشهادة لمن قتل دون ماله ! !

وانما ذكرنا ذلك ليعرف المسلمون قيمة المـــال ، وضرورة حفظه والذود عنه ! ترى ايوصى الشارع بهذه الاستماتة فى شىء تافه ؟؟ كلا كلا .. انه لولا خطورة المال فى الحياة الخاصة والعامة ما غرض القتال دونه .

ومعنى ايجاد المال وتحصينه ايجاد منابعه وتفجيرهـــا ، وهل منابع المال الا الضرب فى الارض ، واســـتغلال ظاهرها ، واستخراج باطنهـــا ، واستثارة البر والبحر ليجودا بخـــيرات الله المودعة فيها ؟

والحق ان المـــال سلاح رهيب ، والســـلاح لا يحمد أو يعاب لذاته ! ولكن يحمد فى يد الشـــجاع المدافع عن حقوقـــه ، ويذم فى يد الظلوم المعتدى على غيره !! انه وسيلة الى الجنة أو الى النار ، بطريقة استخدامه « فأما من أعطى واتقى وصـــدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ما له اذا تردى » !!

وقد نظر بعض الجهال الى المال فى أيدى الاشرار ، وكرهوه لانهم يستعينون به على الفجور والفســـاد ، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة فى هجاء المال ، وحسن التخلى عنه ! حتى وهم العوام ان المال شر فى كل يد ، وان البعد عنه غنيمة .. !!

ومعنى البعد عنه البعد عن مصـــادر كسبه ، وأســـباب اقتنائه ، وشاع هذا الفكر الغوغائى بين الجماهير ، فاذا المسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الارض ، ولا اجادة صناعة من صناعات السلام أو الحرب !

واذا هم يحسبون الصعلكة تقوى ، والافتقار فى الدنيا هو الاغتناء فى الاخرة ، وسجلوا فى بعض كتب السنة والتصوف ان الفقير الصابر افضل من الغنى الشاكر !!

ونشأ عن هذه الجهالات السائدة فى مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الاسلامى لان مواهبه الدينية والمدنية تبلدت وتبددت ، حتى الاقطار التى رزقت سعة فى ثروتها تيسر لها ذلك من جهد الاجانب فى تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها .. ؟!

ان العقل الاسلامى تحيط به غشاوات سميكة ولابد من تمزيق هذه الغشــاوات ان اردنا الحياة ، ولابد من مطاردة الغوغــاء الذين فرضوا انفسهم على الثقافة الدينية ، وهم لايصلحون لا لدنيا ولا لدين ...

٢٧ ـ ما دور الاسلام فى ترشيد الضمير الانسانى ... ؟

نظرة الاسلام الاولى الى القلب الانسانى ـ أو الضمير ـ كما يقول علماء الاخلاق ، فان سلامة هذا القلب من العلل ، وثبات وجهته الى الخير ، تعنى الكثير من توفيق الله ورضـوانه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم . التقوى ها هنا التقوى ها هنا ـ ويشير الى صدره .. »

نعم فالصدر المشروح بالحق ، المستقر على النهج يؤتمن على الدقيق والجليل ، ويضع طابعه الطهور على كل شىء وتحفه بركات الله ، لان صلته به قائمة دائمة ..

ونحب ان نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليما أو كيف يكون الضمير نقيا ..

المرء فى طفولته ويفاعته قد يحب الظهـور ويسره سـماع الثناء عليه وقد يبذل جهودا شاقة فى هذه السبيل .. ان الرياء ليس مستغربا على الطبيعة البشرية ، فارضاء الناس هـدف حقيقى فى المراحل الاولى من العمر ، ثم يكبر المرء وتسمو نظرته ويتجه الى الله ، ان المرائى لا يرى الا الناس فهو يعمل لهم أمـا المخلص ، فهو يرى رب الناس ولذلك يعمل لـه .

ويتعهد الدين هذا التسـامح ، فهو يوصى بتمحيض العمل لله ، لان الانسان اذا أشرك الناس مع الله فى طلب الرضاء رفض الله عمله !

ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا له وحده ، ومن ثم ترى المؤمن حقا يجيد عمله ويؤدى واجبه سواء رآه الناس أم

لم يروه ، وسواء أثنى عليه رؤساؤه أم ضاقوا به ، انه يحسن الصنيع على أية حال وفى أى وضع ...

والانســان بطبيعته يحب أن يكافــأ عــلى عمله ماديا أو ادبيا ، وربما ترك العمل اذا لم يجد له جزاء عاجلا ، وقد يتراخى فيه او لا يكترث باجادته اذا كان الجزاء قليلا أومؤجلا .. لكنه اذا صدق يقينه أحسن اداء واجبه ! وادخر ثوابه عند ربه ، وعد ما يقبضه فى اليوم الاخر أضمن وابقى .. !

عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانصار : انكم ستجدون أثرة بعدى ! قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أدوا الذى عليكم ، وسلوا الله الذى لكم !!

الواجب يؤدى على وجهــه الكامل ، وحســابى على الله والامر لــه .. !!

ان الانبعاث الى العطاء يجب أن يكون بدوافع ذاتية ، غايتها استرضاء الله وان جحد الخلق « الذى يؤتى ما له يتزكى ، وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعــلى ولسوف يرضى » (١) .

قال المؤرخون : لا حظ صلاح الدين وهو يقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين فى معسكرات الاعداء مخلفة وراءها الدمار والقلق ! وبينا هو يرقب جهة العدو لاحظ أن النار بدأت تشتعل ، ورمق الفاعل ــ بعد ما بدأ الحريق ــ يتحيز الى جند المسلمين ، فامر فجيىء به ، فلما مثل بين يديه قال له : ما اسمك ؟ قال الرجل : يعلمه الله ! قال له صلاح الدين مطمئنا : انى أريد مكافأتك ! قال

---

(١) الليل ١٨ ــ ٢١ .

الرجل : لو أردت المال ما جئت هنا ، وانصرف لشأنه !!

هذا جندى باسل حضر الوغى ليقاتل فى سبيل ربه ، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله اليه ، فلما استدعاه السلطان كره ان ينال على جراءته ثمنا .. حسبه ما عند الله !!

والحق أن انتصار المسلمين ، وفتح بيت المقدس ، وكسر حدة الغارة الحاقدة ، وجمع فلول الامة الممزقة كان من ورائه عدد من ذوى الضمائر الموصولة بالله الراغبة اليه ، قامت بعملها فى صمت وعزلة وعفة .. !

لعل السلطان نفسه كان يضىء الطريق لهذه القلوب الطيبة حين قرر أن يشارك فى حمل الاحجار على عاتقه بكرة وأصيلا ، ولو شاء لاصدر الاوامر وراقب المنفذين ، انه أبى الا أن يسد الثغرات ويشيد الحصون بنفسه مع جيشه !!

ونتدبر عبارة القرآن فى وصف هذه الضمائر البارئة من العلل قال تعالى : « يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (١) سليم من أوضار الغش وجنون العظمة ولفت الانظار ! ان الشخص الذى لا يعمل أو لا يجيد عمله الا ابتغاء ثناء يسمعه ، او مال يأخذه لن يعمل شيئا طائلا اذا انقطع الثمن، وابتعد الناس !

ومعنى هذا أن الخير عنده عرض عابر لا باعث أصيل ؛ ان قلبه فى الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتى اليه ، انه قلب غير سليم ..

وربما خامرت القلب تطلعات دنيا الى مال أو جاه ، بيد أن الايمان يطاردها ويبقى الضمير متشبثا بربه مؤثرا له وهذا معنى

---

(١) الشعراء ٨٨ ، ٨٩

قوله تعالى : « من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » (1)

انه ليس غريبا على النفس أن تحب المال والجاه ، بيد أن هذه المحبة يجب أن تنهزم امام وجه الله وارتقاب جداه !

ولو نقبنا عن أسباب الزلازل التى تهز كيان الامم لوجدناها تلك الضمائر الميتة ، تلك القلوب التى تيبست ، فهى لا ترشح بنبل ولا تهش لفضيله ولا تشمئز من قبيح ..

وقد ذكرت السنة الشريفة أمثلة للضمير الحى عندما يتغلب على المغريات ويهزم الوســـاوس ويســـبح بقوة ضـــد التيار وينجو !!

فعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله ..

فأما الثلاثة الذين يحبهم ، فرجل أتى قوما فسألهم بالله ، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم ، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم ، فأعطاه سرا ، لا يعلم بعطيته الا الله والذى أعطاه .

وقوم ساروا ليلتهم حتى اذا كان النوم أحب اليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى ...

ورجل كان فى سرية فلقى العدو ، فانهزموا ، فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له ..

وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله فالشـيخ الزانى ، والفقير المحتال ، والغنى الظلوم ...

وظاهر أن الثلاثة الاخرين ماتت قلوبهم ، فاستمرءوا الرذائل مع ضعف الاسباب التى تدفع اليها ..

---

(1) ق ٣٣ ، ٣٤

ومن صور الضمائر الحية ما ذكرته أحاديث اخرى ، عن الرجل يقدر على الفاحشة ، ولكنه يدوس مغرياتها ، ويستبقى نفسه طاهرا ، وصلته بالله زاكية .

وصورة هذا الرجل الذى استأجر عاملا عنده ، فأدى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل ان يأخذ اجره وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذى تركه من زمن بعيد !

كان رب المال ، قد أدار الاجرة فى عمله فنمت حتى امست ثروة ! فلما جاء العامل أعطاه الاصل والنماء ، والعامل مدهوش !

ان الايمان يضع ضوابط صلبة للسلوك ، ويجعل من القلب ديدبانا صاحيا يحرس الحقوق والواجبات ، فلا حيف ولا فوضى ..!

وبعض الانظمة تجعل من سلطان الدولة شبحا رهيبا يحمل الناس حملا على العمل ، والاتقان ! فهل تم ذلك ؟ لا ، لانه ليس فى مقدور نظام ما أن يضع شرطيا مع كل عامل فى الارض أو فى المصنع لينشط ، ومع كل مقاول حتى لا يغش ، ومع كل طبيب حتى لا يتهاون ، ومع كل تاجر حتى لا يحتكر ، ومع كل رئيس حتى لا يستبد ويطغى .

واذا خان الشرطى فهل نجيىء له بشرطى آخر ؟ قد يقال : ان رفع المستوى الثقافى وتبصير الكبار والصغار بما ينبغى وما لا ينبغى يمكن أن يمنع هذه المحذورات ..

والواقع أن الجرائم الكبرى لم يقترفها الا مجرمون على حظ كبير من المعرفة ، وان النضج العقلى لا يستلزم الطيبة والاخلاص والشرف ، وكم من اذكياء اساءوا الى انفسهم وأممهم .. ! « افرأيت من اتخذ الهه هواه ، واضله الله على علم ، وختم على سمعه

وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » (١) .

ان القلب النقى ، الغيور على الحق الحريص على الشرف ، القاهر للاثرة ، المحب للناس لا يصنعه الا ايمان وثيق ، وتعلق بالله وحده ..

والواقع أن حديث القرآن عن الله سبحانه وعن تاريخ الماضين الطويل ، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب ، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة ، ان ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب ، واتجاهه الثابت الى الحق والخير ..

(١) الجاثية ٢٣

٢٨ ـ ما موقف الاسلام من العنصرية السـائدة فى بعض الحضارات ؟

ظهر خلال هذا القرن الزعيم الالمانى « هيتلر » يزعم أن الدم الارى ارقى من غيره ، وان الشعب الالمانى بطبيعته يرجح غيره من الشعوب السامية ـ يعنى اليهود والعرب وأشباههم ـ وتحول هذا الزعم الى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الالمان ومن على مستواهم ...

وهذا كلام خرافى لا وزن له ! وان كان راسبا لا فى نفوس الالمان وحدهم بل فى نفـوس الاوربيين وأفـراد الجيش الابيض عموما !

ان بنى آدم من ناحية الخلقة يستوون فى أنهم نفخة من روح الله الاعلى حلت فى اهاب من تراب هـذه الارض ، فالبشر كلهم ينميهم أصل واحد ، ويجمعهم نسب مشترك . قال تعالى يشرح تلك الحقائق : « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسـان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصـار والافئدة ، قليلا مـا تشكرون » (١) .

لا فروق بين جلد أبيض أو أسود أو اصفر او احمر ، ان هذه الالوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف فى ألوان الازهار والورود ، ولا دلالة على عراقة او تفاهة ..

بيد أن كثير من الناس يسرهم أن يختلقوا من عند انفسهم هذه الفروق ، وان يقيموا حولها عصبيات ، وان يجعلوا لهـا وزنا خاصا فى التقديم والتأخير ، والقبول والرفض !

---

(١) السجدة ٧ ـ ٩

وقد رايت البعض يتشبث بهذه الاوهام لانها رجحت كفته دون جهد ! ومنحته شرفا جعله — دون حركة — يسبق الناشطين ! انه لشيء ظريف ان يحسب المرء سيدا لانه تكون فى بطن معين ، ونشأ الناس من ماء مهين اما هو فمن ماء شريف .

انه — مع احترامنا لقوانين الوراثة — نقرر أن الوراثة لا تنشىء عظمة ولا تكسب نجاحا ، فهناك انبياء من أصلاب كافرة ، وهناك فجار من اصلاب انبياء ، وقد كان ابو الطيب شاعرا مفلقا من أب لا يعرف شعرا ولا نثرا ، وكان ابو العلاء فيلسوفا متشائما من أب لا يدرى شيئا من الفلسفة ..

ثم ان روافد الوراثة غامضة المنبع والكنه فى أبناء الجيل الواحد فكيف اذا تكاثرت الاجيال ؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة أحبت عبقريا دميما وعرضت عليه الزواج لينجبا ابنا يرث جمالها وذكاءه ! فقال لها الرجل : أخشى أن يرث غباوتك ودمامتى !!

ان القول بأن جنسا ما ذكى بأصل الخلقة وجنسا آخر غبى بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر ، ان ظروف البيئة هى التى تصنع الاعاجيب ، وهى التى تنمى المواهب أو تقتلها ، بل هى التى تحيى الفطرة أو تميتها .

والجنس الابيض الذى يعمر غرب أوربا وشمالها ، والذى يفرض وصايته على العالم كله ، كان أياما طوالا يشتهر بالغباوة والانحطاط ، وقد نقلنا فى كتابنا « مع الله » كلام المستشرق « فيلب حتى » عن تأخر الاوربيين الحضارى وتفوق عرب الاندلس عليهم « ... فى الوقت الذى كانت فيه جامعة « اكسفورد » ترى الاستحمام عادة وثنية ، كانت الاجيال من علماء قرطبة تتمتع

بالاستحمام فى مؤسسات فاخرة ، ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة الشمال ــ هكذا كان آباؤنا يسمون سكان أوربا وفكرتهم عنهم ماورد فى كلام عالم « طليطلة » صاعد القاضى المتوفى سنة ١٠٧٠ م فقد كتب عنهم : ان افراط بعد الشمس عن مسامتة رءوسهم برد هواءهم وكشف وجوهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت الوانهم وانسلت شعورهم وانعدمت دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة !!

أرأيت هذا الوصف ؟ انه لاهل أوربا الذين يقودون العالم الان ، وليس للهنود أو الزنوج أو العرب .. أو بقية العالم الثالث !!

والعالم اليوم ينظر الى هزائم العرب أمام اليهود ، ويبتسم ساخرا .. ! وقد كان آباء أولئك المهزومين يحتقرون الجبن اليهودى ويبرءون منه ويقولون لنبيهم فى أول قتال له مع الوثنية لا نقول لك ما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون !

بل اذهب انت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون ، ان خضت بنا هذا البحر خضناه معك ، ما يتخلف منا أحد !!

ان الاسلام بين أن الافراد والاجناس يصنعون يومهم وغدهم بانفسهم ، وهم فى سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق ، « أنها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (١) فقد يسبق الاسود فى الدنيا والاخرة ، أو يقع العكس ! وقد ترجح كفة رجل من سواد الناس ، وتطيش كفة آخر من أبناء الرسل ، أو العكس « والوزن يومئذ

---

(١) المدثر ٣٥ ــ ٣٧

الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » (١) .

وجاء فى السنة أن النبى صلى لله عليه وسلم نبه قومه : لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم وقال : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وهذا مصداق الآية الشريفة « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وقال تعالى « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون » (٢) .

ومع كثرة ما نبه الاسلام الى مبدأ « ان أكرمكم عند الله اتقاكم » لوحظ أن العرب يغالون مغالاة منكرة بالانساب والحرف ، ويجعلونها محور تقدير جائز وعصبيات عمياء .

الزراعة مهنة تافهة ، وكلمة فلاح رمز لامرىء نازل المرتبة ، وقد كان الفرزدق يهجو جريرا بأن أباه حداد ! أما هو فان الذى سمك السماء بنى له بيتا دعائمه أعز وأرفع ! بم ؟ بغير شىء !

وفرضت تقاليد البدو نفسها على المجتمع العربى بل على جانب من الفقه الاسلامى ، فاذا عدد كبير من رجال الفقه يرون أن الهاشمية لا يكافئها عربى عادى وان العربية لا يكافئها أعجمى ، وحكم القضاء الشرعى بتطليق فتاة من أسرة شريفة النسب تزوجت بالشيخ على يوسف محرر صحيفة « المؤيد » المشهورة .

أما حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « اذا أتاكم من ترضون دينه ومروءته فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير » فقد وضع على الرف !

وكما تسللت هذه التقاليد الى ميدان الفقه تسللت الى ميدان الحكم والسياسة ، فكانت عصبيات القبائل قديما وعصبيات الاسر

---

(١) الاعراف ٨ ، ٩ (٢) الاحقاف ١٩

حديثا من وراء طلب الرياسة وبسط النفوذ . .

وعندما يبحث سبب فساد المجتمع الاسلامى وانهيار الحضارة الاسلامية عموما ، فستكون هذه الجاهليات من أبرز العلل .

والى يوم الناس هذا لا تزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب ! ذلك فى وقت يشيع فى أرجاء العالم تنافس لا حدود له فى البحث العلمى والانتاج الغزير وتجويد السلع وكشف المجهول ومراقبة الخصوم وكسب الاصدقاء ، انه تنافس ترتبط به مصاير أمم ومستقبل رسالات ! ترى ما موقفنا ؟

جاء فى السنة عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا الا انى جعلت نسبا وجعلتم نسبا جعلت أكرمكم عند الله اتقاكم فأبيتم الا أن تقولوا : فلان بن فلان خير من فلان ابن فلان ! فاليوم أرفع نسبى واضع نسبكم ، اين المتقون ؟

وعن جابر خطبنا رسول الله فى أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ! الا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لاحمر على أسود ولا لاسود على أحمر الا بالتقوى . ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، الا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : فليبلغ الشاهد الغائب .. !

وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لينتهين أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا ، انما هم فحم جهنم ، او ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدحرج النتن بأنفه ! ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية — اى كبرها — وفخرها بالاباء ، انما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى الناس بنو آدم وآدم من تراب ... !!

٢٩ ـ ما موقف الاسلام من مظاهر الحضـــارة الحديثة ، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها ، كالرسم والنحت والتصوير ؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمى باهر ، وصل اليه الانسان بعد قرون من البحث المضنى والتجارب الغالية ! ولم يكن عجبا ان يستغل الانسان كشوفه لاسرار الكون وقـواه الخفية فى ترقية نفسه وترقية معايشه ، بل ان ذلك اقرب الى الحكمة من استغلال هذه الكشوف فى تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعى على الناس !

وأحسب أن التقدم الصناعى العام وفر للجماهير متعا ما كان يحصل عليها الملوك الاقدمون ! الاطعمة أنعم ، والاشربة صنوف، والملابس تفضل الحرير نسجا ولونا ورقة ، وأدوات النقل اغنت عن الخيل والبغال والحمير ، والقيان التى كانت تغنى فى مقاصير الامراء انتقل صوتها الى الاكـــواخ ، ونام عـــلى لحنها العمال والفلاحون ، والمرء فى المشرق يكلم صاحبه فى المغرب بثمن ميسور، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى ، وملكوا غدا أنصبة أكثر . . !

ومع هذا كله فالاعصاب مشدودة ، والاطماع طاغية ، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتحاســد الافراد والاقطار اشعل البغضاء هنا وهناك !

وقيل فى وصف العالم : ان عضلاته أكبر من فكره ، ولو انصفوا لقالوا : أنه عالم يذكر نفسه ، وينسى ربه ، ويجحد حقه ، ويمارى فى لقائه ، ويظن أن هذه الدنيا كل شىء ، فلا امتداد لوجود آخر ، ولا حياة الا هنا . . !!

وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطيباتها ! ان الله استضافنى فى كونه وأطعمنى خيره فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة كذلكَ أن أضن بشكر المنعم !

ان الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب الا الاعتراف بالجميل ، فهل هذا ثمن فادح ؟؟

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفـــع هذا الثمن « وقليل من عبادى الشكور » (١) .

على ذلك الاساس أنظر الى ما قدمته الحضارات قديمهـــا وحديثها ! انه ـــ كما علمنى الاسلام ـــ لى وليس لغيرى ، أليس يقول الله : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » (٢) ؟

ومن ثم فالاصل فى الاشياء الاباحة ، ولا تحريم الا بنص قاطع ، والواقع أن نفرا من سوداويى المزاج أولعوا بالتحريم ومنهجهم فى الحكم على الاشياء يخالف منهج نبى الاســـلام عليه الصلاة والسلام الذى ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس عنه روى أنس ابن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشـــدد عليكم ، فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والاديرة رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

وقـــد أشاعت المدنية الحديثة « الراديو و « التليفزيون » وغيرهما من الاجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الاجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وان المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم إن يقدموا النافع ويحجبوا الضار .. !

---

(١) سبأ ١٣ (٢) البقرة ٢٩

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الاجهزة لاشاعة اللغة السليمة وتذوق الاداب الرفيعة وحماية الاخلاق ودعم التقاليـد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن ندرب الالوف على اتقان حرف نحن محتاجون اليها ، وأن نرفع مستوى الاداء لاشغال كثيرة ، فان البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا ووقفت مسيرتنا ، ان وسائل الاعلام لو احسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لا تستطيعه الا أمـة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الامة الذنب فقد سـقط عنها التكاليف لان غيرها يشدها .

قد يفهم من ذلك انى أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس .. لا ، ولكنى الحظ أن الامة العربية والاسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغنى كثيرا ،والاستجمام حق المرهقين لاحق القاعدين !

أما الغناء فكلام ، حسـنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع الى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه ! وما نحارب الا غناء هابط المعنى واللحن ..

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الاطلاق ، وقـد احتج البعض بقوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عـذاب مهين واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ..»(1)

ولعمرى ان من يشترى جد الحديث أو لهوه للاسباب المذكورة فى الاية جدير بسوء العقاب ، اما من يريح أعصـابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للاية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشترى مصحفا للاضلال فهو مجرم ...

---

(1) لقمان : ٦ ، ٧

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش ـ وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل ، هو الذى جعل عـددا من العلماء يحرمه ، والى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخارى الى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ..

بيد أنه ليس من الضرورى أن تجتمع هذه العناصر كلهـا عند سماع أغنية .. وعلى اية حال فاذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما اذا برىء منها فلا شىء فيه .

والموسيقى كالغناء وقـد رأيت فى السنة ان النبى صـلى الله عليه وسلم مدح صوت أبى موسى الاشعرى ــ وكان حلوا وقد سمعه يتغنى بالقرآن ــ فقال لـه : لقـد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود ! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك ..

وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج ، ولا ادرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها ؟

على ان الالحان تختلف فى تأثيرها وصداها النفسى ، فاذا كان هناك مجال لاعتراض فعلى الاصوات الخنثة والالحان الطرية المائعة ..

ونعود الى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجـة الى الكثير من الجد والقليل من اللهو ، ولو رزقنا بفنانين ذوى شرف ومقدرة لامكن تحويل الفنون الى عوامل للبناء لا للهدم ، ولاثارة المشاعر النبيلة لا اهاجة الغرائز الدنيا ...

أما الصور فيجب ان نفرق بين نوعين : المجسم الذى يصنعه المثالون الان لاغراض شتى ! والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق واقمشة وغير ذلك .

والتصوير سواء كان شمسيا أو قلميا هو جزء من الطب والامن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ،

والاصل فيه الإباحة لحديث مسلم « الا رقما فى ثوب » ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجرة كتابه المصحف ، فقال : « لا باس انما هم مصورون ، وانهم انما ياكلون من عمل أيديهم » .

ولم يقل احد ان صورة الوجه فى المرآة محرمة ، ولا يقول احد ان اثباتها بطريقة او باخرى تحول المباح الى محرم ..

ولا يحرم من هذا النوع الا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الاسلام كصور بوذا ، او ابراهما ، او صلبان النصارى ، أو اى شعار دينى يخالف التوحيد ..

كما يحرم اى تصوير يخل بالاداب ، ويحرك الغرائز الى المعصية ..

اما التماثيل المجسمة فان النصوص الواردة تتظاهر على رفضها ما لم تكن الاعيب للصبية او عرائس هزلية كحلوى المناسبات المختلفة ، فان أحدا لا يفكر فى توقيرها أو عبادتها ..

لقد رايت بعينى من يعبدون هذه الاصنام فى جنوب آسيا ، ورايت فى مصر من يحيى بخشوع تمثالا لعبد الناصر !! وذلك اثناء نقله من مكان الى مكان .. !!

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما او كان رسما على ورق ، واخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابساتها سببا فى ضياع الدين والدنيا معا !

ولنضرب مثلا بالمرويات التى جاءت فى قضية البناء ! روى الشيخان عن خباب بن الارت قال : ان المسلم يؤجر فى كل شىء ينفعه الا فى شىء يجعله فى هذا التراب !

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « النفقة كلها فى سبيل الله ، الا البناء فلا خير فيه » !

واخرج داود عن انس ايضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اما ان كل بناء وبال على صاحبه الا مالا ، الا مالا بد منه ... » .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال مر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا أطين حائطا من خص ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ فقلت : حائط اصلحه ! فقال : « الامر أيسر من ذلك» وفى رواية : « ما ارى الامر الا اعجل من ذلك » ! يعنى الموت او الساعة !! والحديث رواه ابو داود وصححه الترمذى !!

هذه الاثار كلها لو أخذت على ظاهرها ما بنيت مدينة ولا قرية ! ولعاش الناس فى اكواخ لا تستر العورات الا بجهد !

والواقع انها واردة فى المكاثر والمفاخرة والاستطالة على الناس ! وبناء القصور جائز بلا ريبة !

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقا يحرمون بناء القصور ؟

انهم فى بعض البلاد لا يزالون يرون الصورة فى التليفزيون محرمة ، واقمار الاجانب تلتقط الصور لنا فى أيام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندرى أو لا ندرى ...

٣٠ ـ كيف اعلن الاسلام حقوق الانسان ... ؟

خلق الله الانســـان ليكرم لا ليهان ، ولتسجد لـــه الملائكة لا ليعيش مع الحيوان ! ومع ان الانسان يعانى على الارض مـــا يعانى فهو مع بنى جنسه اذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء ، وقد قال الله سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم عـــلى كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١) .

ولكن المتامل فى تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنهـــا الذل والضياع ! ربما أعز لها الجوع والدواب تجد ما تأكله ! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة أسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد !

من الذى انزل بالبشر هـــذه الكوارث ؟ لم يفعل ذلك ملك ولا جن ، لم يفعل ذلك ماء ولا هواء !

ان الذى فعل ذلك بعض البشر ، ناس لديهم فضول سلطة أو ثروة ، استغلوا سلطتهم وغناهم فى ايذاء الاخرين والحيف عليهم .

ومضت قافلة البشرية من قديم تتعســـف الطريق ، وتكابر الوحى ، وتعارض الانصاف ، وتدفن الاخلاق ، وتفرض الاهواء ... وأخيرا استطاع نفر من اولى العزم وحماة الحقيقة أن يقلموا الاظافر الحادة وأن يروضوا الطبائع النهمة ، وان يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمى الضعاف ، وتصون الحقوق فى أسلوب مفصل أوحت به سلســـلة التجارب الطـــويلة فى محاربـــة الاســـتبداد الســـياسى والظلم الاجتماعى والانحراف الخلقى ..

---

(١) الاسراء ٧٠.

وعندما ننظر الى المواد التي تضمنتها هذه الدساتير نعرف بدقة ماهي الحقوق التي يطلبها الانسان والتي لايزال الكثيرون يشكون فقدها ! .

ان المادة الاولى فى الميثاق العالمى لحقوق الانسان تنص على أن الناس يولدون احرارا ، يتساوون فى الحقوق والواجبات ، وكون الناس يولدون أحرارا متساوين كلمة نطق بها عمر بن الخطاب ارتجالا لا اعداد ولا تكلف ، بل انطلاقا من الفطرة الاسلامية ! .

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرا نظرية خيالية !! فكم من اناس ولدوا لهم حقوق ليست لغيرهم ، وكم من اناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم ، وكم من وظائف تفاوتت الفرص فى شغلها ، واختير لها من ليس لها بأهل ، ولا تسل كيف ؟ فان ناسا قبلك تجرءوا على السؤال فلم يوقف لهم على أثر أو عاشوا ناكسي رؤوسهم لفرط ماحل بهم ، ان القدرة التي يملكها البعض ولايدرى كيف امتلكها — فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها ، ومع أنه الله — وهو المقتدر الاعلى — لايظلم احدا فى الملكوت الذى تفرد بحكمه ، وقال : يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا ، مع ذلك فان ملاك السلطة والثروة دابوا على الظلم فى اقطار كثيرة ، وبعد لاى قدرت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التي وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرة .... !!

ان حقوق الانسان ولدت فى ديننا مع النطق بكلمة التوحيد ، فعندما نؤمن بالله الذى لا يعبد غيره ولايشرع غيره ولايحكم غيره ، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية او اجتماعية !!

نعم ، ان الايمان بوحدانية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل امر ، والاحساس بأنه — وحده — الضار النافع الخافض الرافع المعطى المانع ، ان ذلك يمنح الانسان حرية واسعة تجعله

لا يبالى بطواغيت الارض كلهـــا ، لانهم مهمـــا فحش سلطانهم ليسو الا عبيدا لربه ...

ونلحظ ان القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مره ، ذلك لان الفرعنة مرض نفسى شائع بين الحكـــام المستبدين ، وتأمل قول فرعون لقومه : « ما أريكم الا ما أرى ومـــا اهديكم الا سبيل الرشاد » (١) وقوله للسحرة لمـــا آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا : « آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ انه لكبير كم الذى علمكم السـحر ، فلا قطعن أيديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا اشد عذابا وابقى » (٢) .. ان ذلك الفرعون السخيف يرى الا رأى الا رأيه ! فهو وحده الذى يصنع القرار ! ويرى ان من اعتنق رايا قبل ان يستأذنه مخطىء متمرد !! انه ملك الضمائر والسرائر ، والناس عبيد احساناته .. !!

ولكى توقى الانسانية هذه اللوثة شددت الدساتير الحديثة فى أمر الشورى والزام اولى الامر بها ، كما وضعت قيودا حديدية على التصرف فى المال العام ومنع العبث فيه ...

وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل انسان فى محاكمة عادلة ، فلا يحبس او يعتقل أو يؤذى جورا وطغيانا ، وانما يبقى انسانا مصونا حتى يصدر القضاء النزيه حكمـــا عليه فيؤخذ به وحـــده !

ان الرسول راى وحشيا الذى قتل عمه حمزة أحب الناس اليه فما استطاع ان يسىء اليه بكلمة بعدما اسلم ..

ورای عمر بن الخطاب رجلا كان قد قتل اخاه فى الجاهلية ثم أسلم ، فقال لـــه عمر : والله لا أحبك ! قال : أفذلك يمنعنى

---

(١) غافر ٢٩ (٢) طـــه ٧١

حقى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ... قال : لا حرج اذن ، انما يأسى على الحب النساء !!

الحق أن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقاليد الخلافة الراشدة كانت نموذجا أعلى لاحترام الانسان والمحافظة على حقوقه ، كان النبى يدعو من له مظلمة عنده أن يقتص منه ، ويأخذ حقه ! وكان خلفاؤه كذلك ، وقد رفض عثمان أن يستنفر أهل المدينة ـ خصوصا قبيلته ـ للدفاع عنه ، حقنا لدماء من استباحوا دمه !

ولو كان فى الحكم رجل آخر لاهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه !!

فى هذه البيئة الحرة تربى الرجال الذين هدموا القيصرية والكسروية ، واستمع التاريخ الى رجل منهم يقول فى أرض فارس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ! جئنا نخرج الناس من ضيق الاديان الى سعة الاسلام !

كانوا يدركون أن الوجه الاخر لكلمة التوحيد هو حقوق الانسان ، الانسان الذى لا ينحنى الا لربه وحده !

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد النفذ لتكوين الامة المسلمة العارفة بربها السيدة فى وطنها التى لا يجار عليها ولا يستباح حماها ، وقد كره الاسلام الاستضعاف ، وعزم على المؤمن أن يكون حمى الانف عزيز الجانب !

فان ضاقت به ارض فليرحل الى غيرها وليبق كما كتب الله له قويا أبيا « قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة .. »

على أن الرحيل لا يسوغ أن يكون فرارا من مقاومة ممكنة جاء فى خطبة لابى بكر الصديق « .. انا سمعنا رسول الله يقول :

ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه أو انى سمعت رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يقول : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون عـــلى أن يغيروا فلم يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

والواقع أن الظلمة من اجبن الناس ، ويوم يحس احدهم انه اذا لطم أحدا ارتدت اللطمة الى خده ، فكر الف مرة قبل ان يعتدى ، انهم لا يزارون الا فى الخلاء ، ولا يمتدون الا فى الفراغ والويل للشعوب الجبانة !!

للانسان حقوق سياسية تجعله ينقد أى خطـــأ من السلطات كلها علياها ودنياها دون أن يلحقه اى ضرر ، ولـــه ان يتولى اى منصب تؤهله له كفايته دون أن يقفه عائق ما . واساس ذلك انه ليس لاحد بعد رسول الله عصـــمة تعلو به عـــلى النقد ، وان المناصب أمانات ينالها الجدير بها ، ويبعد عنها من لا يستحقها .

وللانسان حقوق مالية تفرضها له الاخوة العامة بين المسلمين، وقد أشرنا من قبل الى أن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . قال ابن حزم : ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على اطعامه وكسوته فقد أسلمه ! وذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب وقد اصابت الناس ازمة : « لو لم اجد للناس ما يسعهم الا ان ادخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم انصاف بطونهم حتى يأتى الله بالمطر فعلت ، فانهم لن يهلكوا على انصاف بطونهم » .

وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعا ، ميسور الاخذ ، يستنير به الذكر والانثى والغنى والفقـــير ، فطلب العلم فريضة كما جاء فى السنة الشريفة ، وما تنضج ملكات الانسان ، ويخصب تفكيره وشعوره ، الا بأمداد لا تنتهى من المعرفة .. !

والمستغرب ان الانسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيدا عن دينه وينبت فى غير مغارسه ويحكم بغير شرائعه .

الشعوب هنا تختار حكامها وتبعدهم ان سئمتهم ! أما عندنا فالشعوب تفاجأ بحاكميها كما يفاجأ المريض بعلة لا يعرف كيف الخلاص منها !

وعندما وقعت مذابح لبنان تظاهرت الالوف غضبا فى كل عاصمة الا فى العواصم الاسلامية ، لان التظاهرات ممنوعة ! من يدرى ؟ ان الشجا يبعث الشجا ، فقد تتحول هذه التظاهرات ضد الحكام بفعل فاعل !! فالافضل أن تمنع ، والرؤساء المحبوبون سيؤدون الواجب !

٣١ ــ هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الاسلامى وحده أم تجاه المجتمع البشرى كله ، وكيف ؟

معرفتى بالاسلام تجعل ولائى للناس كلهم جــزءا من ولائى للدين الذى أحببته ! فانا لا اشعر بانشطار فى هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت احد الشيوخ فى اثناء الدرس يقول : نحن المسلمين أمة الاجابة ، وغيرنا من اهل الارض امة الدعوة ! قلت : ما معنى هذا ؟ قال : ان محمدا صلى الله عليه وسلم دعــا العالمين الى الله ، فنحن استمعنا الى النداء وأسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله تعالى « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فــآمنــا ربنــا فــاغفر لنــا ذنوبنــا وكفــر عنــا ســيئاتنا وتوفنا مع الابرار » (١) فنحن امة الاجابة !!

اما غيرنا فهو مدعو مثلنا ، ولمــا يجب بعد ! لعل النداء لم يصل اليه ، أو لعله وصل اليه مشوها لا يحرك دواعى القبول ، وايا ما كان الامر فهو مدعو !

وعلى أن ابلغه ما يجهل ، وان اثير فيه دواعى التصديق ؛ لقد عرفت الحق قبله فآمنت ، ولست أولى منه بذلك الخير ، وقد يكون خيرا منى لو عرف ما أعرف ، والواجب يفرض على أن اكون صورة مرغبة لا صورة منفرة ، والا كنت مسئولا عن اضلاله ، او حاملا معه بعض أوزاره !!

ومن المحزن أن عددا من علماء المسلمين شغله الترف العقلى فخان أمانة الدعوة والبلاغ ، وان عددا من حكام المسلمين شغله المجد السياسى فما احسن خدمة الحق ولا جــذب الانتباه اليه !

---

(١) آل عمران : ١٩٣

ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الإجابة وأمة الدعوة كانت مليئة بالخصام بل كانت مخضبة بالدم !

قد تقول : أهذا كل ولائك للانسانية ؟ وأجيب للفور : لا .. لا تنس انى حسن الظن بالفطرة الانسانية نفسها لانى مسلم أعلم أن الصفة الاولى لدينى انه دين الفطرة ! ان الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه اذا أدركوها .. ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فان الجماهير ستكون قريبة منى أو أكون أنا قريبا منها .

ولو خلى المرء وفكره لاتجه الى آله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية الى هذا الرب الوحيد ، ولو خلى المرء وفكره لاثر الزواج على العهر ، والصحو على السكر ، والاخاء على الاثرة ، والنصيحة على الغش !

اننى حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادى انها كالثمر الذى ينبت جميل الرواء شهى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، ان هذه الامراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كى يحموا محاصيلهم ، لكن الاجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد تلتهمها الاوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زائغين !

وماذا يفعل أولئك الصغار اذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم انه لا إله والحياة مادة ؟ أو سمعوا أن الالهة شركة مقرها جبل اولمب أو صحراء الجزيرة او فوق السحاب ؟ انهم يكبرون زائغين

أترانى أدافع عن ذلك الانحراف ؟ كلا ، وانما اذكر الواقع المجرد ! والذى أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تملك بها

حق الاعتراض على الباطل الذى يعرض أو يفرض عليها ، وان هذه الخصائص من القوة بحيث يعد اهمالها تقصيرا سيئا واساسا لمساءلة عادلة يوم الحساب قال تعالى « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم : السـت بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : انمـا اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريـة من بعـدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفصل الايات ولعلهم يرجعون»(١)

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الانسانية قادرة على المقاومة والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافـة ، ويتشبث بالحقيقة ، يجب أن يرفض الضمير البشرى الاثم ويتشبث بالبر والطيبة ..

واذا حدث أن خفت صوت الفطرة ، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته كى يؤدى وظيفته ، ويبقى الانسان انسانا ، يعرف ربه ويؤثر دربه !!

واذا كان الوحى الالهى غير كاف فى ايقاظ الفطرة واعـادة التائه الى رشده احاطت بالافراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترفق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها ومناشدته الرحمة«وما أرسلنا فى قرية من نبى الا آخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون » (٢) !!

ومع ذلك فالفطرة وحدها لا تخطىء فى كل شىء ! انها تخطىء وتصـيب ، وتجور وتستقيم ! ودورنا نحن المسلمين أن ندعم الصواب ، وأن نوهن الخطأ ، وأن نذكر بما تنوسى من حق .

وفى ظلمات الجاهلية الاولى شعر نفر من ذوى القلوب النبيلة أن المستضـعفين يجار عليهم فى الحرم ، وتغصـب حقوقهم ،

---

(١) الاعراف ١٧٢ ــ ١٧٤ . (٢) الاعراف ٩٤

فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهــوف ، ويبقوا الى جانبه حتى يرضى،ذلك هو حلف الفضول الذى تم فى دار عبد الله بن جدعان، .

وبعد ظهور الاسلام ونزول الوحى ، ذكر النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحلف باعزاز وولاء وقال : لو دعيت به فى الاسلام لاجبت ! نعم ان الاسلام الذى جاء به هو الانسانية فى صورتهــا الوسيمة ، ونحن ــ انبعاثا من هذا المعنى ــ نرى لزاما علينا فى الميدان الدولى أن نحــارب التفرقة العنصريــة ، وان نخاصم الاستكبار بالقوة ، وأن تقر عيننا بانتصار العدالة ، وان نفــرح بشيوع الرخاء بين عباد الله ...

اننى اغبط الرجال الذين يعملون باسم « لجنة العفو الدولية» على اليقظة الخلقية والغيرة الانسانية التى تجعلهم يرقبون الاحداث فى العالم ، فاذا وجدوا ظلما شــهروا به ومزقوا الاســتار عنه والبوا الدنيا عليه .

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفــذون التعاليم التى تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم القائل « اذا عملت الخطيئة فى الارض كان من شهدهــا فأنكرهــا كمن غــاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شـهدها » !!

ان الدين تحسين للحسن وتقبيح للقبيح حيث كان ومن اى الناس كان .

واذكر أننى لم اعلم بمصــارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الاسرة الجــديدة فى الصــومال ، الا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع. ان أغلب الاذاعات الاسلامية والعربية آثرت الصمت .. !!

قلت : هؤلاء الساكتون اقرب الى الكفر منهم الى الايمان ،

اما الاجانب الغاضبون للظلم فهم اقــرب الى الايمـــان منهم الى الكفــر ! ان هــلاك الاجيــال عــلى ظهــر الارض يجيء من شيوع الخبث وسكات العارفين ، قال تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الارض ، الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١) .

والانتماءات المزورة لا تخدع ذا لب، كم من منتمين الى الاسلام لو تفرست فى أعمالهم ما وجدت اثرا لفطرة سليمة ، او تقــوى حقيقيـــة وكم تجــد مسالك هى الاســـلام بعينه ولكن العنوان مفقود .. !

أعجبتنى نظم الشورى فى الغرب ورايتها تطويرا جيدا لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديما .. فاذا أذناب لولاة الجور الذين أهانوا الاسلام وأمته يقولون فى صفاقه نادرة : هذا اقتباس اجنبى والشورى عندنا لا تقيد حاكما ... !!

وتأملت فى أحوال هؤلاء القائلين فرايت ناسا يخزى بهم الحق، وتستخفى المروءة ، يسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة ، وتدين شائه ، فقلت فى نفسى : الاوربيون فى نظم الشورى قلدوا النبوة والخلافة الراشدة ، وهؤلاء العرب قلدوا الحجاج والمعتصم وبقية السلاطين .. !

ما اكثر ما ظلمت أمتنا بالمتقولين الجهلة ..

على ان الانسانية فى غيبة الوحى تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى ، كما زاحمت الفطرة غرائز واهواء جامحة،والحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها نقائص ونقائص كثيرة .. وربما

---

(١) هود ١١٦ ، ١١٧

اختلف الناس فى مفهوم العدل ، بل فى مفهوم الفضيلة والرذيلة ، وبين الجبهتين اللتين تحكمان العالم تفاوت واسع فى وجهات النظر ..

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع الى وحى الله والاستهداء به فى متاهات الظنون ، ومتشبعات الهوى ، انه لابد من دين لدنيا الناس ..

ونحن المسلمين نملك الوحى الخاتم ، ومن حقنا وحدنا ان نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعا ، فان كتابنا جمع لباب الدين ، وتضمن جملة الحقائق التى يفتقر اليها البشر ، ليوفوا بحق الله أولا ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين فى هذه الحياة .

بيد أن الناس لن يسمعوا حرفا منا ما بقينا على تخلفنا الشائن ، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذى لدينا ، وما بقينا — على غنانا — نتسول من الشرق أو الغرب برامج اصلاح وضرورات حياة ...

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق ايماننا ، ولنتمسك بالخصائص التى زكت وارتقت بها أمتنا ، وهى ما قررته الاية الكريمة « كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

إننا لسنا جبهة ثالثة فى العالم اننا الجبهة الاولى فيه فلما ازرينا بانفسنا ازرى بنا الاخرون ، وطريق العودة ممهد لا مسدود !

---

(١) آل عمران ١١٠

٣٢ ـ ما تأثير القرآن فى الفكر الانسانى ..؟

يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل ، او أنه بحسب الانسان ان يكون صافى الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليتم دينه ويكتمل يقينه ، مهما كان عقله بعد ذلك ..

وذلك خطأ ! فان الاسلام يريد أولا عقلا سليما وفكرا مستقيما فما قيمة امرىء مشوش الذهن سقيم التفكير ؟

ان صحة النظر الى الامور ودقة الحكم على الاشياء تجيىء أولا ثم تجيىء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك ..

وعندما بدأت الدعوة الى الاسلام اهاب القرآن بالناس ان ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة ، وان يعيدوا اليقظة الى عقولهم المغيبة « قل : انما اعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى (١) ..»

كان المتعصبون للتقاليد القائمة يقولون : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (٢) وكان النبى المكافح لازالة هذه الغيبوبة العقلية يرفض هذا التقليد الاعمى « قل : أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم .. » (٣) .

لابد من موازنة عادلة ، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون اليها ! والحق أنى لم اقرأ كتابا منسوبا الى السماء احتفى بالنظر العقلى وخط على ضوئه معالم الايمان مثل ما فعل القرآن الكريم..

انه يخاطب الانسان هكذا « الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ... » (٤) ؟ « الم تر أن الله سخر

---

(١) سبأ ٤٦
(٢) الزخرف ٢٢
(٣) الزخرف ٢٤
(٤) الحج ٦٣

لكم ما فى الارض ، والفلك تجرى فى البحر بامره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه » (١) ؟ « الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . . » (٢) « الم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله . . . » (٣) .

لعمرى ما وجد العقل من بدء الخلق الى يوم الناس هذا كتابا يعترف به ويجلو بزيته ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل ! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع ادب الخيال واحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم فاذا الدين علم يعتمد على الحقيقة ، وقضايا تعتمد على البرهان سواء اتصلت بعالم الغيب او عالم الشهادة ، أو كما يعبرون فى عصرنا بالمادة وما وراء المادة . . .

وانضم العلماء بالدين الى الملائكة المقربين فى الشهادة بوحدانية الله وعدالته كما جاء فى الاية « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٤) .

وبديه ان العلم هنا ليس العلم النظرى الجاف ، لا انه علم صادق ، مطابق للواقع ، يمهد لما نسميه العاطفة العاقلة ! ثم نتشبث به ونتعصب له ، فلا نرخص قيمته ولا نتنازل عنه ، انها خيانة أن نتخفف من الحق عند ثقل الاعباء ، أو نستدير له اذا ارهقنا الاعداء . . !

وفى القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر اليه ، ولنختر هذا النموذج !

---

(١) الحج : ٦٥ (٢) الفرقان ٤٥
(٣) النور : ٤٣ (٤) آل عمران ١٨

يقول الله سبحانه معرفا نفسه لعباده « وهو الذى انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون ، وهو الذى ذراكم فى الارض واليه تحشرون ، وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل النهار افلا تعقلون » (١) ؟؟

هذه انارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق ، ومنهج القرآن فى الحديث عن الله جدير بالاحترام كله ، انه يضع أصابع الانسان على ما حوله ثم يقول له : فكر ! اتظن الشمس عقدت اتفاقا مع الارض لتعاقب الليل والنهار ؟ أتظن كلتيهما حددت المدار الذى يخصها ، ووضعت عقوبة لمن يتجاوره ؟ أن هذه الاجرام السابحة فى الفضاء لا تعقل شيئا ، وانما تديرها حكمة .. « افلا تعقلون » ؟

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم « بل أتيناهم بالحق ، وأنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » (٢) .

هذه عقيدة التوحيد ، وتلك أسانيدها العقلية ، تتابعت فى سياق صريح قاطع يثبت لله كل كمال ويتنزهه عن كل نقص ، ويسند اليه المدائح التى تنبغى له ، وتليق بمجده !!

حسنا ، فهل وقف الامر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه ؟ لا لقد جاء بعده تيار عاطفى يدفع الى البراءة من كل شرك وجهل ويخوف من عواقب هذا الانحدار ، جاء هذا التيار فى صورة

---

(١) المؤمنون ٧٨ — ٨٠

(٢) المؤمنون ٩٠ — ٩٢

استعاذة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب الماحق الذى سينزل بالشاردين المعاندين ، وغضب الجبار محذور ، ومن شمائل العبودية أن نتوقاه ، وننأى عن أسبابه « قل : رب اما ترينى ما يوعدون ! رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ! وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون » (١) .

والغريب انه بعد تمزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها جهلا ، يقول الله لنبيه : تمهل ، وتذرع بالحلم ، وقابل باحسان من يسف « ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين .. » (٢) الخ

هذا نموذج من عشرات تنبنى عليها السور فى القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء ، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية ، والمستشرقون يرون أن القرآن المكى يعتمد على العاطفة اكثر مما يعتمد على الفكر .. فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة ؟ ان ما لديهم فراغ !!

ولا يوجد كتاب بنى الايمان على البرهان ، الا هذا القرآن ، ان التفكير فريضة اسلامية كما يقول الاستاذ العقاد !

ومجال التفكير هو فى العالم المادى ، هنا يستطيع الانسان ان يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل آخر الامر الى ما يفيده فى دينه ودنياه، وذلك ما نبه اليه القرآن الكريم عندما قال : « أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار

---

(١) المؤمنون ٩٣ — ٩٥

(٢) المؤمنون ٩٦ — ٩٧

لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » (١) .

اولو الالباب هنا يتفكرون فى خلق العالم ! ويستنتجون من قوانينه المطردة ، ونظامه المتناسق أنه مخلوق لرب حكيم ، فلا عبث ولا فوضى ..

وفى اول السورة نفسها ورد ذكر أولى الالباب على نحو آخر ، انهم لا يحاولون اكتناه الذات العليا ، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها ، اننى شخصيا « أشعر » بأن الله ملك مستو على عرشه ، لا يند شىء عن سلطانه ، ولا يبعد أمر عن حكمه ! لكن كيف ذلك ؟ لا أدرى !

انا لا أدرى علاقة روحى بجسدى فكيف أدرى استواء الله على عرشه !! الافضل أن أتجاوز ذلك الى غيره على نحو ما قيل :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع !!

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب » (٢) على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولا للمتناقضات ! وكما قيل : ما يعز على العقل فهمه شىء وما يحكم العقل باستحالته شىء آخر .. !

وقد حارب القرآن الاوهام ، وكم يعيش الناس صرعى أوهام ! وحارب الظنون ، وكم من ظنون توارثها البشر ، وجعلوا منها عقائد مقدسة ، وما كانت يوم وجدت الا شائعات

---

(١) آل عمران ١٩٠ — ١٩١

(٢) آل عمران ٧

لا اساس لها ... « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون » (١)

ومن هنا نهى الله سبحانه أن نتبع ما لا نعلم وان نتأثر مـــا لا اصل له ، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها فى تبين الحق وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب « لا تقف مـــا ليس لك به علم ان السمع والبصر والفــؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »(٢)ومن معالم الجماعة المسلمة انها تحترم المنطق،وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم ! وقد مضى هذا المنهج الى غايته وهو يحـــارب الشرك ويؤسس التوحيد ، فترى الحملة عـــلى المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه ! قال تعالى « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه » (٣) بل ان ذلك يراعى عند قصص الاولين ، وذكر أسباب الخروج عـــلى الضالين المستبدين ، فقد جساء على السنة الفتيـــة أهل الكهف « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطـــان بين » اى بدليل واضح مقبول !

الحق ان اثر القرآن فى الفكر الانسانى عميق ، انه هو الذى اقام الايمان على المنطق ورفع راية العقل !

(١) يونس ٣٦
(٢) الاسراء ٣٦
(٣) المؤمنون ١١٧

٣٣ ـ كيف ، ولماذا ، وقع النسخ فى القرآن ... ؟

للنسخ معنيان : أحدهما سائغ لاريبة ميه وهـو تخصيص عام أو تقييد مطلق أو اظهار حكم ما بطريق التدرج .

والثانى محو حكم سابق بآخر لاحق ، وهو عند التحقيق العلمى لا وجود له فى القرآن الكريم .. !!

ونسوق الامثلة الشارحة لما ذكرنا ، المرأة اذا فقدت زوجها وجبت عليها عدة وفاة مقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام كما جاء فى الاية الكريمة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجـا يتربصن بأنفسهن أربعة اشهر وعشرا ، فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف » (١) ... لكن هذا الحكم العـام عرض له استثناء ضيق دائرته ، فان المتوفى عنها زوجها اذا كانت حاملا فعدتها وضع الحمل ، ولو بعد يوم من الوفاة ! قال تعالى : « وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » (٢)

كلتا الايتين لها موضعها الذى تعمل فيه ، وحكمها باق الى قيام الساعة .. !

وحرم الاسلام أكل « الدم » وجـاء ذلك فى الايـة « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ... الخ » (٣) ثم جاءت آية اخرى تكشف أن الدم المحرم هو السائل من الذبيحة « قل لا أجد فيمـا

---

(١) البقرة ٢٣٤
(٢) الطلاق ٤
(٣) المائدة ٣

اوحى الى محرما علـى طاعم يطعمـه الا أن يكـون ميتة او دما مسفوحا (١) الخ فعلم منذلك أن الشارعيبيحاكل الكبد والطحال وكان العرب يعدو نها من الدم ، فتقيد الدم المحرم بصفته المذكورة !

اما التدرج فى الكشف عن حقيقة حكم ما ، فانه يبدأ تلويحا يفهمه الاذكياء ، ثم تزداد الابانة بما يكاد يوحى بالحكم ، ثم يجىء الحكم حاسما بالمعنى المراد ، وقد تم تحريم الربا والخمر بهـذا الاسلوب المتأنى ، وليس فى القرآن نص باباحة الخمر أو الربا !

وعندما يقول سبحانه : « وما آتيتم من ربا ليربو فى اموال الناس فلا يربو عند الله .. » (٢) فذلك تمهيد لقوله فيما بعد « أحل الله البيع وحرم الربا » (٣) !!

وعندما يقول : « يسالونك عن الخمر والميسر قل : فيهمـا اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما » (٤) فذلك تمهيد لقوله فيما بعد « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » (٥) .

ان هذا التدرج كان الطريقة المثلى لفطام الناس عن رذائل الفوها وادمنوهـا وتعصـبوا لهـا ، وقـد حـاولت

---

(١) الانعام ١٤٥
(٢) الروم ٣٩
(٣) البقرة ٢٧٥
(٤) البقرة ٢١٩
(٥) المائدة ٩٠

الولايات المتحدة تحريم الخمر بقانون صارم مرة واحدة ففشلت فشلا محزنا، بصورة أشنع !! وتبين ان الشارع الاسلامى اذكى واحكم ..!!

ومنفعة الميسر ان ربحه كان يرمى للفقراء ، ومنفعة الخمر ما يشعر به الشارب من نشوة وغيبوبة ينسى فيهما أحزانه ... الى حين ، أو ما يحسه من دفء كاذب !

وكفة الاضرار أرجح ، والقانون الشرعى « للاكثر حكم الكل، وما قارب الشىء يعطى حكمه .. » !

وبعض المفسرين رأى أن الايات الاخيرة فى الخمر والربا ناسخة لما نزل قبلها من آيات ، متوهما أن بينها تعارضا ، وهذا خطأ فلا تعارض ولا نسخ ...

بيد أن حمى النسخ أصابت قوما من الفقهاء والمفسرين فجعلتهم يقولون كلاما غريبا ، أذكر إنى كنت أقرأ شرح الخازن لسورة الانعام بدءا من قوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » (١) فاذا الرجل يقول : الاية منسوخة ، وبعدها قال تعالى « اتبع ما أوحى اليك من ربك لا أله الا هو واعرض عن المشركين » (٢) فاذا هو يقول : الاية منسوخة !

ولا أدرى بدقة كم آية نسخها فى صفحة واحدة !!

وقد وصل بعضهم بالايات المنسوخة الى بضع مئات ، وهذا كلام منكر ، وقد رفضه الراسخون فى العلم ، والشبهة التى قامت فى ذهن الخازن ــ غفر الله له ــ أنه ظن آيات الجهاد تعارض الايات التى ذكرها ، وهو ظن مستبعد ! ..

---

(١) الانعام ١٠٤
(٢) الانعام ١٠٦

بل ان البعض يرى قوله تعالى « اتقوا الله ما استطعتم »(١) ناسخا لقوله تعالى « أتقوا الله حق تقاته » (٢) كان بين الايتين تناقضا ، ولا تناقض الا فى دماغه هو !!

لقد رايت القائلين بالنسخ يتورطون في مهازل ، وعلة هذا انهم يبعدون عن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، سواء كان هذا التفسير يتبع قضية واحدة فى طول القرآن وعرضه ، أو كان استكشافا للوحدة التى تشمل أجزاء السورة ، والتى تجعل آياتها معالم لصورة بينة التقاسيم ، متعانقة المعانى والاهداف ...

وعلى اية حال ، فما من آية فى كتاب الله قيل بنسخها الا كان هناك قول آخر باحكامها ، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوليه تعالى « الان خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين » (٣) قال كثيرون : كان الحكم الشرعى أن يثبت الواحد لعشرة من الاعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين !

وقال المحققون : الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد امام عشرة مادام قادرا صابرا آملاً فى النصر او راغبا فى الشهادة، على أن لـه رخصة اخرى ان عجز ، وهى أن يقف أمـام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو ابدا دون ذلك ... قالوا : والرخصة هنا كقصر الصلاة فى السفر ، فالقصر فى السفر لا ينسخ الاتمام فى الاقامة ...

وما دام لم يرد قول بنسخ الا ورد معه قول باحكام ، فلنستبعد ابطال الايات ولنقرر انه لا نسخ فى القرآن الكريم أبدا ، الا ما كان بمعنى تخصيص العام او التدرج فى التشريع .

---

(١) التغابن ١٦
(٢) آل عمران ١٠٢
(٣) الانفال ٦٦

قد يقال : أليس يقول الله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها .. » (١) .

لقد ذكر صاحب المنار الوجه الحق فى تفسير هذه الاية ، ونقلت رأيه مع تعليقات لى فى كتابى « نظرات فى القرآن الكريم » ، وخلاصته أن الايات نوعان تكليفية وتكوينية .

والمقصود بالايات التكوينية خوارق العادات التى يجريها الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم ، ومن هذا القبيل قوله تعالى « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها » (٢) وقوله « وما منعنا أن نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون » (٣)

اما الايات التكليفية ، فهى كلمات الله المتضمنة هداه لعباده، وذلك مثل قوله تعالى « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الإله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها .. » (٤) وقوله « تلك آيات الكتاب المبين » (٥) .

والنسخ يقع فى الاولى ولا يقع فى الاخرى ، فان المعجزة التى تصلح لامة ، لا تصلح لاخرى ، ولا شك أن المعجزة الاخرى ، التى ايد الله بها خاتم أنبيائه تغاير الخوارق الحسية التى أيد بها الانبياء السابقين .

---

(١) البقرة ١٠٦
(٢) الانعام ١٠٩
(٣) الاسراء ٥٩
(٤) الجاثية ٧ ، ٨
(٥) يوسف ١

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية مجددة ، وجاء بعد قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها .. الخ » مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة « وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله او تأتينا آية » (١) !

بل ان آية « ما ننسخ من آية ... » اتصل بها قوله تعالى « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » (٢) ؟ وهو تساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس فى آيات تكليفية أو أحكام شرعية وانما هو فى حقيقة المعجزة التى تصحب رسالات المرسلين وتشد أزرهم أمام أعدائهم ، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الانسانية التى ميز الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم ، يريدون معجزة تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال !

ومن الشائعات التى انطلقت فى ميدان النسخ أن هناك قرآنا أنزل ثم سحب ! والمعروف فى ديننا أن القرآن لا يثبت الا بالتواتر الذى يفيد اليقين ، وان خبر الواحد لا يثبت قرآنا أبدا ، فالزعم بأن قرآنا كان ، ثم رفع كلام لا يلتفت اليه ..

والقرآن الكريم قد ينسخ أحكاما جاءت فى السنة الشريفة وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس فى الصلاة باستقبال المسجد الحرام ، قال تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبله ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره .. » (٣)

---

(١) البقرة ١١٨
(٢) البقرة ١٠٨
(٣) البقرة ١٤٤

واستقبال بيت المقدس لم يكن بنص قرآنى ، وانمـــا كان بالهام الهى عن طريق السنة التى يهدى اليها قلب الرسول الكريم، ولم يكن ذلك اجتهادا شخصيا ، قال تعالى « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه »(١).

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم ، منع تسليم النساء المؤمنات الى قريش ، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن الى مكة ، حتى نزل قوله تعالى : « اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار » (٢) .

---

(١) البقرة ١٤٣

(٢) الممتحنة ١٠

٣٤ ــ هل الاستدلال القرآني فى قضية الالوهية على الوجود أم على التوحيد ؟

ان الطفل الذى يودع فى احد الملاجىء قد يفكر فى أبيه عندما يكبر ، وقد يبحث عنه ، ولكن لا يجرى فى خاطره ابدا أنه جاء الدنيا من عدم ، أو ظهر على الارض من غير أب !!

والبشرية فى أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما اخطأت الطريق اليه ، فقد تعبد اسما لا حقيقة لــه ، وقــد تعبد حجرا موهوم الضر والنفع ، وقــد تعبد عجلا أو تقــدس بقرة أو تؤله نهرا ، وقد يجىء من يرفض هذه الالهة المزعومة كلها وينكر ان يكون للوجود سيد !!

ان قضية الالوهية فى التاريخ الانســانى يكتنفها قــدر من الغموض ، وجمهرة الامم رنت الى اله كبير ، ثم رمزت اليه أو تعرفت عليه عن طريق التماثيل ، أو الكائنات التى تنتمى اليه على نحو مــا ، ويخيل الى أن رفض عقيدة الالوهية من الاســاس لم ينجم الا بعد شيوع التدين الخرافى ، ورفض العقل السجود لحجر أو حيوان أو انسان ..

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع فى عصرنا الحديث ، مع التقدم العلمى وانتشار تدين مغشــوش ، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوها ولا انصفوها .

وحديث القرآن الكريم عن الالوهية يتسم بالوضوح الشديد ، فهو ينفى الشركاء بحــدة وحسم ، وينفى أن يكون هناك أحــد فوق مستوى العبودية لان له بالله صلة خاصــة لا ، هو الــه

واحد ، وكل ما عداه عبد له « ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد احصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » (١) .

وخلال الحديث عن الوحدة ، وكشف الحجب عن أمجاد الاله الحق ، واسمائه الحسنى ، وأوصافه العلى ، تتشعب الدلائل لتسحق كل تفكير قد يعرض عن استغناء العالم عن ربه ، وقيامه بنفسه .

اى أن شرح حقيقة التوحيد فى الاسلوب القرآنى يمحو آثار الالحاد ، وينفى شبهات الملحدين ، وبذلك تتعانق أدلة الوجود الاعلى وأدلة التوحيد المطلق فى نسق فذ !

وهاك أمثلة من الكتاب العزيز ، يقول الله سبحانه عن المشركين : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم(٢) «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون»(٣) ؟ ان وصف الله سبحانه الخالق يعنى انه أوجد العالم من عدم ، فهو بارئه ومبدعه ومصوره ومبدئه ومعيده .. الخ ومعنى ان العالم مخلوق انه برز من العدم الى الوجود بقدرة قادر وحكمة حكيم وعلم عالم ... الخ ان الصفر لا يصنع شيئا ، والعدم لا ينشىء وجودا ، ومن ظن أن العالم كان معدوما ثم عراه الوجود من غير شىء فهو أحمق .

والخلق من لا شىء ليس عملا تافها يقدر عليه أى تافه ، ومن يتصور ذلك فهو مغفل ! ان الخلق عمل هائل واذا كان صنع مطبعة أو سيارة أو راديو يحتاج الى متخصصين مهرة — وهذا عمل دون الخلق بمراحل — فكيف بالخلق نفسه ؟ اننى لا أجنح الى

---

(١) مريم ٩٣ — ٩٥

(٢) الزخرف ٩

(٣) الزخرف ٨٧

خيال بعيد ، ولكننى اسأل : ان العلماء مشدوهون أمام سعة الكون التى لم تعرف لها الى اليوم نهايات ، أفلا يكون رب الكون اكبر من الكون نفسه ؟ بلى ، والله اكبر !

الامر هنا ليس نفيا للشركاء ! فان الشركاء تساقطوا من اول الطريق ! والوثنيون لم يزعموا لاحجارهم شيئا ، والمصابون بجنون العظمة كفرعون وأضرابه لم يزعموا انهم خلقوا شيئا ؛ « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل » (١) .

ولا يسوغ لاحد أن ينتظر من القرآن الكريم ان يجعل من الوجود الاعلى قضية هى موضع الاخذ والرد والقبول والانكار ! الله أعلى واجل ! اقصى ما ينتظر ان يتناول اوهام الجهال بما يدمغها ، وأن يدوس التعطيل وهو يمحو الشرك !

وتدبر الايات « قل من يرزقكم من السماء والارض ، أم من يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون » (٢) ؟ ظاهر من السياق انه لنفى الشركاء ، واظهر منه انه لنفى الالحاد والتعطيل ، ذلك أن صور الموت والحياة تترادف تحت حواسنا ، ومن حقنا أن نسأل : مصانع من التى اختفت تحت التراب تبرز الحبوب والفواكه ؟ ومع من اتفقت لتحول المياه الكدرة وفضلات المجارى الى ورود وازهار وطعوم جيدة والوان بهيجة ؟؟ من رب هذه وتلك ؟ انه الله !

وفى كل لحظة من ليل أو نهار تخرج من بطون الامهات اطفال سوية المشاعر ، نابضة بالحياة ، صالحة للنماء ، مستعدة للاكتمال

---

(١) الزمر ٦٢

(٢) يونس ٣١ ، ٣٢

العقلى والعاطفى ، متهيئــة لشتى التكاليف ، من جعلهمــا كذلك هل الاب هو الذى اختار خصائص الوراثة فى الحيوان المنوى الذى انزله ؟ انه لا يدرى كيف تكون ولا متى ولا من اين جاء ؟ هل الام اختارت بويضتها ، وساعة نزولها انها ليست اقل جهــــلا مـــن رجلها !! من المسئول عن هذا الايجاد الذى لا يمكن انكاره ؟ ان رد الايجاد الى «الصفر» أو الى «س» أو الي مبهم سخف لا يطيقه الا فكر ساقط سخيف ! المسئول عن هذا القائل : « الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام ومـــا تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار » (١) .

وكل انثى هنا تعميم يستوعب الاناث فى عالم الاحياء من طير ودابة وحشرة وزاحفة، فى البر او فى البحر، بل من الانس والجن او لذلك جاء عقب هذه الكلية المحيطة المستوعبة قوله «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » (٢) ...

ان الفرار من الحقائق ليس ذكاء ولا شرفا ، واذا كان بعض الملحدين يحسب نفسه مفكرا ، فليعلم واقعه المر ! انه امرؤ معتل الفكر ، مصاب بداء عقلى منفر لا يقل عن الجذام ! بل ربما كان المجزوم أشرف خلقا وأصح فكرا ..

قلنا : ان منهج القرآن هو الجمع فى سياق واحد بين دلائل الوجود الاعلى وأدلة الوحدانية المطلقة ، ليس القرآن كتابا فنيا يفرد فصلا لهذه القضية ، وفصلا لتلك القضية انه يبنى العلائق بالله على نحو يربط الناس بخالقهم، ملك الاسماع والابصار والافئدة مدبر الامور كلها ، الذى لاراد لحكمة ، ولا مهرب من قضــائه ، ولا منتهى لعلمه ، ولا مجير عليه .

---

(١) الرعد : ٨
(٢) الرعد : ٩

ومن رحمة الله بخلقه انه يفتح عيونهم على آياتـــه ليعرفوه من خلال نظرهم فى هذا العالم الذى يعيشون فيه ..

يقول تعالى : « والهكم اله واحد ، لا الـــه الا هو الرحمن الرحيم » (١) .

الجملة الاولى فيها تاسيس لعقيدة التوحيد ، والجملة الثانية فيها نفى لحكاية الشركاء ، والاية كلها تمهيد للحديث عن مجالى الوجود الالهى فى آفاق العالم « ان فى خلق الســـموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » (٢) .

فى هذه الاية تنبيه للعقلاء الى أن كل شىء فى الكون يشير الى سيده ، ويدل على الخالق الكبير ، وقد جاء الكلام على اسلوب السرد المجمل ، لكننا نرى التفصيل فى مواضع أخرى ، تدبر قوله تعالى « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشـــاء من عبـــاده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم ، من قبله لمبلسين » (٣) بعد هذا التفصيل لنزول الغيث الى مترقبيه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للانسان : « فانظر الى آثار رحمة الله ، كيف يحيى الارض بعد موتها .. » (٤)؟

---

(١) البقرة ١٦٣
(٢) البقرة ١٦٤
(٣) الروم ٤٨ ، ٤٩
(٤) الروم ٥٠

كأنه يقود المرء الى النتيجة البديهية بعد تجربة معملية تمت بسين سمعه وبصره ! هذه آثار الرحمة ، وهذه آثار القدرة ، وهـذه مظاهر العلم . وهذه .. الخ كل شيء يشهد لله ويوجه اليه .!!

وكما قال للانسان انظر ... قال للناس « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، أن فى ذلكم لايات لقوم يؤمنون » (١) .

ومما يعين على فهم الاسلـوب القرآنى ان نتذكر حقيقـة فلسفية معروفة هى أن العالم ليس له من ذاته وجود ! ان وجوده طارىء عليه من خارج ! أترى المصباح الكهربائى عندمـا تغمز « الزر »فيضيء ؟ انه لا يضيىء ابدا من ذاته ، لابد من تيار خارجى يسرى فيه ليتوهج ! انه معد فقط للاستقبال ، واشعاع ما يجيئه من جهة أخرى ، كذلك الكون ، ، ان وجوده ، ذاتا وصفات مفاض عليه من أعلى ، واذا انقطع التيار الذى يمده تلاشى ، واستخفى فلا أثر له ، وهذا معنى قوله تعالى : « ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا » (٢) .

وعندما يلفت القرآن الكريم نظرنا الى آيات الله فى الارض والسماء وما بينهما ، فهو يعطينا فكرة عن الايجاد والامداد معا ، ولا بأس أن يضم الى ذلك اشعارا بأنه الله الواحد ، وان ما عداه

---

(١) الانعام ٩٩
(٢) فاطر ٤١

من آلهة مزعومة افك مبين ، « الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين .. » (١)

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجـــود الاعلى فى ثنايا توحيد الله وتمجيده ، فالله اعظم واعز من أن يكون اثبات وجوده امر بفرد له عنوان ، وكأنه موضوع يفتقر الى البرهان .

(١) غافر ٦٤ ، ٦٥

٣٥ ـ ما اهمية القصص فى القرآن ، وهل لها اصل تاريخى . وما الحكمة فى تكرارها ؟!

لابد من دراسة الماضى والتفرس فى احداثه ، فان هذه الاحداث ليست ملكا لاصحابها ، وانما هى ملك الانسانية جميعا يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ويستخلصوا منها النتائج ويضعوها نصب أعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على سواء ...

وظاهر ان سير الافراد والامم يخضع لسنن دقيقة ، وان ازدهار الحضارات وانطفاءها ، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء ! وانما يقع وفق قوانين صارمة ! بل ان القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادا ، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الاثار .

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم ، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذولب قال تعالى : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا » (١) وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لايات لاولى النهى » (٢) ! وقال : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (٣) .

وتتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية فى عمومها وانطباقها على شتى الامكنة والازمنة ، فقانون الاجسام الطافية

---

(١) طـه ٩٩

(٢) طـه ١٢٨

(٣) الاعراف ١٠١

مثلا يشمل جميع الانهار والبحار ، وانهيار الامم لشيوع الفوضى والفساد يتناول شتى الاجناس والعصور ، وقد هدد الله العرب بالمصير الكالح اذا بقوا على عنادهم ومكرهم « .. لا يحيق المكر السيىء الا باهله ، فهل ينظرون الا سنة الاولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » (١) .

وسنن الله الكونية لا تحابى احدا ، وكذلك سننه التاريخية والحضارية ، وهى منطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء ، وقد وقعت محنة احـد لان المسلمين لم يلتزمـوا النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وان واتته مؤقتا ظروف مساعدة . قال تعالى « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعـلون ان كنتم مؤمنين ! ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولهـا بين الناس » (٢) !

وقد تضمن القرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانيه حاسمة ساقها فى تضاعيف القصص التى ذكرها او فى خواتيمهـا مثل قوله سبحانه « تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » (٣) وقوله « أنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين » (٤) وقوله « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » (٥) الخ

---

(١) فاطر ٤٣

(٢) آل عمران ١٣٧ — ١٤٠

(٣) القصص ٨٣

(٤) يوسف ٩٠

(٥) الرعـد ١٧

ان القصص القرآنى سرد واع موجه للتاريخ الانسانى ليس الغرض منه الالهاء والتشويق ! بل الغرض منه التربية والتوعية ، وتجديد المعانى بعد انتهاء اهلها لتكون عظة دائمة !!

وقد شاع أدب القصة فى عصرنا شيوعا يستحق الدهشة : وامتلات الايدى بروايات يقرؤها حاملوهـا ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض ! وجملة هذه الرويات من نسج الخيال : وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون اثارة وضيعة .

والبون شاسع بين هذه الاقاصيص ، وبين التاريخ الذى يجسده القرآن الكريم ويغزو به الالباب والبصائر ليمحو الغفله ويرفع المستوى ويضىء السبل ، البون بعيد بعيد .

عندما يقول الله لنبيه « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة ، وذكرى للمؤمنين » (١) فهو يقول ذلك فى أعقاب سرد لواقع لاريب فيه ، فقد ذكر فى هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع أممهم التى ظهرت فى عصور متعاقبة،وانتظمتها أدواء التكذيب والمكابرة حتى أهلكتهم أمة بعد اخرى .

وهو يحكى ذلك ارهابا للعرب المستكبرين وتسلية للنبى وتسرية له ! ، وفى موضع آخر يقول له : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » (٢) فاين موضع الخيال فى هذه الوقائع ؟؟

---

(١) هود ١٢٠

(٢) الانعام ٣٤ .

وبعد أن قص الله سبحانه قصة يوسف ، وشرح أطوار حياته منذ اختطف الى أن صار ملك مصر ، قال عنه وعن غيره من المرسلين : « لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء .. » (١) فأين موضع الخيال هنا ؟

ان اتهام القرآن بانه يعرض خيالات فنية أو يمزج فى سياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مساغ له ، وهو فى نظرنا بلاهة نشأت عن اتباع المستشرقين !

والمستشرقون يحسون ما فى كتبهم من غثاثة وعوج وبعد عن الحق ، ويريدون الايهام بأن القرآن لا يزيد على غيره ! وهذا كذب لا يروج عند عاقل .. !!

ومعلوم أن القصة الواحدة قد تتكرر فى عدة سور ، غير أن هذا التكرار صورى فان كل قصة تختلف عن الاخرى اما فى العناصر الجوهرية التى تتألف منها ، أو فى طريقة العرض الذى يناسب مقتضيات الاحوال .. !

فقصة موسى وبنى اسرائيل فى سورة « غافر » انفردت بالحوار الطويل للرجل المؤمن الذى يكتم ايمانه ، بل هو العنصر البارز فيها .

والقصة نفسها فى سورة « القصص » انفردت بتفصيل السبب فى خروج موسى الى أرض مدين وزواجه هناك .. !

---

(١) يوسف ١١١ .

والقصة في سورة الكهف انفردت بلقاء موسى مع الخضر هذا اللقاء المثير المستغرب !...

والقصة في سورة طه انفردت بالحديث عن العصا التي كان موسى يهش بها على غنمه ثم تحولت الى قوة هائلة في يده كما انفردت بادعية موسى واجابة الله له .. الخ

وقد استطال الحديث في سورتي البقرة والاعراف عن قصة بني اسرائيل ، ومع ذلك فان المنهج غير المنهج والنتائج غير النتائج وما اتفقت فيه السورتان جاءت صياغته على نحو يلائم البيئة المتغايرة ، فالسورة الاولى مدنية والاخرى مكية ...

وشرح النواحي الفنية والموضوعية في هذه القصة وحدها يحتاج الى كتاب عن « اليهود في القرآن الكريم » مع ملاحظة ان القرآن ليس كتابا فنيا في الجغرافيا أو التاريخ ، انه يهتم بالجانب الانساني والاجتماعي وحسب !

والحوار المبثوث في أرجاء كل قصة يساق بحكمة الى غاية محددة ! خذ مثلا قصة شعيب مع مدين في سورة الاعراف لقد جاء فيها هذا الخطاب يناشد فيه شعيب قومه الا يستبد بهم اللدد في الخصومة، والا يحملهم النزق على ارتكاب ما لا يليق « وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (١) اي دعوا الامر للزمن ، ولا تتعجلوا العواقب !

---

(١) الأعراف ٨٧ .

فماذا كان الجواب ؟ « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .. » (١) !!

وظاهر ان هذا السياق من قبيل اياك أعنى واسمعى ياجارة، وكأن النبى يقول للعرب المناوئين له : احذروا مثل هذا المسلك فى مصادرة الايمان ومخاصمة أهله فعقباه صيحة من السماء تذركم فى دياركم هلكى كما حدث لقوم شعيب !!« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » (٢) .

ويلفت نظرنا فى تكرار اى قصة أن القرآن الكريم يقلب النفس الانسانية على شتى جوانبها ، ويعالجها طورا بالهدوء وطورا بالصرامة ، طورا بالشد وطورا بالارخاء ، والغرض أن تترك باطلها وتقبل على هدايات الله ..

انظر مثلا الى قصة هود مع عاد ، انك ترى هودا فى سورة الاعراف بدأ هادئا طويل الاناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة « والى عاد أخاهم هودا قال:ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين » (٣) !!

فاذا تأملت فى القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجدت النبى الحليم يبدأ منددا بوثنية قومه وحاسما فى كشف كذبهم على الله ومندرا بسوء المآل أن هم بقوا على جبروتهم « والى عاد اخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره

---

(١) الاعراف ٨٨
(٢) الاعراف ٩١ ، ٩٢
(٣) الاعراف ٦٥ ، ٦٦

ان انتم الا مفترون ... ويا قـــوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قـــوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » (١) !!

وتفسير هذا أن لقاء اى نبى مع قومه لا يقع مرة واحدة انه لقاء يبقى عشرات السنين ، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة ، بل يأخذ صورا كثيرة !

وحتى لو وقع لقاء واحد ــ كما حدث لموسى مع السحرة ــ فان كل ما دار من حوار لا يثبت فى عرض واحد ، بل توزع اجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة ...

ومن ثم كان القصص القرآنى مجالا رحبا لمعالجة النفـــوس والجماعات من عللها المنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع ، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحى حتى قيـــام الســاعة !

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة ، ليس المهم تحديد موقع ، أو حتى تحديد الشـخص ! فما يعنينا ان نعرف « هوية » ذى القرنين . أو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى !! المهم تقديم الشفاء النفسانى والاجتماعى من خلال تاريخ صادق وقصص حق .

---

(١) هود : ٥٠ ، ٥٢

٣٦ ـ ما تفسير الايات التي قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفا ماديا ؟ مثل « وجاء ربك والملك صفا صفا » .. ؟

جلست يوما افكر : ما انا بين الناس ؟ قلت : واحد من الوف مؤلفة تسكن هذه الارض ! سألت مرة ثانية : ما أنا بين من سكنوها منذ الازل ومن يسكنونها آخر الدهر ؟

فشعرت بأني اتضاءل ، وان وجودي يصغر !

سألت مرة ثالثة ما أنا بين شتى العوالم ؟ ان أرضنا التى نحس ضخامتها ذرة محقورة بين أسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة ، وما يقدر العلماء ابدا على معرفة حدود هذا الكون ، ولا أن يعرفوا ما يذخر به من احياء .. !

وشعرت بأنى أزداد تضاؤلا .. ! وقلت : يجب أن أعرف قدري ، والا أعدو حدى ، ان الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية ...

وراقبت بعض الحشرات السارحة فى عالمها الخاص بهـا وقلت : اتدرى عن عالم الانسان شيئا ؟ اتعرف ما يجول فى فكره ؟ اتعرف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب ؟؟ كلا كلا انى لها هذا ؟؟

قلت : ان علمى بحقائق الالوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتى ! ينبغى أن أعرف قدرى والا اعدو حدى ! اننى نقطة مغموصة فى مساحات رهيبة من الزمان والمكان ، كيف تحاول قطرة

فى ترعة أن تستوعب البحار والمحيطات وتشرف على اللجج والانوار ؟!

ورحت مع ابى القاسم القشيرى اناجى ربى بهذه الابيات .

يامن تقاصر شكرى عن ايادية وكل كل لسان عن معاليه
وجوده لم يزل فردا .. بلا شبه علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يخلقه ، لاقهر يلحقه لا كشف يظهره لا سر يخفيه
لا عد يجمعه ،لا ضد يمنعه لا حد يقطعه ..لا قطر يحويه
لا كون يحصره ، لا عون ينصر وليس فى الوهم معلوم يضاهيه
جلا له أزلى لا زوال له وملكه دائم لا شىء يفنيه !!!

ان القرآن الكريم حسم طيش الخيال عندما قال فى التنزيه والتجريد « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ونحن من بعيد قد نشيم لمعان البرق ، وقد يمر بعقلنا طيف عن أمجاد الالوهية ، لا ندرى ماتاه ، ومع ذلك فان هذه الخطرات العابرة لا تغنى شيئا، بل هى كما قال أبو الفتح البستى

كل من يرتقى بوهم من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى منه ، سبحانه مبدع الاشياء

اننى اعد الباحثين فى ذات الله مرضى ! فنحن — على تفاهتنا — لا نعرف من نحن ! فكيف نعرف الذات العليا ؟

والافهام البشرية فى ذات الله تفـاوتت تفـاوتا بعيدا بين التجسيد والتجـريد ، فكتاب العهـد القديم صـوروا الله يبكى ويندم ويمشى ويقعد ويأكل ويشرب ويضرب ويضرب الى جانب ماله من صفات رفيعة .

من اغرب الصور أنه جلس مستلقيا على قفاه متمددا على الارض واضعا قدما فوق أخرى ! .

وفلاسفة اليونان المؤلهون — فى مقدمتهم ارسطو — صوروا الله منزها عن كل شىء ، حتى عن الصفات التى يعلم بها ويقدر بها ، فهو عالم بذاته قادر بذاته وبالغوا فى التجريد حتى كأن الله معنى لا ذات !!

فاذا تجاوزنا الافهام البشريه الى الوحى الاعلى ، واستمعنا الى القرآن الكريم وجدنا أوصافا تقرب معنى الالوهية الى الحس الانسانى من غير تجسيد ، وتبلغ بها كمالا لا يتناهى من غير تجريد..

المسلم يقرأ قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريـد » (١) فيشعر بأن الله قريب منه ، مطلع على دخيلته ، ومع ذلك فهو يعلم أن الله مستو على عرشه محيط من وراء خلقه .

انه يحس بالله دون أن يجسـده ، وينـزه الله دون أن يفقده ..

والايمان الحقيقى أن تشعر بأن أصابع القدرة هى التى تحرك قلبك فيدق ، ومعدتك فتهضم !

---

(١) ق ١٦

ماذا قلت ؟ أصابع القدرة ؟ هل للقـدرة أصابع !

هنا ندخل فى مبحث قديم ، قتله المتقدمون تقعرا وجدلا .. وانقسموا فيه فرقا .. أما أنا فأمر به مر الكرام ! وقد قلت فى كتابى « مشكلات ... » أنا مع السلف من غير تجسـيم ومع الخلف من غير تعطيل .

لقد كان طبيعيا أن تجيىء فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة جمل يتهيب العقل الغوص فى معناها مثل « فأينما تولوا فثم وجـه الله » (١) « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » (٢) « أصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (٣) .

وقد نبه القرآن — مذ أنزل — الى ان هناك آيات ينبغى التسليم بها لان حقيقتها فوق الفكر العادى ، ومن الزيغ اكثار اللجاجة حولها .. لكن العناد والفراغ خلقا طوائف لا شغل لها الا هذا اللغو ، فكانت بلاء على الامة ولا تزال !

ان اللغات على كثرتها من وضع البشر ، وقد ألفوها ليعبروا بهـا عمـا يريدون من معـان وما يستخـدمون من أدوات ، وشئون الالوهية فوق اللغات وفوق واضعيها ، فاذا أفهمنا الله بلغاتنا شيئا يتصل بذاته العليا فعلى أسلوب التنزيل والتقريب .

واذا كان عبد الله بن عباس يقول : أنه ليس فى الدنيا من أوصاف الجنة الا الاسماء ، يعنى أن الحقائق لم ترها عين ولم تسمعهـا اذن ، فكيف بالحديث عن رب العالم وخالق الجنة والنار ؟

---

(١) البقرة ١١٥
(٢) ص ٧٥
(٣) الطور ٤٨

ان الرغبة فى فهم حقيقة العرش وحملته ! أو كيف يجيء الله فى ظلل من الغمام ، وكيف يجيء والملائكة صفا صفا ، هذا كله فهم مردود ، ومجازفة الذاهب فيها مفقود ، ومن الخير أن يعرف العقل أين ينتج فيتحرك ، والا سكن !!

وقد كنا ونحن طلاب ندرس مذهبى السلف والخلف بهدوء ، وبغتة لاحظت فى أيامنا تحاقدا بين ناس يتبعون السلف ، وناس يتبعون الخلف ، والامة الاسلامية تكــاد تســقط من الاعياء ومن ضربات الاعداء فعجبت لانفجار الخصومة فى هذا الوقت العصيب !

وقد رايت ان اثبت كلاما للدكتور الشــيخ محمد عبد الله دراز فى الموضوع لعله يخفف من هذا البلاء قال : « ان كلمــة اليد فى قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » (١) أو كلمة « اليمين » فى قوله « والســماوات مطويات بيمينه » (٢) فسرهــا العلماء المتاخرون بانها تعنى القدرة ، وهو استعمال مجازى مشــهور يقال لا يد لى بكذا اى لا قدرة عليه اما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم انهم لا يؤولون هذه الظواهر بل ياخذونها على الحقيقة . والواقع انهم لا يمنعون أصل التأويل ، ولكنهم يسلكون فى تأويلها مسلكا علميا متينا يدل عــلى علو كعبهم فى الفهم ، وأنا أحب أن افسره لكم لانه ينفعكم فى مواضع كثيرة .

قال : انه لمــا دلت الادلــة القاطعة عــلى مخالفته تعالى للحوادث ، كان هذا قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى المعروف لنا ، فاذن هى مصروفة عن هذا الظاهر ، وكأنه يراد بها معنى مجازى ، لكننا لم تقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى فى اغلب الايات ، هل المراد به القــدرة ، أم الارادة ، أم صــفة لا

---

(١) الفتح ١٠

(٢) الزمر ٦٧

نعرفها ؟ أم ليس هناك مجاز فى المفرد يشار به الى صفة معينة وانما هو كلام تمثيلى لتربية المهابة فى النفوس ؟ كل ذلك سائغ فى النظر ، وليس ثم دليل يعين واحدا بخصوصه ! لذلك وجب ان نقف حيث وقف بنا الدليل ، فلنثبت له تعالى ما أراده من كلامه على الوجه الذى اراده مع تنزيهه عن المعنى الذى نألفه من صفات المخلوقين !

قال : ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذى ذهب اليه المتاخرون ، على أنه احتمال يحتمله الكلام ، ولكنهم لا يلتزمونه التزاما ، لان القول بالالتزام قول بغير دليل ، من أجل ذلك سكتوا عن الخوض فى تحديد معاني هذه الظواهر ، واكتفوا بمعناها الاجمالى المصروف عن الظاهر ... أما طريق الخلف — وهو الخوض فى تحديد التأويلات — فانما ألجاهم اليه والله أعلم ظهور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الابهام ، ودفع الوساوس عن العوام ، لكيلا يخرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه جزاهم الله خيرا بما قصدوا ، وغفر لهم تحديد ما حددوا .

قال : وجملة القول أن طريق السلف هو الاليق بالعلماء ، وطريق الخلف أصلح للعوام وأنصاف العوام !!

وأرى أن كلام الشيخ الجليل فيه خير كثير ، اننى فى دروسى وعظاتى اتبع مذهب السلف ، وعندما أجادل أهل الكتاب والماديين انتفع بمباحث الخلف !

وفى كل الاحوال أرفض تجريد الفلاسفة ، وتجسيم اليهود والنصارى ، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير ..

٣٧ ـ كيف تفسر ما ذكره القرآن من ان السموات سبع والارضين سبع مع حقائق العلم التى ترى ان الارض واحدة والسماء فضاء ؟

ذكرت فى اكثر من كتاب انه يستحيل أن يقع تناقض بين الدين والعلم ، فان العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله والدين الحق توجيه آت من عند الله خالق هذا الملكوت ، فكيف يحدث بينهما تكاذب ؟ .

ما أثار التساؤل يرجع الى ان الناس سمت شيئا ما دينا وليس بدين ، أو سمت شيئا ما علما وليس بعلم ! وقد يكون مثار التساؤل خطأ شخصيا من احد المتكلمين فى الدين أو أحد المتكلمين فى العلم ، وما اكثر أخطاء الفريقين !

قال لى احد الناس : ثبت انه لاحياة الا فى أرضنا ، وأن الكواكب الاخرى ميتة لاحياة فيها ! قلت : هذا التعميم خطأ ، يمكن أن يقال : لا حياة بشرية ، اولا حياة نباتية ، أولا حياة لكائنات تعتمد على النفس وتعجز عن الوجود فى درجات حرارة معينة !!

ومن قال : أن المخلوقات كلها على غرارنا ؟ « ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولاخلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضدا » (١) انها جراءة أن يتحدث بعض الناس باسم العلمفينطق بالجهل ، ويبدو أن الامر كما يقول العقاد : هناك مقلدون فى كراهية التقليد !

---

(١) الكهف ٥١ .

قال : تعنى أن هناك حياة فى الكواكب والنجوم ؟ قلت : لا امنع أن هناك حيوات اخرى،واستبعد أن تكون الافلاك حجارة سماء موحشة تسبح فى الفضاء ، ليس على أديمها الا الخراب !!

ان علماء الفلك متفقون — تقريبا — على أن ارضنا تشبه حبة رمل فى صحراء مترامية الاطراف ! فهل هذه الحبة وحدها هى التى سعدت بالعقل — أو شقيت — وأما بقية الحبات فلاحراك ولافكر ولاقيمة .. هذا بعيد !!

الذى اشعر به من كتابى ان هذه الافلاك مشحونه بكائنات راشدة ، تسبح بحمد الله ، وترنى لسكان الارض ، وتأسي لمآسيهم ومعاصيهم ، وتسأل الله لهم المغفرة قال تعالى « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض » (١) قال تعنى أن السموات السبع هذه الافلاك ؟ قلت لا أجزم بشىء فى هذا ولا العلم يجزم هو الآخر بشىء عن حقيقة الفضاء ، وطبقاته الذاهبة مع الغيوب ان موضوع العلم هو المادة ، وماتولد منها ، فاذا اتصل الامر بشىء وراء المادة توقف بحثة ، وبالتالى لايذكر العلم شيئا يوصف بانه يناقض الدين ..

الذى أراه ، أواحس به أننا نتحرك فى اطار معين ، اذا تجاوزناه الى أعلى أو الى أدنى لم نصل الى نهاية ، فى عالم العدد نحن نتحرك داخل مجموعة من الارقام ، فهل هناك نهاية للعد التصاعدى ، وهل هناك نهاية للعد التنازلى ؟؟ لاحدود هنا أو هنا ، لانهاية لمضاعفات الارقام من فوق ، ولا لاجزائها من تحت !! وقد عشنا داخل ما أتيح لنا ، وتركنا الفكر فيما وراء ذلك !

ان اللانهاية يعرفها من لا أول له ولا آخر ، يعرفها الله وحده ونحن نلقى اليه السلم فيما نعجز عنه ونستريح !!

---

(١) الشورى ٥ .

لاريب إن العلم المادى تقدم فى عصرنا تقدما عظيما ، ووصل الى كشوف باهرة ، واريد إن اقرر أننى استفدت من هذا العلم فى دعم ايمانى ، وانه زادنى اجلالا لربى !

ان ظلال الأشياء تمتد وتنكمش فى أثناء النهار تبعا لدوران الارض حول نفسها أمام الشمس ، هكذا قرر العلماء ، معنى هذا ان ظلى أنا ، وظل دارى ، وظل عمود الهاتف أمامها ، هذه الظلال تتبع حركة طولها فى الفضاء مائة وخمســـون مليون كيلو متر هى مسافة ما بين الارض والشمس !

قلت : ما أعظم الترابط على بعد الشقة — بين الارض وأمها، وما أدل طول الظلال وقصرها على عظمة مثبتها وماحيها ! وتلوت الاية الكريمة « أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيؤا ظلالـــه عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » (١) ثم تلوته ما بعدها « ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الارض من دابـــة ، والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (٢) !!

ان الاسرة الشمسية التى تضم أرضنا تحتوى على نوع من الحياة فيه صلاحية معرفة الله ، والاستقامة على هداه ، ونحن البشر نقدر على ملاحظة آثار القدرة العليا فوق أرضنا المحدودة، ان ظلال الاشجار المهتزة مع الريح ، تقصر حينا وتطول حينـــا هى اثر اشعاع قادم من مسافة ١٥٠ مليون كيلو متر ضبطته بالشبر والاصبع حكمة دقيقة ، بديهى أن تكون هذه الاشياء كلها ساجدة لن أقامها وأدامها .. فهى طوعا أو كرها تسير وفق مشيئته ..

---

(١) (٢) : النحل ٤٨ ، ٤٩ — ٥٠

هل يمكن أن تتلاقى هـذه الكائنات وأن يعرف بعضهـا بعضا ؟ من يدرى ؟ قد يقع ذلك « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (١) .

هناك أمر مستيقن ان بنى آدم مجموعون ليوم لاريب فيه ! وان هناك جنا سوف يحاسبون مثلنا لأنهم داخل دائرة التكليف ، أما ما وراء ذلك فلا ندريه ولعله لا يعنينا .. المهم أن هناك سموات معمورة بخلائق اخرى .. وفى الحديث « أطت السماء وحق لهـا أن تئط ـ أى ضجت من ازدحامها ـ » .

ان السموات حق ، ولا نعرف كنهها ، والملائكة حق ، ولا نعرف كنهها . ولم نكلف بذلك ، وليس فى العلم ما ينافى ذلك !! بل ان الملائكة ـ كما افاد الدين ـ موجـودة بين الناس ، وهى تؤدى وظائف منوطة بها فى الاحياء والامامة والمراقبة والتسجيل والالهام والتخذيل !!

العلم المادى لا يدرى ذلك ، وليس فى حقائقه ما يناقضه ، وآفة بعض المنتمين الى هذا العلم انهم يريدون بالمنطق المادى ، أن يفهموا ما وراء المادة والا أنكروه وتلك حماقة لا يقرها العقلاء !

أما الكلام عن الأرض والأرضين فالسؤال يشير الى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا ان الله على كل شىء قدير ، وان الله قد احاط بكل شىء علما » (٢) وقد تساءل المفسرون : هل المراد مثلهن فى العدد ؟ أم مثلهن فى الايجاد ؟

---

(١) الشورى ٢٩

(٢) الطلاق ١٢

والعلماء الكونيون يرون أن الارض ولداتها من المجموعة الشمسية كانت سديما ثم انفصلت أجزاؤه على النحو المعروف الان ، أى أن أصل الخلق واحد .

وأرجح هذا ، فان الارض لم تجىء فى القرآن الكريم الا مفردة، أما السماء فقد جمعت كثيرا جدا ..

وقد يكون المقصود من تعدد الارضين كثرة طبقات الارض، او ما طرأ على وجه الأرض من تغيرات ؟ والمعنى الأخير ساورنى وانا اقرأ فى علم « الجيولوجيا » هذه العبارات « لعل احدث فروع هذا العلم واخطرها اثرا « جيولوجية » الالواح المتحركة ! وهى التى أسفرت عنها دراسة انتقال موجات الزلازل ! فقد بينت الى حد بعيد أن القشرة الارضية التى يتراوح سمكها بين ٤٠ ، ٦٠ ميلا ، والتى كنا نظنها ثابتة ، تتكون من مجموعة من الألواح أو الدروع تغطى مسطح الارض ، بما فيه قاع المحيط ، وهى فى حركة دائمة بطيئة لا تتعدى نصف بوصة فى العام الواحد !

وهى اما متباعدة أو متقاربة أو متحاكة جنبا الى جنب مما نتج عنه خلال الاحقاب الماضية أن ما يعرف بالقطب كان صحراء، وما كان جنوبا صار شمالا ، وان الوضع الحالى للقارات والمحيطات فى تغير مستمر ! بل ان الصخور السطحية تغرق فى باطن الارض على خط التقاء الألواح المتقاربة ، لتصهر مرة اخرى — مع شدة الضغط وارتفاع الحرارة — ثم تعود الى سطح الارض مع مقذوفات البراكين .. » (١)

وما دمنا نتحدث عن العلاقة بين الدين والعلم فلنفرق بين نوعين من المعرفة الدينية ، هناك أحكام مقطوع بها فى الدين كالايمان

---

(١) الجيولوجيا والانسان للأستاذ درويش مصطفى الفار مدير متحف قطر .

بالله الواحد ، والصلاة له ، وانتظار لقائه للحساب ! فهذه أحكام يستحيل — كما قلنا آنفا — ان يوجد فى العلم ما يكذبها .

أما وجهات نظر الفقهاء فى قضية ما وتفاوت تفسيرهم لنص من النصوص ، فتلك أحكام ظنية يكتنفها الخطأ والصواب ، ولا يعتبر أحدها الرأى الرسمى للاسلام ، انه راى صاحبه ، وافق العلم المادى ام خالفه ....

ومن هذا القبيل مرويات الاحاد التى لم تبلغ حد التواتر ، فهى ظنية الثبوت ، يعمل بها فى الفروع ولا تنبنى عليها عقائد..

والامر فى ميدان العلم كذلك ، فهناك مقررات علمية مستيقنة لم يوجد فى الاسلام قط ما يخالفها .. وهناك نظريات تشبه الاجتهاد الفقهى عندنا ، لا يمكن التعويل عليها او التسليم المطلق بها ، وعسى أن ينقض البحث فيها اليوم ما أبرم بالامس ، وأن يهدم الغد ما بناه اليوم .

هذه النظريات العائمة لا نترك من اجلها رأيا لفقيه ، ولا حديث آحاد ! ولم ؟ وافتراض الصواب والخطأ واحد فى الطرفين ؟

اننا سنستبقى ما لدينا على حاله حتى يقطع الشك باليقين!

ويؤسفنا أن الكهان فى ميدان العلم اكثر من الكهان فى ميدان الدين ، وانهم يحاولون بجراءة ترويج نظريات مهتزة ، واكسابها أمام القاصرين طابع اليقين ...

٣٨ ـ هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك وكيف تم جمعـــه ؟؟

يوجد فارق ضخم بين تاريخ الاسلام ـ فى نشأته الاولى ـ وتاريخ الدينين السابقين عليه ، أعنى اليهودية والنصرانية .. ان الاسلام تحول على عجل الى دولة قائمة لها سلطات وطيدة، أما النصرانية فلم تقم لها دولة الا خلال القرن الرابع لوجودها ، واذا كانت اليهودية قد صار لها جيش ووجود سياسى على عهد مبكر . فان كيانها قد تلاشى كل التلاشى بعـــد قليل ، وضاعت مقدساتها كلها ...

ان هذا الفارق الكبير بين الاسلام وغيره يفسر كيف بقى كتاب الاسلام مصونا ! ، وكيف تعرضـــت كتب أخرى للعوادى المـــاحقه ....

ظل النبى صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن الكريم فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة ، كان كل حرف ينزل يعيه الحفظة فى قلوبهم ويسجله الكتبة فى صحفهم ، وكان هـــذا القرآن معروفا للعدو والصديق! أما المؤمنون فهم يستمدون منه النور الذى يمشون به ، وأما الكافرون فقد شد انتباههم كتاب يهاجم آلهتهم وينقض مواريثهم ويثير دهشـــتهم ! حـــاولوا أولا التهوين من شـــأنه وقالوا : «لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ان هذا الا أساطير الأولين»(١)

ثم تواصوا بافتعال الضجيج لـــدى سماعه « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه .... لعلكم تغلبون»(٢) ولعمرى ان هذه لهى الهزيمة النفسية الموجعة ، ان تخاف سماع كلام معين لانه يغلبك !

---

(١) الأنفال ٣١

(٢) فصلت ٢٦

ثم جاء التحدى البالغ لهم « قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله .. » (١) .

ان التحدى يتوجه الى قوم سمعوا القرآن وعرفوه عن خبرة وأدركوا أثر عجزهم عن مضاهاته !

المهم ان القرآن خلال فترة الضعف فى تاريخ الاسلام ، كان متميزا معروفا لا يلتبس بغيره ، ولا يلحقه نقص أو ازدياد ..

وانتقل نبى القرآن الى المدينة ، وهناك باشر سلطات رئيس الدولة من حكم بين الناس وعقـد للمعاهدات وتوجيـه للمصالح العامة وقيادة أو بعث للجيوش هنا وهناك !

وظـل القرآن ينزل عشر سـنين أخرى ، الكتبة يسجلون باشراف الرسول عليهم ، والحفظة يختزنون العلم فى صدورهم ، وما يكتب ويحفظ تعاد تلاوته فى الصلوات الخمس ، فى قيام الليل، فى مجالس التلاوة ، فى خطب الجمعة ، الافراد والجماعات مقبلـة على قراءة الكتاب العزيز .. !

وكانت مكانة المرء تعظم بمقدار اقباله على القرآن ، وكان النبى يرعى هذه المكانة حتى عند دفن الشهداء فهو يقـدم فى اللحد اكثرهم أخذا للقرآن !

---

(١) الاسراء ٨٨

حكومة قائمة ترى القرآن دستورها ومنارها فهى تحفظه وتحافظ عليه وترسل الوفود به الى الافاق ، من أين يتطرق الريب الى كتاب هذه بيئته الاولى ؟

أمة تعبد ربها بفقه كتابه وتجويد حروفه ، ودولة بكل اجهزتها تصون وتحمى ما عرفت الدنيا من بدء الخليقة مثل هـذا الصون لكتاب من الكتب .

ومضت دولة النبوة ، ثم جاءت دولة الخلافة الراشدة ، ورجالها هم السابقون الاولون فى اعتناق الاسلام وحفظ آياته وكتابة مصاحفه !

وظلت هذه الدولة ثلاثين عاما شرق فيها الاسلام وغرب . واثر عن جيوشها انها كانت لا ينتهى لها هدير بالتلاوة آناء الليل واطراف النهار !

ومضت دولـة الخلافة ، وجـاءت دول أخرى كثيرة فماذا حدث خلالها للقرآن ؟

كان تواتره يمتد ليشمل اجيالا أخرى ، وكانت مصاحفه تملأ المساجد والعواصم والدور والقصور ... وصدق الله العظيم « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » (١)

سأضرب مثلا لشرح ما أقصد — وان كنت على وجل من ضربه واستحياء — لقد وضعت الولايات المتحدة لها دستورا بعد حرب الاستقلال ، تضافر الامركيون حكومة وشعبا عـلى دراسته وتنفيذه،فهل يمكن القول بأن هذا الدستور حرف وشوه ؟

---

(١) الحجر ٩

وكذلك فعل الاتحاد السوفيتى ! فهل يمكن القول بأن ما وضعه الثوار الحمر تغير وتبدل ؟

اننى لا اشبه القرآن الكريم بهذه الوثائق — معاذ الله — فان القرآن لم يجيء من مصدر واحد هو الكتابة ، بل المصدر الاول لتلقيه قبل أن يكتب هو الحفظ فى الصدور ، وقراءته عن ظهر قلب ! وانما لفت النظر الى أن الدولة حين تقوم على دعامة ما فانها سوف تحمى دعامتها ، وتفرضها على الزمن .

وتحول الاسلام فى عهد مؤسسه الى دولة مكينة السلطان جعل الكتاب المعجز يحظى بالحياطة الشعبية والرسمية جميعا، وجعل كل حرف منه بين العيون !

أكذلك كانت الكتب السابقة ؟ لا .. اننا نؤمن بالتوراة النازلة على موسى كما علمنا الله « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » (١) ونؤمن بالانجيل النازل على عيسى كما علمنا الله « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور » (٢) .

فماذا حدث للوحى السابق ؟ أغار أعداء بنى اسرائيل عليهم وهدموا الهيكل ومزقوا صحائف التوراة ولم يبقوا لهم اثرا يتمسكون به ... فلما تحرروا من أسرهم ، بعد امد طويل ،

---

(١) المائدة ٤٤
(٢) المائدة ٤٦

تقدم لكتابة التوراة من ذاكرته من تقدم فاذا الصحائف الجديدة ملأى بالغرائب !

من بضع سنين تقدم للقضاء الاسرائيلي جندى يشكو الضابط الذى يراسه بانه اغتصب زوجته ، وتحدث محامى الضابط فقال : ان موكله مشهور بالاقدام والشجاعة ، ومثله ينبغى التجاوز عنه كما تجاوز الله عن داود الذى اغتصب امرأة « أوريا »ولم يكتف بالزنى ! بل اوصى بقتل الزوج المفجوع ، فقتل فى الميدان بحيلة مرسومة !!

ان هذا الدفاع كان مفاجأة للناس لكنه لم يكن مفاجأة للقضاة ، فهم يعرفون القصة فى كتابهم ، ولا أذكر بم حكموا فى هذه القضية ! وانما غاظنى ان نبيا كريما يتهم بالزنى والقتل ، ويراد جعل مسلكه اسوة !

وداود رجل برىء والصحائف التى لوثت سمعته وسمعة غيره من المرسلين هى التى يجب أن تحاكم !! فما اكثر ما بها من افتراء على الله والمرسلين !!

اما الانجيل الذى نؤمن بنزوله على عيسى فانه لا يوقف له على أثر ! والقصة كما يراها أتباعه ان عيسى ومن معه اعتبروا خارجين على القانون ، فقتل الحكم الرومانى عيسى بطلب من الشعب اليهودى وانتهت المأساة !

وقد ألف تلامذة عيسى ـ هكذا قالوا ـ سيرا تضمنت ما يعلمون من عظاته ، وما يقال عن مصرعه !

وسميت هذه السير أناجيل ! وكانت اول الامر تبلغ العشرات ، ولكن تم اختيار اربعة منها هى التى اقرت قصة الصلب واعترفت بألوهية المسيح ..

وقامت للمسيحيــة القائلة بربوبيــة عيسى وصلبه دولــة رومانية فى القرن الرابع لميلاده .

ونحن المسلمين نعتقد أن التثليث لم يجىء به دين ولا نزل به وحى ، وان الأنبياء من عهد آدم الى محمد ، وفيهم عيسى نفسه دعــوا الى الـــه واحد هو ســـيد العالمين وربهم الفرد ، ومـــا عداه عبد مخلوق لـــه ...

والواقع أن القرآن الكريم هو السجل الجامع للعقيدة التى بلغهـــا المرسلون ، وتواصـــوا كابرا عن كابر أخـــذ الناس بها وتنشئتهم عليها .

وقد حصنه القدر من التحريف والتغيير ، فتعدت القداسة الموضوع الى الشكل ، والمعنى الى الحروف فاصبح ضبط الالفاظ نفسها دينا ، وقراءتها عبادة ، وذلك حتى لا يعترى الكتاب الخاتم ما اعترى الكتب من قبل !

كان النبى صلى الله عليه وسلم — وهو رئيس الدولة — يجعل خطب الجمعة تلاوة لسور القرآن ، فى أغلب الاحيان وكذلك كان الخلفاء الراشـــدون ، ومن الطرائف ان عمر خطب بســـورة النحل يوما ، فلما بلغ آية السجدة نزل من المنبر فسجد وســـجد الناس معه ، ثم خطب فى الجمعة التى بعدها بالسورة نفسهـــا دون أن ينزل ويسجد فلما سئل فى ذلك قال : امرنا ان نســـجد اذا نشاء ! يعنى أن سجدة التلاوة ليست فريضة .. !

وهاجم المشركون يوما رسول الله وهو يدعو الى الله الواحد وتدخل ابو بكر يذودهم عنه وهو يقول : « اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » (١) وهـذا بعض آية من سور غافر !

وصلى عمر الفجر بالناس يقرأ سورة يوسف ، فلما بلـغ قوله تعالى على لسان يعقوب « يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (٢) سمع نشيجه بالبكاء .

لقد كان القرآن ، ومـا زال ، شـغل الامـة الشاغل : واهتمامها الدائم ، وهى تسمع نبيها يقول : — خيركم من تعلم القرآن وعلمه — ويقول : لا حسـد الا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل واطراف النهار ، ورجل آتاه الله ما لا وسلطه على هلكته فى الحق

ان الناس يقرءون القرآن الان ، كما نزل به أمين الوحى على خاتم الرسل ، لا تغيير فى حرف ولا فى شكل

ومنذ أربعة عشر قرنا لم يتغـير شىء من هـذه الثلاثة : الشمس هى الشمس والقمر هو القمر والقرآن هو القرآن !!

---

(١) غافر ٢٨

(٢) يوسف ٨٤

٣٩ ـ ما الفارق بين القرآن ، والحديث القدسى ، والحديث النبوى

القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى ، المسجل بين دفتى المصحف الشريف ، وهو المعجزة التى أيد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدى مكذبيه ! وهو منقول بالتواتر ، ومتعبد بتلاوته ، ومعصوم الى آخر الدهر من أى تحريف

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بدل تحديهم بكتاب يخاطب الالباب والافئدة ، وجاء على السنتهم ـ « لو ان قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الارض ، او كلم به الموتى .. » ـ (١) ، لا ، هذا قرآن تسير به الجبال وتقطع به الخرافات ، ويكلم به الاحياء !

وقد وقعت الخوارق التى يطلبون فما آمن منهم أحد لان العناد اعماهم ...

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الاعور قال : مررت فى المسجد فاذا الناس يخوضون فى الاحاديث ، فدخلت على على رضى الله عنه فأخبرته ! فقال : أو قد فعلوها قلت : نعم ، قال : أما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أما انها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ، قال : كتاب الله تعالى ..

---

(١) الرعد ٣١

فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعـــالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره اضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الالسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : ــ « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به » ــ (١) من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم .

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تســبق دراسة الســـنة او بتعبير آخر : لن يكون فقيها فى السنة قصير الباع فى فقه القرآن الكريم ، والكتاب والسنة معا دعائم الدين .

اما الحديث القدسى فهو كلام الله تعالى ولكنه لا يحتوى الخصائص القرآنية ، فليس معجزا فى عبارته ولا وقع به التحدى ثم انه لا يتعبد بتلاوته ، فلا تصح به صلاة .. واخيرا لم يصـــل الينا بطريق التـــواتر القطعى ، فالأحاديث القدســـية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف ، بل قد يكون فيها الموضـــوع كحديث عبدى أطعنى اجعلك ربانيا تقول للشيء كن فيكون ، فانه لا أصل لـــه .. !

---

(١) الجن ١ ، ٢

ويرى البعض أن الحديث القدسى من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عبر فيه الرسول عن مـــراد الله تعالى وكأن لسان الحال يقول كذا ، والجمهور على الراى الاول ، وانه يشبه الوحى النازل فى صحف ابراهيم وموسى أى كلام ألهى غير معجز. ولم نكلف بتلاوة الفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم..!

من نماذج الحديث القدسى الصحيح ما رواه مسلم عن أبى ادريس الخولانى عن ابى ذر رضى الله عنه قال قال رســـول الله فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال :

« يا عبادى ، انى حرمت الظلم عـــلى نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ..

يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهدكم ..

يا عبادى كلكم جائع الا من أطعمته ، فاستطعمونى اطعمكم !

يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم .

يا عبادى ، انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفــر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ..

يا عبادى ، انكم لن تبلغو ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى !

يا عبادى ، لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد منكم ذلك فى ملكى شيئا ..

يا عبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا :

يا عبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد وسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك عندى الا كما ينقص المحيط اذا ادخل فى البحر !

يا عبادى انما هى أعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها،فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ..

ومن نماذج الحديث القدسى الحسن السند ما رواه انس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى :

يا بن آدم ، انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا ابالى !!

يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى !!

يا بن آدم لو اتيتنى بقراب الارض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لاتيتك بقرابها مغفرة !!

فى هذا الحديث جرعة منعشة للارادة التى غلبها اليأس من طول ما انهزمت فى الحرب السجال بين الخير والشر أو بين العصمة والسقوط ، والمراد أن تفيق لتستأنف سيرها الى الله ، وتلزم الصراط المستقيم فالحديث هنا يشبه قوله تعالى « يا عبادى الذين اسرفوا

على انفسهم لا تقنطو من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم واسلموا له » ... (١)
وليس الحديث تهوينا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشيء آخر ، نلفت البصائر اليه ان آفة الكثيرين من العصاة هي عبادة النفس ! أعني انهم يعبدون انفسهم من دون الله ، او يشركون أنفسهم مع الله ، ويقدمون هواهم على دينه .

ومن برىء من هذه الاثرة الغبية ، ووقف أمام الله ، أو لقيه هاضما نفسه ، بادى الفاقة اليه وحده ، فهو أهل لان يحظى بمغفرته .

وذلك فى نظرى السر فى رفض الله سبحانه لاى شيء يعتبر شريكا له ، ان أى شيء يعكر حقيقة التوحيد ، مهما كان أمره ، بشرا أو حجرا أو مالا او جاها هو صدع هائل فى الايمان !!

---

١ ــ الزمر ٥٣

اما الحديث النبوى فهو ما ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو حكم او تقرير ، فان الرسول الكريم امام الامة ، وأسوتها الحسنة ، وله عليها حق الطاعة ، كما بين الله ذلك فى كتابه « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » (١) « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٢)

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ، ويحسب ان القرآن وحده كاف فى هداية الناس دون بيان من صاحبه، ودون تطبيق عملى يوضح مراد الله من عباده وهذا خطأ بالغ ، فان القرآن ليس لقطة عثرنا عليها فى فلاة ، ولا كتابا نظريا يستطيع كل امرىء ان يفسره على هواه ضاربا عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه !!

والحق ان تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل فى تاريخ الانسانية الطويل .

ان محمدا — لو لم يكن رسولا — لكان لنفاسة معدنه ، وطهر سريرته ، ومجادة نفسه ، أهلا لان يسمع نصحه ! فكيف وهو بالرسالة التى اختير لها — قد اتصل بالملأ الاعلى ، واضحى معصوما فى كل ما يصدر عنه « وما ينطق عن الهوى » (٣)

لنه عندما يتكلم يبلغ عن الله ! ويصدر عن فؤاد موصول بنور السموات والارض ، وكما قال الله له : « وكــذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنتتدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم . »(٤)

---

(١) النور ٥٦
(٢) النســاء ٨٠
(٣) النجم ٣
(٤) الشــورى ٥٢

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ، ولا ينظر اليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب اليم !

رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل ، يقول الله له يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك .. !

ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله تعالى : لقد أخذها بكذا وكذا فصدقه واخذها وهو على غير ذلك .. !

ورجل بايع اماما لا يبايعه الا لدنيا ، فان أعطاه منها ما يريد وفى له ! وان لم يعطه لم يف له .. !!

وجمهور المسلمين على أن طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه ، وأن من قرر عصيان رسول الله ، ورفض ما امر به أو نهى عنه . فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ..

والواقع ان من يترك حديثا ما من المرويات التى بلغتنا ، لا يفعل ذلك تمردا على صاحب الرسالة ، وانما شكا منه فى صدق ما نسب اليه ، أو فى المعنى المراد منه .. !

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله ، كلاما جمع بطريق الجزاف أو سجل دون وعى !! لا ، ان جميع الضوابط التى يمكن حشدها لضمان الصدق والدقة قد اتخذها علماء المسلمين .

ثم ان السنة العملية ، وصلت الينا بطريق التواتر ، الذى وصل به القرآن نفسه ، فلا مجال لانكار صلاة أو زكاة من الصلوات المكتوبة ، أو الزكوات المحسوبة ...

٤٠ ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم ؟؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبدا ! وما يبدو حينا من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع ، وذلك مثل حديث « لن يدخل احد الجنة بعمله » وقوله تعالى « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون »(١)

الفهم الصحيح للموضوع كله ، أنه لابد من عمل ينال به المرء رضا ربه ، ويستحق رحمته ، فالجنة ليست للكسالى والاراذل بيد أن العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله ، وانكار الذات ، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل المتقرب به لان عيوبه لا تخفى عليه ، أو لانه دون حقه ، أو لاى سبب آخر . .

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الانف ، ليس فى حسابه الا انه قدم العمل المطلوب للجنة ، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعد ما امتلكها بعمله !! هذا المغرور لا يقبل منه شىء ، ولا مكان له فى الجنة .

أما من جاء خاشعا خفيض الجناح ، شاعرا بالانكسار لانه لم يقدم ما الله أهل له ! فانه يدخل الجنة بعمله !

والدلائل على هذا المعنى كثيرة ، وما يعقلها الا العالمون !

ان السنة بحر متلاطم الامواج ، وما يستطيع فهمها على وجهها ! الا فقيه يدرك ملابسات كل قول ، والمراد الحق منه !

---

(١) النحل ٣٢

كان النبى عليه الصلاة والسلام ظل يكلم الناس ثلاثا وعشرين سنة ، اختلفت فيها الاحوال ، وتباين الافراد وتشعبت القضايا .

ووضع كل حديث بازاء المقصود منه ، أو معرفة النطاق الذى يصح فيه ، هو عمل الفقهاء . وهو عمل لامناص منه والا حرفنا الكلم عن مواضعه !

والمحزن ان ناسا لافقه لهم تكلفوا ما لايحسنون من قراءة للسنة ، وافتاء بها ، فأساءوا ولم يحسنوا ، وهم الان حجر عثرة فى طريق الدعوة الاسلامية !

بعضهم فهم ان الاسلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة الى دين !

وبعضهم فهم أن مستقبل الامة الى ضياع لانه لا يجيىء يوم الا والذى يليه شر منه !

وبعضهم فهم ان الغنى مضاد للتقوى ، وان الفقر اخو اليقين وطريق الاخرة !

وبعضهم فهم أن القدر تحويل قسرى للمرء من طريق النجاة الى طريق الهلاك أو العكس لان العلم الالهى سبق بذلك !!

وسبب هذا الخبط اشتغال الدهماء بالسنة ، دون ان يكون لديهم رصيد من الحكمة القرآنية ! ودون أن يكون لديهم ذوق أدبى بأساليب الادب العربى ، ودون أن يكون لديهم بصر بأغوار النفس الانسانية ، وأحوال المجتمعات البشرية ، ودون دراسة

عميقة للسيرة الشريفة ، وما حفل به ربع قرن من أحداث جسام وشئون وشجون ! ودون تفريق بين ما هو عادى وما هو عبادى .

فالسنة عندهم الاكل على الارض ، لا على مائدة ، وتنظيف الفم بالسواك لا بالفرشاة والاستنجاء بالاحجار لا بالاوراق ، وارخاء ذيل العمامة على الاقفية ، وايثار الابيض من الملابس الفضفاضة ، وضرب النقاب على الوجه حتما ، وذلك بالنسبة الى النساء !

والواقع ان العادات البدوية عدت سنة نبوية ، ولما كان العرب يؤخرون المراة فى المكانة فقد منعت باسم الاسلام من التردد على المساجد ، ومن تلقى العلم فى المدارس ، ومن جهاد الكلمة اى جهاد الامر والنهى ! ومن اى مشاركة فى جهاد عسكرى الخ ...

والعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد . ومنافاتها للكتاب والسنة،ومع ذلك فان الدهماء المتحدثين فى الاسلام يقاومون الحق بعصبية ، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة .

والذى اراه أن السنة ركن الاسلام بعد القرآن الكريم ، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها الا الفقهاء ، ومن يعنيهم الامر من الولاة والقضاة والدعاة ، والاخصائيين فى اى مجال يحتاج الى الالمام بهذه التفاصيل ..

أما رجل الشارع او الشخص العادى ، فان اربعين حديثا تكفيه وتغنيه ...

وعلى اية حال ما يجوز لجاهل بالقرآن ان يحدث الناس او يتصدر للفتوى فى شئونهم !

لقد رأيت أغيلمة تشتغل بالسنة ، انتهى امرها بالهجرة الى اليمن لعلها تبدأ من هناك نهضة اسلامية !! نهضـــة بعيدة عن فقه الحياة والاستمكان من الدنيا ! لعل صالحى الجن ســوف يمدونهم بالمتفجرات فى ميادين الحرب ، أو بالغذاء والكساء والدواء فى ميادين السلام ... والجنون فنون !!

نحن نستمد معاقد الايمان وأركان الاسلام وأعمدة الاخلاق والمعاملات من الكتاب والسنة معا ، والسنة العملية التى وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه ، وعلى ضوء هـــذا نصلى الخمس ، ونحج البيت ، ونعرف الكيفيات لهذه الفروض من السنة العملية ، وهناك احكام كثيرة فى الفروع اجمــع عليها الفقهـــاء ، ولا يخرج عـــلى هـــذا الاجمـــاع مؤمن ، اما ما كان موضع خلاف ، فالامر فيه على الاتساع ، يعتنق اى مسلم مـــا شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج ..

قال الفقهاء : والسنة المشهورة تخصص عموم القرآن فالاولاد مثلا يرثون أباهم بنص الاية « يوصـــيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين.. الخ » (١) وقد جاءت السنة بأن القاتل لا يرث اباه الذى قتله ، كما جاءت السنة بأن الكافر لا يرث اباه المؤمن ..

وقد تقيد السنة نصا جاء فى القرآن الكريم مطلقا فالاية تجعل الام من الرضاع محرمة كالام نفسها ، وكذلك الاخوات قال تعالى « ... وأمهاتكم اللاتى ارضعنكم واخواتكم من الرضـــاعة » (٢)

---

(١) النســاء ١١
(٢) النســاء ٢٣

وجاء فى السنة ان ذلك ليس على اطلاقـــه فلا نحرم رضـــعة ولا رضعتان ، ويرى عدد من الائمة أن اقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم !!

وبقى أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق !

والذى أميل اليه ان الامومة لا تتكون الا من رضاع كثير ، فاذا ورد فى الســـنة ان الحد الادنى لـــذلك خمس رضـــعات ، او عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية !

وقال تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » (١) ، ولكن السنة بينت انه لا يقتص للفرع من الاصل فاذا قتل أب ابنه عوقب بغير القتل ! ، والسبب ان هذا القتل شذوذ عن سنن الاباء الذين قـــد يفتدون أبناءهم بحياتهم ، ويحيون كادحين ليوفروا لهم السعادة !

لابد أن هذا القتل لا تصحبه نية الاجرام ، وانه وقع تحت ضغط جنون طارىء !

ويرى مالك انه لا قصاص الا اذا كشفت التحقيقات ان الاب رجل متوحش مجرد من مشاعر الجنو ، فكر ودبر لغرض خسيس ! ويرى غيره الغاء القصاص مطلقا امضاء للسنة !

وهذا التخصيص او التقييد هو تفسـير ممن تلقى الوحى للمراد الالهى ، ومن أحق من نبى القرآن بتفسيره ! ولا يسمى معارضـــة للقرآن الكريم ، بل هو بيان وتوضيح .

---

(١) البقرة ١٧٩

وتستقل السنة بانشـاء احكـام الى جوار مـا شرع فى القرآن ، وأى ضير فى هذا ! قالوا : مثل المسح على الخفين يدل شريعة الغسـل ! ومثل تحـريم الذهب والحرير عـلى الرجال .. الخ

والتحقيق ان تشريعات السنة كلها داخلة فى نطاق القرآن الكريم ، ودلالاته القريبة والبعيدة وعندى ان المسح على الخفين ليس من انشـاء السـنة بل هو معنى القـراءة الثابتـة « امسحوا برءوسكم وارجلكم الى الكعبين » (١) بكسر اللام عطفا على ما قبلها ، والتعبير مجازى كما يقول علماء البلاغة ، اطلق الحال وأراد المحل !!

اما تحريم الذهب والفضة فسدا لابواب الترف ! واظن ماورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الاذان ، والا فلا مانع من استعمال الجرس للانذار أو فى الساعات المنبهة ، أو فى الهاتف أو فى اعناق الدواب مثلا ..

ولفقهاء الحنفية كلام فى هذا الموضوع أورده هنا لانى ميال اليه : انهم يرون ان الفرض والمحرم لابد فى اثباتها من نص قاطع ، ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على اثبات حرمة أو اثبات فرضية ..

ويعنى هذا أن الاحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الائمة الاخرون !

---

(١) المـائدة ٦

الائمة يقولون : الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه . والمحرم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه . والمندوب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله ، والمباح ما استوى فيه طرفا الفعل والترك.

ويرى فقهاء الحنفية أن ما أمر به حديث آحاد لا يرتفع الى درجة الفرض ، ويسمى لديهم واجبا يؤمر بفعله ويلام على تركه ، وما نهى عنه حديث آحاد لا يرتفع الى درجة المحرم بل يؤمر بتركه ويلام على فعله ، ويأخذ حكم الكراهة التحريمية ، وهم يطلقون هذا الحكم على ما انفردت السنة بحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلا .

لا فريضة عندهم الا بنص قطعى ، ولا تحريم الا بنص قطعى ، ولا تحريم الا بنص قطعى ، وأخبار الآحاد عند الجمهور لا تفيد الا الظن العلمى ، وشذ بعض الحنابلة فروى عن امامه انها تفيد القطع ، وهذا فهم مردود !

٤١ ـ هل الصورة التى رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية ؟ وما معنى الحديث « خلق الله آدم على صورته » ؟؟

ظاهر ان الذى اوحى بهذا السؤال ما كتبه « داروين » عن اصل الانواع ، وما أعلنه من راى فى قضية النشوء والارتقاء .

ومع ان النظرية منقوضة من جوانب كثيرة ، ومع أن هناك من علماء الاحياء من رفضها جملة وتفصيلا،فان اعدادا من الناس لا تزال تروج لها ، بل ان هذه النظرية لاتزال تدرس فى بلادنا وكأنها حقيقة علمية !

والسبب فى ذلك أن سدنه المذاهب وسماسرة الالحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون اقناعنا بأننا من الارض وحدها تخلقنا، وان الروح الذى نسمو به ونسود بقية الاحياء لم يجىء من الله ! فهم لا يعترفون به !! انه ظاهرة ارضية بحتة !

وانا رجل مسلم ، اشعر بأن نسبى السماوى ازكى من نسبى الارضى واحق بالتقديم ، واننى ابن آدم الذى خلقه الله من تراب الارض ، ولو استبقاه على هذا الطور من الايجاد ما كان له شأن يذكر !

ان آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد ان نفخ الله فيه من روحه بهذه النفخة العلوية أضحى كائنا جديرا بأن تسجد له الملائكة وتحيى فى وضعه الجديد الابداع الالهى وحسن التقويم وعبقرية العقل وسناء المواهب !! « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأمسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (١) !

---

(١) الحجر ٢٩

لولا هذه النفخة لكنت نوعا من الانواع التى تحدث «داروين» عنها ، ولكنت من أسرة متفاوتة الافراد من زواحف وسباع ومن طيور وانعام !!

اننى أومن بان الله خلقنى ونفخ فى من روحه ، واذا كان ابى آدم صور من طين مباشرة ، فأنا من سلالته على طول المدى . وقد قال الله فى وفى اخوتى من أبناء آدم « الذى احسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه » (١) .

والنفخة التي سرت فى أوصالى وجعلتنى خلقا آخر تستحق التأمل العميق ، اننى الان واحد من خمسة آلاف مليون بشر هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد ! كلا ، انه كما تختلف بصمات أصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية. ومشاعرنا النفسية

لكل قلب همومه واشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، اى ان النفخة هنا !

فاذا كان ذلك فى عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بدء الخليقة ! وماذا عن أجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الارض ما شاء الله !

ان الله العظيم الذى أشرف على كل جنين ، وتابع اطواره حتى اكتمل وزحم القرون بين أن هذه الحياة الانسانية المذهلة شىء صغير بالنسبة الى ما خلق من عوالم لا ندريها ! اليس القائل :

---

(١) السجدة ٧ ــ ٩ .

« لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (١)

ان الشبه واحد بين اسماع الناس وابصارهم اى بين مظاهر الحياة الانسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقى يقول
يا نفس مثل الشمس انت أشعة في عامر ، واشعة فى بلقع !
فاذا طوى الله النهار تراجعت شتى الاشعة والتقت فى المرجع !

ان الغروب الذى يطوى الاشعة فى رأى العين فيبدأ الليل ، كالموت الذى يسترد السر الالهى فتنتهى الحياة .

لكن الشمس تغرب من ناحية لتطلع فى اخرى ، والنفس تموت بيننا ، أو تخفى بيننا لتستأنف وجودها فى عالم آخر !

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشير الى هذا المعنى عندما يقول فى كل صباح « أصبحنا واصبح الملك والحمد لله لا شريك له لا اله الا هو واليه النشور » وعندما يقول فى كل مساء « امسينا وامسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا اله الا هو واليه المصير »

ومع البعث تبدأ الخصائص الالهية فى كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها ، ولكل امرىء حسابه على قدر ما أعطى من مواهب وامكانات « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » (٢) « فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى » (٣) .

وعلى اية حال فانى قد أدرى ان جسمى يتكون من تراب هذه الارض ، لكنى لن أصدق ابدا ان الحب والبغض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبتت مع العشب والكلأ ، وجاءتنى من تراب هذه الارض !

---

(١) غافر ٥٧
(٢) الطلاق ٧
(٣) النجم ٣٢

ثم شيء آخـــر يجعلني أحس بأبي آدم ، وبأنه حقيقـــه لا يبليها تطاول العصور . ذاك هو وحدة الشعور والفكر بيني وبينه ، ان الله أسكنه دارا حسنة وسط حديقة يانعة ، فيها مـــا يغني ويكفي وقال لـــه : « اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهـــا رغدا حيث شئتما . . . ولا تقربا هذه الشجرة » (١) بيد ان الانسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافها ، يريد الحصول على الممنوع وان كان مؤذيا ! في الحلال الطيب سعة او في دائرة المباح متنع ! لكن آدم أبى الا الجري وراء الوهم . . .

وكانت لـــه آمال باطلة يود لو تحققت ، انه يحب الخلود . ويحب أن يكون ملاكا !! يا ابانا ما تبغي ! ان الله اسجد لك ملائكته فكيـــف تنزل دون مكانتك ! وجمل الى مشيئتك البقـــاء في الجنة والتقلب في رياضها فماذا تخاف !

وعرف الشيطان مكان الضعف من نفس ابينا الطامع ! فحلف لـــه بالله أن أمانيه سوف تتحقق ان هو اكل من الشجرة المحرمة .. وكان صوت النهي قد بدأ يخفت ، ومضى زمن عـــلى الحظر المفروض كانت الاماني الباطلة خلاله لا تزال على شدتها ، ولم ييأس الشيطان من مهمته فظل يوسوس ، ويغرر بالاب الذاهل حتى دحرجه من مكانته ، واخرجه من جنته تذكرت قول المتنبي

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبي مـــاله .. مدى ينتهي بي في مراد أحده
بخير ان يكسي شـــغوفا تربه فيختـــار أن يكسي دروعا تهده

لقد مضى المتنبي مع طمعه في الامارة والجاه ، واثار الغبار وراء ركضه ! مدح وهجا ، وخاصم وسالم . واشتبك مع الافيال

---

(١) البقرة : ٣٥

والانذال ، وفى ليلة ليلاء لقى مصرعه على أيدى جماعة من الموتورين تمرغت الحكمة والشعر فى الثرى ! وأجهز الموت على تطلعات الرجل الذى لم يرضه شيء !

اننا أبناء أبينا غفر الله لـــه ، ما اشبهنا به وما اشبهه بنا !
لكن أغلى وأعلى ، ما فى قصته لم يذكر بعد ! لقــد تذكر الناسي ، أو صحا الذاهل ، وعرف آدم أنه ضل الطريق ، واضاع قواه وراء وهم ، واغضب ولى نعمته ! فوقف مع امراته يجأران بهذا الدعاء : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (١) .

وهبطا الى الارض ، وأرسل الله سبحانه من يتلو علينا خبرهما لنتعظ ! ان قصــة الانســانية فى حياة آدم هى قصــة الانسانية فى حياة نبيه ، خطيئة ومتاب ... فما هى قصة الانسانية عند الملاحدة ! جراثيم وجدت من غير موجد ، ظلت تتعارك ليبقى الاقوى ، وظل الاقوياء يتعاركون حتى استطاع الانسان الغلب على غيره من الدواب وان يسودها ، فبلغ الانسان بجدارة قمــة المملكــة الحيوانية ! وأمسى سـيدا للفيلة والحمـير والارانب والضباع .. !! لقد ساد اخوانه فى سباق شريف !

ان القصة بهذا السياق أكذوبة حقيرة ..

ومع أن « داروين » يقال : أنه لا ينكر الالوهية ! فــان كلامه مضطرب متهافت ، وهو منته آخر الامر الى قطع الصلة بين الانســان ، ورب الارض والسماء ..

أما حديث أن الله خلق آدم على صورته فقــد قبله اغلب المحدثين وفسروا الصورة بالصفة ! يعنون أن الله لمــا نفخ من

---

(١) الاعـــراف ٢٣

روحه فى الكيان المادى لادم اصبح آدم بهذه النفخة حيا ، قادرا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما .. الخ

وظاهر من تكوين آدم أن العقل الذى اضاء فى دماغه علمه الكثير مما يعمر الكون ، وبصره بما تعجز الملائكة عن ادراكه « وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا»(١)

وقد انطلق بنو آدم فى الارض بمواهبهم العليا وغرائزهم الدنيا ، وتعرضوا لامتحانات هائلة ولا يزالون فى ضوضاء المعركة وبأسائها ، الى يوم الفصل !!

ومن العلماء من يقول : خلق آدم على صورته ، اى صورة آدم نفسها فلم يعرض لها تغيير عن الاصل ، ولن يعرض فى المستقبل ، اى لا تطور !

ورأيت لبعض الكتاب طعنا فى الحديث ! يقول : ان أبا هريرة نقل هذه الجملة عن كعب الاحبار ، وهو يهودى الاصل ، والجملة موجودة فى سفر التكوين اول اسفار التوراة ، فانخدع بها ابو هريرة ورواها حديثا !

والذى أراه أن وجود الجملة فى التوراة لا يعنى انها موضع ريبة ، وأن المعنى الصحيح لها قائم ومقبول ، وليس للاتهام دليل ...

---

(١) البقرة ٣١ ، ٣٢ .

٤٢ ـ هل يؤخذ القرآن بنصه ، ام على اساس الظروف التى نزلت فيها آياته ؟؟

يندر ان يكون المرء شريرا من جميع نواحيه ، أندر من ذلك ان يكون ـ مع غلبة الشر عليه ـ شريرا فى جميع الاوقات

السمة الغالبة أن يخلط الانسان عملا صالحا وآخر سيئا ، وان تمر به فترات صحو تبدد غيومه بين الحين والحين .

والمخوف من الانسان الذى يصحو، ويغيم ، ويكبو ويقوم ، ان يفلسف انحرافه الذى يعروه ليجعله مسلكا عاديا اوامر لا يجوز التنديد به والتوبيخ عليه ، وان جاز لضرورة فلتكن الكلمات خفيفة الوقع ، وتوطئه للعتبى !

استمعت الى اللص البدوي الذى يسوغ سرقته قائلا
ولا اسأل الجبس اللئيم بعيره وبعران ربي فى البلاد كثير !

وقلت : هذا رجل يكره ان يقبل البعير صدقة ، ويكره ان يأخذه عارية ، لانه يكره اعطية اللئام ، لماذا تكون يده السفلى ! فليذهب الى الصحراء أو الى البيوت وليسرق اى بعير ! ولا جميل لاحد ! !

ان السرقة فى منطقة استجابة لرغبة نفسية طبيعية !

قلت : لو حمل هذا الرجل اجازة علمية فى القانون ، فلن يعاقب سارقا ولو حدث عن حد السرقة لارعد وأزبد وهاج وماج وقال : لا عود الى الوراء ، لا نريد وحشية !

ولو أن انسانا عاش فى بيئة اعتادت السطو على الاعراض أو تسلل اليها الشذوذ ، فأصاب وأصيب منه واعتدى واعتدى عليه ، فانه سينظر الى الحياة من خلال جوانبها الاخرى التى لم يتدنس فيها ، ويحاول تضخيمها والتعويل عليها وحدها ، والنظر الى المباذل التى تلوثه على انها هنات ينبغى التجاوز عنها وعدم الوقوف عندها ..

وهذا ومثله لو ملكوا سلطة التشريع لجعلوا العلاقات الجنسية كلا مباحا ، فى حدود التراضى طبعا ، كما هو الشأن فى القوانين الاوربية !

اننى أفهم أن يقع الخطأ ، لكنى لا افهم ان يتحول الى قانون !

وقد يستكبر انسان ! لكن ما معنى أن يعتذر عن ابليس ! ويفلسف تطاوله على الله تبارك وتعالى !

وقد ينزلق امرؤ فى الوحل ! المفروض أن ينهض ويصلح شأنه ويغسل درنه ! أما أن يتغزل فى الطين ، ويرمى به وجوه السائرين فهذه دناءة غليظة !

يؤسفنى ان ناسا كثيرين بدل أن يصلحوا أنفسهم يريدون افساد القانون ، وذلك هو السر وراء المحاولات المجنونة لتعطيل الشرائع السماوية ، وهى محاولات نجحت بين أهل الكتاب الذين سبقونا ، فأمسى الوحى حبرا على ورق .

ويراد فى كبوة الاســلام المعـاصر ان يفعل المسلمون مثل ما يفعل غيرهم فتوضع شرائع الاسلام على الرف أو يحكم على بعضها بالاعدام تمهيداً لانفاذ الحكم فيها كلها .

والامر لا يحتاج الى الحيلة ، فلنقل : اننا نتجاوز النص الى روح النص ، أو لنقل ان الظروف التى نزل فيها النص قد طرأ عليها تغيير ، فليتغير النص تبعا لذلك !!

ما أسهل تطويق الاسلام بهذه الطريقة ! وجعله اسما لا حقيقة له ، أو جعله شكلا لا موضوع له !

وقد بدأ سماسرة الاستعمار تنفيذ الخطة ، فسمعنا من يقول : ان الضرائب تغنى عن الزكاة ! ومن يقول : ان الصلاة والصيام يعطلان الانتاج ، فلا حرج من التنازل عنهما ! ومن يقول :انمـا حرم لحم الخنزير لقذارة مراعيه قديما وقد زالت الآن هذه العلة ! ومن يقول : ان العربدة فى الطريق هى سر تحريم الخمر ، فمن يتناول منها قليلاً فى بيته فلا حرج .. الخ

وهكذا ، تنهد اركان الدين وتضيع معالم الحلال والحـرام باسم « روح النص » « وتغير الظروف » ويمنع انتفـاع الناس بالاسلام ، بل يمنع دخولها فيه ! وينفسح المجال بعد ذلك للالحاد ، أو للاديان الخرافية !!

ومعروف أن تعطيل شرائع الحدود والقصاص ، كان تمهيدا للقضاء على العبـادات والعقـائد والتـاريخ والتراث والادب واللغة ، وسائر مقومات الامة ..!

ونحن اذ نوصد الباب فى وجه الاستعمار الثقافى نفتح الباب على مصراعيه أمام أولى الالباب ، ليحسنوا فقه الاسلام وعرضه، ونذكر بدءا أننا لسنا من المتعصبين للفقه الظاهرى، بل على العكس نحن مع الجمهور على أن القياس من أدلة الشريعة ، ومع اغلب الفقهاء فى رعاية المصلحة المرسلة ، واحترام جملة القواعد التى تحكم الفكر التشريعى عندنا ..

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل القدر ، وهو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق أدل على خصائصنا من الفلسفة الاسلامية ..

لكن علم الاصول مجمد فى كتبه ، والمسيرة فى القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه ! والعالم الاسلامى تحكمه بعض الآراء الاجتهادية التى لقيت حظوة عند فريق من الناس ، ثم قامت عليها تقاليد راسخة ، ثم اعتبرت هذه التقاليد هى الاسلام بعينه، واعتبر تركها خروجا على الدين ، وربما وصف تاركوها بالارتداد !!

اذا كان ذلك ما دعا الى الكلام عن النص وروح النص - والظروف وتغاير الظروف ، فللموضوع وجه آخر ، وان لم يحسن أصحابه الكلام فيه ، أو تصوير شكاتهم كما يجب !

أعرف مجتمعات حبست فيها الوف الفتيات لأن الكفء لم يتقدم ! من الكفء المرتقب ؟ أستاذ فى العلوم ؟ محام قدير ! أديب رائع ؟ تاجر ناجح ؟ شاب تزينه التقوى وخدمة المثل ؟ لا ، لا كفاءة وراء هذه الخلال كلها ! المهم النسب الفارع ، والمكانة المدعومة بالمال الكثير !.

وقضية الكفاءة يسندها فقه معين ! ، لكن هناك فقهـــا اسلاميا آخر يقول ان الزنجي المسلم كفء لبنت الخليفة الهاشمى لا ، هذ فقه مهمل ! لمــاذا لا يكون الاهمال نصيب الاجتهــاد الأول ؟ هذا ما حدث !

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشريعة — يزدرى بسبب هذا الذى حدث ؟؟

انه لا شكاة من نص معين ، لا شــكاة من أمر أو نهى عن محــرم ، الشكاة من فهم ضيق لأحــد النصــوص أو من واجب لم يرد به أمر ، او من تحريم لا يسنده نهى !!

وعلاج هذا الخلل ميسور ، بل هو عمل المجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين ..

قال لى أحد الناس : ان اعطــاء الأنثى نصف نصيب الذكر موضع ضيق من المثقفين فى الغــرب ! وهم يرون المســاواة بين الجنسين ، واهمال هذا النص !

قلت : ان هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعــل نفقة الفتاة مسئولية الاسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغــرب بين الذكر والأنثى فى طلب الرزق ، وخــرجت الفتـــاة للكدح من سن السادسة عشرة ، فماذا حدث ؟

ان الغربيين يجب أن يخجلوا من الادران الجنسية التى تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، والزعم بأن الجنسين سواء فى الغنم والغرم ...

وانا لا زال حائرا فى تعليل هـذا الرضا العام ، بانتهاك الاعراض ، واشباع الرغبات ، وتقديم الاجسـاد فى المراقص والحدائق ! .

وعلى اية حال ، الرجل ملزم بالانفاق على زوجته ان كان زوجا ، وعلى ابنته ان كان ابا ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كى تعيش ، فانها ستفقد نفسها فى مآزق كثيرة !

ولها يقينا أن تعمل وتكسب فى أوضاع متخيرة مضبوطة ! لها وليس عليها ! ومع ذلك فما ناله الرجل من زيادة فى ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجنى الغرب نتائج فسوقه ! ولولا أن اتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدر لقيادة الانسانية ، لما بقى الغرب فى مكانته تلك ، مع بغيه وبغائه !! انه باق لعدم وجـود البديل وحسب !

القرآن الكريم قد أحكم الله آياته ، ويسر فهمها وذكراها ، وما تشابه من آيات القـرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية . والمسالك الفردية والاجتماعية .. !

وليست هناك آية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيـذ . او تعطيل عملها ، تصريحا او تلميحا .

واذا كنا نعيب على بعض الماجنين تبرمهم بأحكام الحـدود والقصاص،فهناك عيب اشد على نفر من المنتمين الى الدين،انهم اطاعوا ما استسهلوا ، وتركوا ما استوعروا .

انهم صلوا لأن الصـــلاة عمل لا يجـــر وراءه المتاعب ...
أما قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شـــــهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعـــدلوا ... (١) » فأمر فوق طاقة الجبناء الحراص على منافعهم ومناصبهم هنـــا يمكن اللجوء الى تأويل النصوص وتغاير الظروف ، وجعل العجـــــز عقلا والجبن حكمة ...!

والبعد عن الصراط المستقيم يستوى أن يكون الانحـــراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار ..

---

(١) المـــائدة ٨

٤٣ ـ ما حاجة الانسان الى الايمان باليوم الآخر ؟ وما اثر انكاره على السلوك الانسانى ؟

اذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يأمن أحد ! فان توارث الذهول عنها امات الشعر بها ، حتى قال الحسن البصرى عن الموت ـ وهو اول مراحلها ـ ما رايت حقا اشبه بباطل من الموت ..!

وكل حقيقة يجب أن نعترف بها خصوصا عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطىء عميقا ، ثم تترك غرا لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فانك قاتله !!

قد نستغنى عن بعض الحقائق وان كان الجهل بها عيبا . ما دامت لا تمسنا ، اما اذا ارتبط كياننا المادى والأدبى بشىء ثم غفلنا عنه فهنا الطامة ..!!

اننى أتخيل فجيعة الجاحد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الحواس امام غيب تحول الى شهادة ! امام امر كان يهزأ منه فاذا هو جدار يصدع دماغه ! لقد وقف وجها لوجه أمام ما كان ينكره بقوة « وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيىء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى (١) » .

ليت ! وهل ينفع شيئا ليت ؟ انه اضاع ماضيه فى الحياة الاولى سدى ، وها هو ذا يحصد ما زرع ! ما فكر قط فى هذا اليوم ولا أعد له عدة ، ومع التأوه والندامة يقول : ياليتنى قدمت لحياتى ، وهيهات ..

---

(١) الفجر ٢٤

وهناك شخص آخر ، كان فى دنيا الناس يذكر الله ويغالب النسيان ، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشــه منطلقــا الى المسجد ، يغمض عينيه عن المفاتن المبــذولة ، يستعف عن المحرمات وان كثرت حولها المغريات .

انه — يوم الحساب — يتلقى نبــأ نجاحه فيصيح جذلان . مسمعا كل انسـان « هاؤم اقرءوا كتابيه . انى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية (١) ... » .

انها فرصة العمر ، بل فرصة الخلود ! شتان بين مصــير ومصير !

واثر الايمـــــان باليوم الآخــر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية ، انه يتحمل العنت حينا ليظفر بالراحة بعــد حين ! كما قيل لأعرابى : تصوم فى هذا اليوم الحار ؟ قال : اصومه ليوم احر منه !

وتعليل النفس بالآمال عون على الرضا بالمتاعب ، وحبسها على ما تكره لتنال ما تحب ! وكما قال الشاعر :

منى ان تكن حقــا تكن أسعد المنى
والا فقد عشــنا بها زمنا رغــــدا !

وهذا الاستثناء بالنسبة الى الآخــرة مرفوض ، فان الدار الآخرة احق واثبت من الدار الأولى ، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ومن هنا صح وصفها بما يدل على زيادة الحس فى قوله تعالى : وان الدار الآخرة لهى الحيــوان

---

(١) الحاقة ١٩ — ٢٤

لو كانوا يعلمون (١) » . والحيوان كالفيضان مصدر يدل على سعة المعنى ..

وقد كثرت فى القرآن الكريم المواطن التى تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك فى هذه الدنيا أو تزكيته وترقيته ، فعندما ضاقت زوجات النبى صلى الله عليه وسلم بمعيشته الخشنة قيل لهن : الأمر على غير ما الفتن قديما ، لقد جئتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع الى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

انه بيت الكفاح والخشونة ! بيت التلاوة والتهجد ! لابد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين ، ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الاسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا الى الآخرة وسعى لها سعيها فليبق موطنا نفســه على حيــاة ناشفة ! « يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتهـا فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحا جميــلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعــد للمحسنات منكن أجــرا عظيما ... (٢) » .

وجمهور النــاس قــد يحس غصه وهــو يرى المرتشين والمفسدين أو الملحدين المجرمين يمرحون فى طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وامارة القوة ..

---

(١) العنكبوت ٦٤

(٢) الأحــزاب ٢٨ ، ٢٩

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يمحو ذلك محوا عندما يقول « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ! متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها : نزلا من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار ... (١) » .

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر فى القرآن كثيرا ليحارب ظاهرة مؤذية تسود الامة العربية والاسلامية من زمان غير قريب حكام الجور الذين يتهافت حولهم الاتباع ليؤازروهم على ظلمهم . ويشاركوهم فى منافعهم الحرام .

ان التبعة فى الفساد والافساد مقسمة على الفريقين قسمة عادلة لان هؤلاء يوحون وأولئك ينفذون ، الرءوس والأذناب شركاء فى اقتراف الجرائم ، وفتنة المستضعفين واثارة الفتن . ومن هنا جمعهم مصير وحد .

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير ، ويذكر ما يقع فيه من حوار ! « هذا وان للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا ، فليذوقوه ، حميم وغساق . وآخر من شكله ازواج . هذا فوج مقتحم معكم ... لا مرحبا بهم ! . انهم صالو النار. قالوا بل انتم لا مرحبا بكم ! انتم قدمتموه لنا فبئس القرار ! قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار (٢) » ان الكبراء عندما يرون الأذناب يلحقون بهم فى دار الجحيم تسوءهم اللقيا ، ويصيحون مستنكرين مرآهم ! لطالما هشوا لهم فى الدنيا وسارعوا الى لقائهم ، أما اليوم فان الفريقين يتبادلان السخط ، والتشاؤم وعدم الترحيب ..!!

---

(١) آل عمران ١٩٦ — ١٩٨

(٢) ص ٥٥ — ٦١

ويتذكر الفريقان انهم كانوا يتفقون على اهانة المؤمنين ، ونعتهم بأقبح النعوت ، ويتظاهرون على اضطهادهم وآذاهم ! ، أين هم الآن ؟ ..

وقالوا : ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار؟ اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ؟ ان ذلك لحق تخاصم اهل النار » (١) .

تسجيل هذا المنظر الذى سيقع حتما ، والتعجيل بعرضه الآن ، فيه طمأنة لجمهور المؤمنين الذى أرهقه الاستضعاف والاستهزاء ! أما الكافرون فانهم لا يعونه ولا يصدقونه !

ومنظر آخر جديد بالتأمل ، يقوم بعض أهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون فيها مصاير من كانوا يعرفونهم قديما من اهل الضلال والكفران ! « قال قائل منهم : انى كان لى قرين ، يقول : **انك** لمن المصدقين ؟ أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمدينون (٢) » ؟

هذا القرين يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات ، ويتبعون الترهات ، فهو يقول لصاحبه : أتصدق اننا بعد فنائنا نبعث ونجرى ؟

ويشرف الرجل المؤمن على قرينه القديم ليراه وسط أهوال « قال : هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ! قال : تالله أن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين (٣) » !

---

(١) ص ٦٢ — ٦٤

(٢) الصافات ٥١ ، ٥٣

(٣) الصافات ٥٤ — ٥٧

وعبارة ان كدت لتردين ، تشعر المؤمنين فى يوم الناس هذا بضرورة الثبات على الحق ، لأن التهوين فيـه طريق السقوط والضياع ، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل الله عليهم ، اذ شرح صدورهم لهذا الحق واستدامهم لهذا الحق واستدامهم عليـه !

وفى دنيانا الحاضرة ، ينفـر المنافقـون من أهل الاخلاص واليقين ، ويهجـرون مجـالسهم ، ويبعدون عنهم اذا جمعتهم المصـادفات فى طريق ، ذلك لأن قلوبهم مع الكفر وأحزابه . ما يأنسون الا بهم ... بيد أن الحال تتغير تغيرا عميقا فى الدار الآخرة « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظـرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمـة وظاهره من قبـله العذاب (١) » !

ان القرآن الكريم يربى الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرره ، ويعالج عللهم بما يسوق من صوره !

انه يذكره لاصلاح الدنيا لا لهدمها ، ولتعليق الهمم بالأبقى والأجدى لا بالسراب الخادع ..

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الأرض ومغاربها ، فما يعرفون الا هذا التراب ، وما يعولون الا على أيامهم فوقه وما يرمقون السماء بنظـرة رجاء ، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان ...

---

(١) الحديد ١٣

مررت يوما بأحد شـــوارع القاهرة ، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها ، وتجاوزت صاحبها الحزين على ضـــحيته ، ونظرت الى الدابة الميتـــة عنـــد اقدامه وقلت فى نفسى : انتهى امرها ، ان كثيرا من القـــادة والساسة لا يرقون بحيـــاتهم فوق هذا المستوى الحيوانى ، يظنون امرهم انتهى عندما ينفقـــون كهذه الدابة ، الا ما احقر الكفر ، واســـوأ تصوره للوجود !

٤٤ — ما اثر الايمان على الأخلاق والسلوك والضمير ، على ضوء ما يحدث فى الدول المتقدمة التى تاخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط ؟؟

لا نستطيع انكار المدى الكبير الذى بلغته الحضارة الحديثة فى اكتشاف أسرار الكون ! انها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة ، وقد طوعت ما بلغته الى تقدم صناعى باهر طفر بالانسانية طفرة رحيبة ورهيبة ، فى جميع المجالات المدنية والعسكرية ...

ولكن هناك احساسا عاما بأن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقدم روحى وأن انسان العصر الحديث لا يختلف كثيرا عن انسان العصر الاول فى غرائزه وشهواته !

واذا كانت ثمة فروق ففى الوسائل لا فى البواعث والغايات ، بل لقد قيل فى انسان العصر الحاضر : ان عضلاته أكبر من عقله .

والواقع أن الانسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق ، وطالما رددنا أن الاسلام عقل يرفض الخرافة ، وقلب يكره الرذيلة !

أن الكمال الحقيقى امتداد ونضج فى جميع الملكات الانسانية ، وهذا التوازن أساس لابد منه لقيام مجتمع رشيد . وحضارة يانعة الثمار ، مديدة الظلال ، فهل الحضارة الحديثة — بعد تلك المقررات — جديرة بالخلود ؟ أو هى ارجح من غيرها فى موازنة منصفة ؟ الحق ، لا ..!

فالرجل الابيض ، قائد هذه الحضارة ورائدها ، انســان طافح الانانية ، يشده الى منافعه ألف رباط ، وقبل ان نشــرح شرهه المســعور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر احــد مظاهر الحضارة الاسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الاسلام للاعاجم ، ونقلوهم به من الظلمة الى النور ، وبعد ردح من الزمان كان هؤلاء يصــلون وراء الأتقياء من شتى الأجناس ، ويتلقون عنهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء ..

فالبخارى هو المحدث الأول وأبو حنيفة الفقيــه الأول . والحسن البصرى المربى الأول وسيبويه اللغوى الاول ... الخ ولم يشعر المصريون بأى ضيق من أن يقودهم « قطز » فى معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج فى أن يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين فى حطين .

ان الاســلام محا النعرات الجنسية فى أغلب الميــادين ، وربط الناس بمثلهم العالية وحدها !

أما الجنس الابيض ، وطلائعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يعبدون أنفســهم ، ويقدســون مصالحهم ولا تحكمهم الا شرعة الغاب !

اكتشف الانكليز اســتراليا فماذا فعلوا بسكانها ؟ شرعوا يطاردونهم من مكان الى آخر حتى حصدوا جمهرتهم ، واخبرنى صديق قادم من استراليا ان البيض ييسرون اردأ الخمور لهؤلاء السكان الاصليين حتى يقضوا عليهم القضــاء الاخير ، وتبقى استراليا للمغيرين المسلحين بالتقدم العلمى والصناعى ، المجردين من كل رحمة وايثار ... !

اكان سكان أمركا الاصليون أسعد حظا من استراليا ؟ .
لقد تتبعتهم حرب الابادة من بلد الى بلد ، وكان المكتشف الذى يسيل ريقه للذهب ينظر ، فاذا وجد هنديا أحمر على رأســــه تاج من ذهب ، قطع الراس ، وعاد بالتاج ..!

قد يقال : كان ذلك فى الايام الاولى لاكتشاف العالم الجديد وقد ارتقت اليوم البشرية ، وضاقت بما كان يفعله المستعمرون الاولون ، واستنكرته !

ونجيب أن الاستهانة بالأجناس الاخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الابيض ؛ وعندما أعوزه الانتصـــار السريع ضـــد اليابان ألقى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكى فقتـــل نصف مليون انسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب ، ولا ريب ان عشر هؤلاء الهلكى فقط هـــو الذى كان يمكن ان يجنـــد فى الحرب ..!!

المأساة أن هؤلاء « المتحضرين » ارتقـــوا علميا وهبطوا خلقيا ، وأنهم عبيـــد لذاتهم العـــاجلة ، وان الفـــكرة عن يوم الدينونة غامضـــة أو معـــدومة لديهم ، انهم لم يسمعوا يوما من يقول لهم : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمـــل الظالمون ، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وانذر النـــاس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخـــرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ... (١) » .

ان الانسان يتحول الى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر ، لاسيما اذا كان هو واضع القانون ومطبقه ! ان القانون

---

(١) ابراهيم : ٤٢ — ٤٤

يومئذ يحرس الأقوياء ويجتاح الضعفاء ، وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطينى ويمحى وجوده فوق أرضه ، ويجاء بألوف مؤلفة من اليهود لتحيا فوق أنقاضه ، والقانون الدولى مكمم الفم لأن ملاك القوة يريدون ذلك ، وأجهزة الدعاية قديرة على ابطال الحق واحقاق الباطل ..!

ان الغرائز المهتاجة ، والعادات السيئة ، والموروثات الرديئة ، تهزم الحق فى دنيا الناس ، وقد نظرت الى جموع المستشرقين — وهم قوم ذوو ثقافة واسعة — لفتهم ضغائن غبية ضد « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فأذاعوا عنه أنه كبنى جنسه محب للنساء ...

ان هؤلاء المستشرقين قرءوا فى العهد القديم ان سليمان جمع فى عصمته ألفا من النساء ، سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الاماء ، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده ؟ لا ! نصف العشر ؟ لا ! ربع العشر ؟ لا !

ومع ذلك فسليمان نبى حكيم ، ومحمد دون ذلك !!

ونشيد الانشاد الذى لسليمان تسمع فيه صيحات الباحث عن الحبيب المجهول أو المعلوم ، اما قرآن محمد فليس فى طوله وعرضه الا جؤار يدفع البشر الى ربهم ، ويذكر بيوم لقائه ، ! ومع ذلك فمحمد لا يوحى اليه ، والأشواق وراء الحبيب المنشود هى الوحى المعصوم ! ما قيمة العلم اذا لم يكن معه انصاف ولا عدالة ؟ اننى أمقت الذكاء الخبيث ، والثقافة المسفة . وعندى ان امرأة حصانا غافلة أشرف من مومس عبقرية ، وان رجلا ساذجا يعرف ربه أشرف من خبير فى الذرة يعبد نفسه !!

وقد افهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روى عنه : « النار أسرع الى فسقة القراء منها الى عبدة الاصنام ! فيقولون : يبدأ بنا قبل عبدة الوثن ؟ فيقال لهم : ليس من يعلم كمن يجهل » (١)

والحضارة الغربية ، كما قلنا آنفا ، اتسع علمها وضاق أدبها ، او طالت ثقافتها وقصرت تربيتها ، فهى الآن تصنع اجيالا لا تعرف الا الحياة ليومها فوق هذا التراب ، وتؤمن أنها لن تحيا مرة أخرى ابدا ، ومن هنا غلب عليها هذا السعار فى اقتناص الموجود ، الركض وراء المفقود ، والحقد على من وجد ، والازدراء على من فقد !

انها لا تؤمن بالله واليوم الآخر ! ورجال الدين مشغولون بسخائمهم القديمة ! ان كانوا هودا فهمهم الاكبر امتلاك أرض الميعاد كما يحلمون ، وان كانوا نصارى فهمهم الاكبر استعادة قبر المسيح والثار ممن اخذوه فى العصور الوسطى ..

وما يدور فى ذهنهم تعاون عام لابقاء الارض موصولة بالسماء ؛ فهل هذا تقدم علمى أم نجاح للغرائز الهابطة والاغراض الدنيا ...

على أن القرون الاولى لم تخل من علم اثارت به الارض ، وزينت به الحياة ! والمنكور هو انعدام التوازن فى أية حضارة بين جوانبها المادية والادبية ، لقد بنى المصريون الاهرام ، والبناء فى ذاته ليس عيبا ، وانما العيب أن تهلك اسرة فى سبيل بناء مقبرة الملك ! وبنت عاد قصورا شامخة ، وابراجا عالية ، فاذا اصطدم برغبتها أحد سحقته ، واغراها جبروتها بحرب

---

(١) الحديث رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال : هو على غرابته له شاهد من الصحيح .

الابادة ، فكان من قصص القـــرآن عنهم « ... أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصـــــانع لعلكم تخلدون ؟ واذا بطشتم بطشتم جبارين ! فاتقوا الله وأطيعون » (١) .

ورفض هؤلاء وأولئك تقوى الله ، وسماع الناصح الأمين فماذا كانت العقبى ؟ « الم تر كيف فعـــل ربك بعـــاد ، ارم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعـــون ذى الأوتاد . الذين طغـــوا فى البلاد فأكثروا فيها الفســـاد . فصب عليهم ربك ســـوط عـــذاب . ان ربك لبالمرصاد » (٢) .

ان هذه المدنيات البائدة قامت على علم له بحاجات الناس يومئذ وفاء ، ولقد اغتروا بهذا العـــــلم وحسبوا أنهم يسبق بهم ولو اثقلهم الهوى . وهيهات ، « فلما جاءتهم رسلهم بالبينـــــات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا يستهزئون .. (٣) » .

ان العلم مهما تقدم لا يغنى عن الايمـــان ، والايمان الذى نحترمه هو الذى يعانق العقل وتزدان به الحياة .

---

(١) الشـــعراء : ١٢٨ ــ ١٣١
(٢) الفجـــر ٦ ــ ١٤
(٣) غافـــر ٨٣

٤٥ ـ لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها اربعة ، وما ضرورتها ؟

ائمة الفقه الاسلامى المشهورون اربعة ، وقد كانوا قديمــا ضعف ذلك مرة أو مرتين ، بيد ان الذين رسخت مكانتهم وخــلد ذكرهم اولئك الاربعــة الكبار ، أبو حنيفــة ومالك والشافعى وابن حنبل !

اكان ذلك لمصادفات عارضة ؟ ام تم وفق سنة البقــاء الاصلح ؟ لا تعنينى الاجابة ! وانما يعنينى القــول بأن أولئــك الرجال الاربعة كانوا قمما فى التقوى والمعرفة ، والنصح للأمة . واقصاء مشاعر الرغبة والرهبة مع كل حاكم مهما امتدت دولتــه وعظمت سلطته ..

والخلاف الفقهى اول أمره كان علامة صحة ، ولا ضير من بقائه الى آخر الدهر ما دام لا يعدو حدوده ! وحدوده هى دائرة الاعمال الفرعية .

أما اركان الدين ومعالم الايمان ، ودعائم الاخلاق ، ومعاقد الشريعة ، فهى موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم ...

والذى ضخم الخلاف الفقهى ، وشغل الناس به على نحو مستهجن امران :

أولهما : جهل الغوغاء ، وفرح الواحد منهم بحكم عرفه . ومغالاته به كما يقول الناس فى مصر « الكعكة فى يد اليتيم عجب » ، ولذلك ترى هؤلاء يقدمون فقه المضمضة والاستنشاق على رعاية العهــود والأمانات ! وهذا ضلال مبين .

والأمر الثانى : طول اجل الفساد السياسى فى تاريخنا . فقد اخرس الالسنة عن الكلام فى الفقه الادارى والدستورى والدولى ، وضمانات الشورى والمال العام ، وأغرى اهل البطالة بالثرثرة المملة فيما وراء ذلك حتى جعل جماهير تهتاج لقضية « وضع اليدين » فى أثناء الصلاة ولا تتحرك بقوة لضرب الاستعمار المغير ، ومحو الاسباب التى جلبته ..

ولو تعاون المسلمون على تنفيذ ما اتفقوا عليه — وهو لب الدين وجمهرة تعاليمه — لكان الخلاف فيما وراءه شيئا لطيفا وطريفا ، ومصدر تراحم لا خصام .

والأئمة الاربعة كما أسلفنا القول رجال كبار ، لكنهم ليسوا معصومين ، ولا فرض احدهم نفسه على الامة ، ولا كلفنا شرعا باتباع واحد بعينه منهم .

وانما نحترمهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

واحب ان اعرض نماذج متناثرة للخلاف الفقهى تومىء الى طبيعته وعلته ، اما التأصيل العلمى لاسباب الخلاف فقد شرح فى أماكن اخرى .

هل القاذف الكذاب تقبل شهادته بعدما تتم توبته ؟ ... من الأئمة من يرفض شهادته أبدا وان تاب ، ومنهم من يقبلها بعد توبته .

واصل المسألة تفسير قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون . الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا (١) » .

(١) النور ٤ ، ٥

قال البعض الاستثناء وقع من الوصف بالفسق ، وبقى الحرمان من الشهادة على التأبيد . وقال آخرون : بل الاستثناء يلحق الجملتين معا ، وتقبل شهادته ليكن هذا او ذاك ، فلا حجر على فهم !

والتائبون من جريمة قطع الطريق ، اذا استسلموا قبل القاء القبض عليهم ، تقبل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى « الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم (١) » فهل يسقط الحد عمن ارتكب جريمة السرقة ، أو الزنى ؟ اذا تاب ؟

من الفقهاء من أعمل القياس ، واستشهد بالسنة ، واوقف الحد ، جاء عن انس بن مالك : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، انى اصبت حدا فاقمه على — قال : ولم يساله عنه — فحضرت الصلاة ، فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى النبى الصلاة قام اليه الرجل ، فقال : يا رسول الله ، انى أصبت حدا فأقم فى كتاب الله !! قال : أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم ! قال : فان الله عز وجل قد غفر لك ذنبك » !

وهناك فقهاء آخرون يرون ضرورة اقامة الحد رافضين القياس ومؤولين الحديث الوارد .. لكل رايه ولا تثريب على احد .. !

وفى فقه الاسرة نقرأ شريعة الخلع ! ولا ادرى لماذا اهملت ؟ ولماذا كان القضاء الشرعى يأمر رجال الشرطة باقتياد الزوجة الكارهة الى بيت زوجها لتسلمه جسدها !

---

(١) المائدة ٣٤

وهل الخلع طلاق أو فسخ لعقد الزوجية ؟ خلاف بين الفقهاء . وظاهر القرآن أن الخلع فسخ لان الله سبحانه يقول : « الطلاق مرتان (١) » ثم يقول : « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان (٢) » وفسر التسريح بعد ذلك بقوله : « . . . فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (٣) » .

وقد توسط الخلع احكام الطلاق بقوله سبحانه « فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (٤) » .

فالظاهر ان رد المراة للمهر الذى قبضته عود فى العقد ! ويحكم القضاء بالفسخ .

ويرى آخرون ان الخلع طلاق بائن للحديث الوارد للاشهاد عليه ، والحق انى حائر فى ذلك مع قوله تعالى : « أمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (٥) » .

كيف يكون الاشهاد نافلة مع هذه التوكيدات ؟ ويغلب على ظنى ان التقاليد التى ضامت المرأة من قديم لها دخل كبير فى هذا الاضطراب .

ان التحقيق العلمى يوجب احترام شريعة الخلع التى اهملت ، كما يوجب ضرورة الاشهاد على الطلاق !

---

(١) ، (٢) ، (٤) البقرة ٢٢٩
(٣) البقرة ٢٣٠
(٥) الطلاق ٢

ونترك فقه الاسرة الى طرف من فقه العبـــادات ، اننى قضيت ردحا من الزمان اعمل فى المســـاجد ، ورأيت مظـــاهر الخلاف بين الأئمـــة الأربعة ، هذا يقنت فى الفجر وذاك يصمت ! هذا يصلى نافلة قبل المغربوذاك يأبى!هذا يحيىالمسجد فى اثناء الخطبة وذاك يجلس ! هذا يقـــرأ فاتحـــــة الكتاب وراء الامام وهذا ينصت ! هــــــذا يقبض يديه الى سرته ، وهذا يقبضهما الى صدره ، وهذا يسدلهما الى جنبيه !

قال لى صديق : أيسرك هـــذا التفـــاوت ؟ قلت : كنت اوثر وحدة الصورة ، لكننى ادع الوضــــع كما ترى لأن عنايتى بالموضوع اكثر من عنايتى بالشكل ، ولأن هنـــاك وجهات نظــر فقهية محترمة وراء هذا التفاوت ، أكره الاصطدام بها ... !

المشكلة ليست فى هذا الخلاف الفقهى ، انها فيما وراءه من غلو وتعصب ، فالذى يمنع القنوت فى الفجر وبعض جمــاعة القانتين يظن انه استنقذ القدس من براثن اليهود ! ومنع بدعة تقود الى النار !

المشكلة فى الضحالة الفكرية والضغائن النفســـــية التى تغلف أولئك الناس ، وهى آفات تفسد الطاعات ولا احسب ان صلاة تقبل معها !

ان هؤلاء المتعصبين يعيشون داخل حجب سميكة ، كمـــا يعيش الكتكوت داخل قشر البيضة قبل الفقس لا يرى ارضــــه وسماءه الا هذه الدائرة الضيقة ...

والدين بداهة غير هذا ، الدين الذى لا خلاف فى عنـــاصره قلب خاشع وفكر فاضل ، وامانات مرعية فى تقلب المـــرء على ظهر الارض منذ رشـــد الى ان يلقى ربه !

ليختلف المسلمون فى الفروع العملية وراء أئمة اربعة او ثمانية ، فالخطورة لا تنشأ من الخلاف الفرعى ، انما تنشأ من فساد الأفئدة والألباب ... !

على ان الخلاف يحسم ، ويختار رأى واحد حتما عندما يتعلق الأمر بالدولة وشئونها الادارية ، وقوانينها الحاكمة فى الدماء والاموال والأعراض !

لنفرض ان فقيها يرى أن طلاق البدعة يقع ، وفقيهاآخر يرى أن طلاق البدعة لغو ، فهل تقف أجهزة الدولة فى انتظار غلبة احد الاجتهادين ؟ انها لن تدور ابدا والحالة هذه !

واثبات الطلاق لابد من تدوينه فى سجلات ومن رعايته فى النسب والتوارث !

ومن حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا لتدير الأمور على اساسه ، وتحفظ الحقوق وفق نصوصه ..

هل المخدرات خمر يعاقب على تناولها ام لا ؟ من حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا تجرم به تناول المسكرات والمخدرات جميعا ، وتهمل المذاهب الاخرى .

ويطرد الأمر بالنسبة الى قضايا القتل مع اختلاف الدين ، ومع الملابسات الأخرى .

ويمكن ان يتغير القانون ، وان تترك الحكومة مذهبا وتؤثر عليه آخر ، وذلك وفق نشاط الاجتهاد الفقهى ووزن الناس لمصالحهم المتجددة ، وذاك ما نشرحه فى فصل آخر ان شاء الله.

٤٦ ـ ما مدى حرية الفكر فى الاسلام ، وكيف نوفق بينها وبين قتل المرتد ؟؟

هناك فرق بين حرية القول وحرية الشتم ! وحرية العمل وحرية الايذاء ! انا اقول ما اشــاء وافعــل ما اشــاء ، ولكن تقف مشيئتى عندما تبدأ حرية غيرى وحقوقه ..

وقد اقتنعت بأن كمال الانسانية وارتقاءها منوطان بوفرة الحريات الصحيحة ، واستطاعة كل انسان أن يتمتع بهــا دون مشاكسة او افتيات ..

وقد قلنا فى فصل مضى : ان حرية المرء هى الوجه الآخر لعبودية الله وحده ، فالمؤمن حقا رجل تختفى من حياته رهبــة الطواغيت ، ويقول ويعمل غير مكترث الا برضا الله وحده ..

وحرية الفكر هى المهاد الأول ، او المهــاد الأوحد لمعرفة الله ، واستكشــاف عظمته ، وتقرير حقوقه ، وادراك هداياته ..

عندما أسرح عينى فى الزروع والثمار استجابة لأمر الله ، « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه (١) » فانا اسبح الله واحمده وان لم يتحرك لسانى بكلمة !

قد يكون هذا التسبيح الصامت معادلا لركعتين من النوافل، وربما نما واضحى معادلا لركعتين من الفرائض ! ، وذلك حسب قيمة هذا الفكر .

---

(١) الأنعــام ٩٩

قد يكون تحية اعزاز لمن أبرز الحياة من الموات . واخرج الوانا وطعوما شتى من ارض داكنة هامدة !

وقد يكون ـ الى جانب ذلك ـ عناية بالحصائل الناتجة : وتكثيرا لها ، ودفعا للآفات عنها ، ونفعا لعباد الله بها ودراسة ذكية للتربة ، وطبيعة العمل فيها وامكانات الافادة منها ..!

المهم فى الجو الدينى الصحيح الا أنقل العقل بما يؤوده عن هذا الفكر المثمر ، او هذا التسبيح الصامت ..

والتدين المخترع والفاسد شديد المهارة فى صرف المؤمنين عن العمل العقلى والقلبى ، وتعليقهم باشكال ورسوم واوراد ما انزل الله بها من سلطان .

مع ان هذه الاعمال ركن فى الايمان ، وغيرها أما بدع : واما نوافل لا تقبل الا بعد اكتمال الفروض !

ليس هذا استطرادا ! وانما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التى اطردت الآيات فى القرآن الكريم لتقريرها وتقديرها ... ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها ..

وقد ظفر اسلافنا بأنصبة كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضارى وسيادتهم العالم زمانا طويلا ..

ورايى ان هذه الحرية خرجت على نفسها او تحولت الى فوضى خلقية فى بعض الميادين ، فليس من حرية الفكر ان ينشد ابو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الادب العربى ..

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الاسلامى بالبحث فى ذات الله ـ متأثرا بالفلسفة الاغريقية ـ ويترك البحث فى المادة وخصائصها ، وعندى ان الجانب الطبى فى ثقافة ابن سينا

المع واضوا من الجـانب الفلسفى ! وان الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تمتد ، وامتدت حيث يجب أن تنكمش . على انها اعتلت فى العهود المتأخرة ، وكادت تموت ، وذلك تبعا لاضمحلال الحـرية السياسية فى حياتنا العامة ، وغلبة الحـكم الفردى .

والحـريات كالفضائل يقوى بعضها بعضـا وينميه ، ومع ما اصاب الحريات اجمالا من علل ، فان الحـرية الدينية بقيت قوية وعاشت فى ظلالها طوائف اليهود والنصـارى والباطنيـة دون حرج ، وما أحسب دارا اخرى غير دار الاسـلام ، يقع فيها هذا التسامح !

لقد كانت الحرية الدينية اعصى الحـريات على النقض ، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض ، وكان يهود اليمن مرعيى الذمام مصونى الحقوق ! وبقوا وافرين حتى التحقوا باسرائيل !

ومن الطرائف التى يحكيها الأدباء أن الخوارج اعترضـوا نفرا من الناس ، واحبـوا ان يتعـرفوا هويتهم ، وكان فيهم ابو حنيفة ، فأسرع يجيب الخوارج : نحن مشركون مستجيرون ! فلما تركهم الخـوارج يمضون لشأنهم قال الامام الفقيه : ان القـرآن يقول : « وان احـد من المشركين استجارك فاجـره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغـه مأمنـه ... » فأسمعونا كلام الله وابلغونا مأمننـا .. !! وفعل الخوارج ذلك ، ونجـا ابو حنيفة ومن معه من الفتك !

والقصة تستدعى التأمل ! ولئن كانت مثار ريبـة عنـد البعض . ان التاريخ الاسـلامى يصدق دلالتها ، ويكشـف عن العلة فى بقاء الطوائف الكافرة بالاسلام وسط بحر مائج من الأمم الاسـلامية ، مما لا نظير له فى القارات كلها ...!

ونتساءل بعد ذلك الاستعراض : هل من حرية الفكر أن يسلم رجل ليتزوج امرأة مسلمة ، فاذا نال مبتغاه منهـا وتحولت عاطفته عنها رجع الى دينـه الأول .. ؟

او من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء امته ، وينقل اليهم اسرارها ، ويتآمر معهم على مستقبلها ؟

انه لابد من التفريق بين العبث بالأديان أو خيانة الأوطان وبين حرية الفكر ! فالمسافة شاسعة بين المعنيين !

وقد ذكرنا فى موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هـذه الحرية المتاحة ، لضرب الاسـلام وصرف الناس عنـه « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون (١) » ! فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع العبث او ينجح هذا التلاعب ؟

اننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد ، وسر الموقف الحاسم منـه ...

معروف ان الاسـلام عقيدة وشريعة أو بتعبير عصرنا دين ودولة ، والدولة التى تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول فى أرجاء الأرض ، فهى تنشر الامان وتحميه وفق شرائعها الموحى بها من الله تبارك وتعالى ..

وهى تدفع المغيرين وترد المعتدين مستثيرة الهمم ببواعث اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الاخرى ...

---

(١) آل عمـران ٧٢

والسؤال الذى نورده : هل يطلب من هذه الدولة ان توهى خطوط الدفاع فى الداخل والخارج ، وأن تدع من شاء حرا فى نشر الفتن وتمزيق الصف ومساعدة العدو وخذلان الصديق ؟ ام لها ان تضرب على ايدى الخونة حتى يبقى كيانها سليما ؟

اذا كانت الدولة الشيوعية تقيم التعليم العام على الالحاد ، وتنفى أو تغتال من يريدون بنـــاءه على الايمان ، فهـــل الدولة الاسلامية وحدها هى التى تطالب باحترام الالحـــاد ، والاسراع فى اجابة مطالبه باسم الحريه ؟ انى يتماسك لها بعد ذلك كيان ؟

قد ينحرف امرؤ فيشرب خمرا او حشيشا ، هذه معصـــية نرجو لصاحبها المتـــاب ثم نؤدبه بما رسم الاسلام ! هل يستوى هذا المسىء مع رجل يدعو الى ترك تجارة الحشيش حرة ، والى فتح الحانات دون عائق ؟

قد يواقع امرؤ منكرا فى بيته ، من وراء جدار ! هل يستوى هذا مع آخر يجاهر باباحة البغـــاء ، وترك الغرائز تتنفس كيف تشـــاء ، ويرى أن الشـــذوذ لا حرج فيه وعلى المجتمع الاعتراف بعقد بين شخصين من جنس واحد ؟

قد يتكاسل امرؤ عن الصلاة ، فهل التارك المتهاون يستوى مع آخر يهاجم فرائض الصلاة والصيام ، ويقـــول : انها تعطل الانتاج ؟

ان الارتداد نقض متعمد متبجح للأسس التى يقوم عليهـــا المجتمع ، وللدستور الذى تقوم عليه الدولة ، والزعم بأن هـــذا المسلك سائغ زعم سخيف .

وتزداد خطورة الردة على كيان الدولة اذا علمنا ان الغزو الثقافى ظهيرا وتمهيدا للغزو العسكرى ! وان اعداء الاســـلام يرون محو شخصيته فى الداخل بفنون من الحيل ، وان الاستسلام لذلك هو استسلام للذبح ..

نحن نرفض كل عائق امام حرية الفكر ، ونضع كل عائق امام حرية الهدم ، اى امام تقويض الاسلام شريعة وعقيدة ...

وعندما ننظر الى تاريخنا الاسلامى الطويل نجد أن قتال المرتدين الى آخر رمق تم دفاعا عن الدين والدولة معا ، وما سمعنا برجل قتل مرتدا لانه ترك الصلاة مثلا .. بل على العكس راينا ابا نواس يرفض من يلومه فى شرب الخمر ، ويقول فى وقاحه :

دع عنك لومى فان اللوم اغـــــراء
وداونى بالتى كانت هى الداء !!

فهل قتل ابو نواس ، او غيره بتهمة الردة ؟

واضطر صلاح الدين الايوبى الى قتل صوفى يدعو الى مبدأ وحدة الوجود ! وذلك لان عصابات الباطنية التى اعتنقت هـــذا المبـــدأ ، تعـــاونت مع الصليبيين المهاجمين على ضرب الدولة ، وكانت حصون الحشاشين شوكة فى ظهور المجـــــاهدين الذين يقاومون الغـــزو الاوربى المميت !

فلم يجد القائد الاسلامى بدا من تطهير الجبهـــة الداخلية ، وازاحة كل من يعرض مستقبل الاسلام للضياع ، فى حرب حيـــاة أو موت ...

والا فان كتب كثير من رجال التصوف ملأى بفكرة الوحدة ، وقد ترك للعلماء ان يناقشـــوها بالبرهان وحده !

وقد لاحظت ان كثيرا من اهل الشغف بتكفـــير مخالفيهم ، يتخيرون من آراء الفقهاء ما يحلو لهم ، ويهيلون التراب على غيره ،

فلما ثار كلام فى عقاب تارك الصـــــلاة كسلا ، لم يذكروا الا أنه يقتـــل حدا او مرتدا ، ومعلوم من ألفقـــــه الحنفى الذى حكم الدولة الاسلامية قرونا طويلة ، انه يقتل لا حــدا ولا مرتدا ، بل يؤاخذ بأساليب أخرى اذا جحــد الحكم المعــلوم من الدين بالضرورة ..

ان الارتداد ــ كما شرحنا ــ خروج على دولة الاســـــلام بغية النيل منها ومنه ، والاتيان عليها وعليه ، ومقاتلة المرتدين ــ والحالة هذه ــ دين ...

٤٧ ـ ما هو الاجتهاد ؟ وهل هناك ضرورة لفتح بابه ؟ ولمـــاذا ؟

يعلم المسلمون ان دينهم باق ما بقيت السموات والارض . وان به تبيان كل شيء يحتاج الناس اليه ! اى أن كتاب الله وسنة رســـوله هما النور المبدد لكل ظلمة ، الكاشف لكل حيرة ، وهما الدواء الشافى من كل علة والساد لكل خلة ..

والاجتهاد هو بذل الجهد فى استخراج الحكم الشرعى من هذه الاصـــول ، وفى ضبط مســـيرة المجتمع بها ، وهو عمـــــل لا يقدر عليه بداهة كل انسان ، بل لابد من أهلية علمية عالية له .
فالقـــرآن الكريم هو خلاصة الوحى الالهى من أزل الدنيـــا الى ابدها صيغ فى اسلوب يعجز الانس والجن ، والسنة المطهرة هى توجيهات انسان ملهم استدرج النبوات الاولى كلها بين جنبيه، وشرع يصوغ العـــالم كله باسم الله فى قالب جـــديـــد وقد أدرك أولو الألباب أن التغيير الذى احدثه برسالته الخاتمة كان حاسما فى سير الفكر والضمير ، وأنه فتح صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الانسانية ..

ومن ثم فان فقه الكتاب والسنة لا يرشح له الا أهل النباهة والتقوى !

وفقهاء الاسلام يرون أن مصدر التشريع ـ كما يقـــول الشيخ الكبير محمود شلتوت ـ « هو القـــرآن الكريم نصــــه ومحتمله ، ثم السنة وهى أقوال الرســـول وافعاله وتقريراته . بشرط صحة النقل ، ثم الرأى العلمى المستمد من النظر فى الكتاب والسنة والحاق ما لم ينص على حكمه بما جاء فيه نص » .

ويعنى بذلك القياس ، ثم فى تطبيق القواعد العامة المفهومة من النصوص والقضـــايا الخاصة .

وهذه القواعد مثل « الأصل فى الأشياء الاباحة » « منع الضرر » « رفع الحرج » « سد ذرائع الفساد » « الضرورات تبيح المحظورات » « ارتكاب أخف الضررين » « دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة » « تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » « ما أدى الى الحرام فهو حرام » « ما قارب الشىء يعطى حكمه » ... الخ.

وهناك بعد ذلك ما يسمى بالمصالح المرسلة ، وهو نهج فقهى غايته حماية النفس والمال والعرض والعقل والدين ..

والواقع ان الفقيه فى الكتاب والسنة، الذى يعيش فى جوهما يقدر على استبانة مبادىء تنطلق الحياة منها ورسم مسار تشريعى يضمن الرشد والخير للناس كافة كما يستطيع أن يواجه القضايا المتجددة بأحكام اسلامية سديدة ..

والفقه الاسلامى الذى ورثناه مع مطالع القرن الخامس عشر للهجرة يعد أغنى فقه فى العالم ، والمهاد الذى يتحرك فوقه لا نظير له فى دنيا الناس .

قال الفقيه الكبير الشيخ محمود شلتوت : « استقبل اصحاب رسول الله بعد موته حياة أوسع ، اذ عرضت لهم شئون احتاجوا الى تعرف احكامها ، فكانوا يرجعون الى القرآن، فان لم يجدوا فيه ما يدل على حكمها بحثوا عنه فيما يحفظه العدول الثقات من بيان الرسول واجتهاده . فان لم يجدوا الحكم نظروا وبحثوا مستلهمين روح الشريعة ، وما عرفوه من هدفها ، وما ترشد اليه قواعدها العامة التى أضحت لها مكانة النصوص البينة » ..

وكان الشأن العام فى عهد ابى بكر وعمر التحرى الشـــديد فيما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والنزوع فى الشئون العـــامة الى استشارة كبـــــار الصحابة المقيمين معهما فى دار الخلافة ! والمعـــــروفين بدقة الراى ، وعمق النظر ، فى ادراك المصــــالح ، وحسن الفهم لروح الشريعة ، وجودة التطبيـــق على القواعد العامة .

وكانوا اذا اجمعـــوا على رأى وجب تنفيذه .. وبذلك كان اخذ الرأى بطريق الشورى ، مصدرا جديدا ظهر العمـــــل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب او سنة ، او فيما فيه نص محتمل .

وترجع حجية الرأى فى التشريع الى امور :

اولا : تقرير القـــرآن مبدأ الشورى « وامرهم شــــورى بينهم » .

ثانيا : امر القرآن الكريم برد المتنازع فيه الى اولى الامر وهم الذين اوتوا الفهم والحكمة وطرق الاستنباط « ولو ردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ثالثا : ثبوت اقرار النبى صلى الله عليه وسلم لاصـــحابه الذين كان يبعثهم الى الاقاليم النائية على الاجتهاد والأخذ بالرأى فيما لم يجدوا حكمه فى الكتاب أو السنة » .

وظاهر من مطالعة تاريخنا الثقافى أن الاجتهـــاد التشريعى بدا رسميا جماعيا ، ذلك ان رئيس الدولة كان يختار من اهـــل الدراية والفقه ، وكان بقدرته العلمة يجمع حوله أمثاله فى النظر والاستنباط فاذا انتهوا الى حكم عملت به الدولة والامة جميعا .

والدول العظمى الآن تقوم على هــذا الاجتهاد الجماعى . فى دعم مبادئها ومصالحها ! ويغلب أن يقودها اكفـأ بنيها ، وان يعاونه فى المشكلات المتجددة مجلس شورى ذكى نزيه حافل بشتى الكفايات .

مع ملاحظة أن الاجتهاد عندنا رحب الدائرة ، يشمل العبادات والمعاملات والشئون الشخصية والدولية ، وقد رأينا عمر يجتهد فى تحديد نفقة المطلقة ثلاثا وسكناها ، كما يجتهد فى انصـــبة المجاهدين من غنائم الارض المفتوحة !

وددت لو بقى الاجتهاد رسميا جماعيا كما بدا اذن لوقى المسلمين اختلافا كثيرا ، لكن سيطرة سيطرة الاسر الكبـيرة على منصب الخلافة مكن رجالا جهلة من الظفر به ، والرؤساء القاصرون ؛ لا فقه لهم فى كتاب او سنة ، ولا علاقة لهم بشورى او استنباط . .

وانه لمن المحزن أن يقود العباقرة شبتى الملل والنحل ، وان يقود المهازيل امة الرسالة الخاتمة !

وليست الامة عقيمـــــة ، بل ان اهل الذكر فيها كثر ، وقد تحركت الشعوب لمـــا وقفت الحكومات ، وبدأ الاجتهـــاد الفقهى يزدهر ، ورجاله يلمعون ، ولكنه كان نشــاط افراد عظماء ، اسسوا مدارسهم العلمية بقوة وتجميع الاتباع حولهم بحماس .

ومع ان الائمـــة الفقهـــاء كانت بينهم وبين رجال الســلطة وحشه واكثرهم مسه الضر الا انهم نجحوا فى نشر علومهم وتنمية مدارسهم ، حتى ملأت ارجاء العالم الاسلامى .

ولم تخـــل عاصمة اسلامية قديما من فقيه كبير ، وامام مرموق ، على ان الفقهاء الاربعة المتبوعين كانوا اســعد حظا فرزقوا من حفظ اجتهادهم وضبط تراثهم ، واستنقذه من الضياع ،

وفقه اولئك الاربعة على عظمته يمثل الاجتهاد الفردى ، ويحمل خصائصه ، وما يغنى قط عن الاجتهاد الجماعى الذى تلتزم الحكومة والجماهير بثماره !

ولا ريب ان اجتهاد محفل من العلماء ادنى الى الصواب والنفع من اجتهاد امام فرد .

والاربعة المشهورون يتفقون على استقاء الاحكام من الكتاب والسنة والاجماع ، الا أن الاحناف يرجحون ظواهر القرآن وعموماته على أخبار الآحاد ، وربما ردوا الحديث بالقياس الجلى ، وهم بهذا المسلك وغيره طليعة فقهاء الرأى !

ويليهم المالكيون الذين اعتمدوا فى كثير من القضايا على بيئة الوحى ، وتقاليد أهل المدينة ، ويرونهم أعرف الناس بالسنة الثابتة ، وقد جعلهم هذا الفهم يردون أخبار آحاد أكثر مما رد الأحناف !

أما الحنابلة ومعهم الشافعية ، فارتباطهم بأخبار الآحاد أقوى ، وهم يردون بها القياس ...

ولكل امام منهج فى الفهم والاستنباط وتقرير الاحكام عرف به ، وقلده فيه آخرون ..

ويظهر أن انفتاح باب الاجتهاد الفردى اغرى كثيرين باستقلال النظر وتقرير الاحكام حتى تحولت الحرية الفقهية الى فوضى ، فتداعى أولو الغيرة لوقف هذا التيار ، ودون أن ينعقد مجمع أو يتفق مؤتمر تراجع الناس رويدا رويدا الى فقه الاربعة المشهورين واهمل غيرهم

وقد كنت أول الامر ناقما على اغلاق باب الاجتهـــاد ، ولكن لمـــا انكسر الباب وتحدث فى الاســـــلام من يعقل ومن لا يعقل ، بل كان صوت المرتزقة أعلى من صوت المخلصين ! عذرت الذين اغلقوا الباب ، واطفؤا الفتن .

ايعنى ذلك أنى لا اريد فتح هذا الباب ؟ كلا !

ان الاجتهـــــاد التشريعى ، خصوصا فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية !

والذى ادعو اليه ان تقوم مجامع كبيرة ، من علماء راسخين ، لا يخافون فى الله لومه لائم ، يحيون الاجتهاد الجماعى القـــديم ، ويقومون بعملين مهمين ..

الأول : انعاش أو احيـــاء الفقه الدولى لتحديد أوضاعنا العالمية ، واعادة النظر فى أنظمة الحكم الداخلية لانقـــاذ المسلمين من مساوىء الحكم الفردى ، ومظالم المستبدين ، وانشاء شرائع ادارية تضبط شئون العمال وتوزيع الاموال ، وتصون الحقـــوق الخاصة والعامة ..

اننا متخلفون بضعة قرون فى هذا المجـــال ، ولا يجوز ترك الاسلام يفترسه هذا الموت الأدبى !

أما العمل الثانى : فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة ، وغربلة احكامها ، فمن الغرور القول بأن مذهبا ما انفرد بالصواب كله ، ومذهبا آخر يغلب عليه التخليط ..

ان المذاهب المشـــهورة وغيرها تحتوى على تراث نفيس من الافكار وجهد عقلى ونقلى قد يقصر أغلبنا فى بلوغ مســـتواه ، بيد أن القول المشهور شىء والتحقيق العلمى شىء آخر ..

وقد نبهت فى مكان آخر الى أن ابن تيمية رد فقـــه الاربعـــة فى ايقاع الطلاق البدعى ، والحق معه عند التأمل ، وأن ابن حزم هدى الى أحكام فقهية أولى بالحياة من غيرها ..

ووجود مجمع فقهى اسلامى عالمى ، يجتهد فيما جـــد من قضايا ، وفيما عانينا من فرقة وضعف أمر لابد منه ...

٤٨ ـ ماذا عن تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ؟

جرت على الالسنة كلمة تجديد الاسلام ، وظن البعض ان المقصود منها ، ترقيع ثوب لحقه البلى أو تحريك آلة ادركهـــا العطب ! وقد يتطلب ذلك اهمال شعبة من شعب الايمـــان ، أو التجاوز عن حد من حدود الله ، أو ارخاص المـاضى غرورا بالحاضر ، وتمشيا مع المدنية الحديثة ...!

وهذا كله لا يخطر ببال مسلم ، ولا يفكر فيه الا لصبـــيق بديننا لا يدرى عنه شيئا ..!

ان التجديد المنشود حماية الاصل مما عراه وتنقيته مما شابه وعكر رونقه ، انه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى ، أو ازالة الغبار عن صورة غطى الاهمال ملامحها ...

قلت فى أول كتاب الفقه من نحو أربعين عاما « ... ان حقائق الدين من منابعه الفريدة ما ان أخذت تسير فى مجراها من هـــذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات ، ومخلفات القـــرون ، وجهالات العـــامة ، وشـهوات الخاصة ، ونزوات الحكام ما ذهب بالكثـــير من نقـــائها وصفائها ، حتى لتشبه ماء النيـــل فى مجراه الادنى ، لا يصلح للشراب الا بعد مجهودات متعاقبة من التنقيـــة والتصفية ترده سماويا « كما كان » !

هل امداد الناس بالميـــاه النقية يضيف شيئا الى جوهرها الاصلى ؟ لا ، الأمل كله أن يعود الماء كما نزل من السماء ! وأملنا فى تجديد الاسلام قريب من عملنا فى تنقية ميـــاه الشرب ...

وقد نبـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جلال هذا العمل عندما قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » !!

والكلمات الثلاث فيها من اعجاز النبوة المجدية ما يبهر ويسحر ! قديما رأينا عبادا غلاة يكرهون الحياة ، ويقررون عدم الزواج ، وصيام الأبد ، وقيام الليل وهجر النوم . ثم رأينا كيف تعلموا الاعتدال ، وترك الغلو ..

وقديما رأينا من يضع الحديث فى فضائل السور فاذا قيل له : كيف تفعل هذا والرسول يقول : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فيقول : كذبت له ولم أكذب عليه ! !

هذا لون مفضوح من انتحال المبطلين ، ومثله كل ابتداع فى الدين ، وخلق لتقاليد رديئة كبلت الامة وأقعدتها فى عالم يجرى كالريح المرسلة أما تأويلات الجهله فما أكثرها فى تاريخنا القريب والبعيد ! وآخر ما وقع فى يدى كتاب لمؤلف من الجزيرة العربية زعم أن به نيفا وأربعين دليلا على ان الارض واقفة والشمس هى التى من حولها تدور ..

ونظرت فى هده الادلة فاذا هى تفاسير خاطئة لأكثر من اربعين آية قرآنية ، مال بها الكاتب المسكين عن وجهتها ليشعر الناس بأن الاسلام والعلم الحديث خصمان لا يتفقان !

والواقع أن حركات التجديد والاصلاح تخبو أو تضىء وتكبوا أو تمضى بمقدار موقفها من هذه الآفات ، تحريف الغالين. وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين !

ولما كان تجديد الاسلام عودا الى الاصل النازل من السماء ، فان المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان الا من سيرة محمد وصحبه !

ان محمدا عليه الصلاة والسلام ، والرجال الذين جمعهم حوله ورباهم على يده هم وحدهم الذين يمثلون الاسلام الحق . وهم أفضل القرون واجدرها بالاتباع ..

وقد وقع انحراف عن خطهم ، وبدأت زاوية الانحراف تتسع أضلاعها بمر الزمان .

فاذا جاء اليوم من يريد العودة الى القرن الماضى ، و القرن الذى سبقه ، فهو لا يزيد الامة الا خبالا ، ولن يصنع شيئا اكثر من مد زاوية الانحراف،وتوسيع الشقة بين الصراط المستقيم ومواريث العوج التى نشكو منها ، والتى انتهت بنا الى أن صرنا فى مؤخرة العالم ...

ان سوءات الحكم الفردى فى مطالع القرن الخامس عشر هى هى سوءات الحكم الفردى خلال القرن الثالث عشر . وقرون كثيرة قبله ..

والمنار الذى نمشى على سناه هو جو الشورى أيام الرسول ودولة الخلافة ، عندما كان الحاكم — تاسيا برسول الله — يوجل من الكبر ، ويستكين للحق ، ويستشير أهل الذكر ، ويرى أنا اجير للأمة يكدح لمصلحتها ، ولا حق له فى أكثر من مرتبه المفروض له ، ويشعر بالرهبة عندما يقال له : اتق الله ، ويرى أسرته بعض الرعية الذين لا حول لهم ولا طول ، ويقتص من نفسه اذا اخطأ ؛ أو يترك لأمناء الأمة ومشيريها أن يقتصوا منه ، كما قال عمر بن الخطاب — وهو يؤدب كبار الموظفين — لقد رأيت رسول الله يقص من نفسه !!

هذه التقاليد السلفية فى فن الحكم لها نظائر فى شئون المال ، والقضاء ، وشتى الاوضاع الاجتماعية ، بل لها نظائر فى شئون العبادة ...

ثم شرع المسلمون يتزحزحون عنها قليلا حتى أمسوا سوأة العالم الثالث ، أو حثالة البشرية التى تملأ الارض ...!

وذلك لانهم ذهلوا كل الذهول عن سنة نبيهم وتقاليد سلفهم ، ولم يعوا من دينهم شيئا ذا بال ..

وبديه أن ما حدث قديما يتضمن مبادىء ويرسم اتجاهات، وان صور التنفيذ قد تتجدد على اختلاف الليل والنهار داخل النطاق الذى يصون المبدأ والوجهة .

فالجهاد حق ، وندب الناس اليه قد يكون باعلان عادى ، او بصيحة « الصلاة جامعة » ..

فهل ذلك الاعلان أو تلك الصيحة هما الآن وسيلة اعداد الجيوش وحشد المقاتلين ؟ ان الوسائل تتغير ، والمبدأ ثابت .

والشورى حق ، وكان تنفيذها قديما يعتمد على وسائل قليلة الكلفة ، او على طلب الرأى من الحاضرين ، لكن الامر الآن يتطلب أنظمة دقيقة وتراتيب واسعة ..

والمشغولون بتجديد الفكر الاسلامى ينبغى ان ينظروا فى هذه الوسائل المطلوبة ، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف ، ويبرز محاسن الاسلام ولا عليهم أن يقتبسوا من هنا ومن هناك ...

قال لى أحد الناس : أليس عيبا عليك وانت من دعاة الاسلام ان تعجب بالديمقراطة وتدعو لها ؟ قلت له الحق معك ! ينبغى ان أدع الكلمات الاجنبية ، واستخدم الكلمات العربية...!

قال : الامر أكبر من ان يكون اعتراضنا على كلمة ، اننا نخويهك نتقلام !

قلت له : اننى مسرور بحبك للاســـلام ، وأوكد لك أننى لست اقل حبا له منك ! فاسمع ما عندى ...

عندما وقعت مجزرة « بيروت » الشهيرة ، وعندما وقعت مجازر قبلها تحركت الجماهير فى عواصم كثــيرة تتظاهر ضـــد الجزارين وتندد بجرائمهم ! كان ذلك كله بعيدا عن ارض العروبة والاسلام التى لم تنطلق فيها مظاهرة احتجاج واحدة !

ما السبب ؟ ان الناس فقدوا أو كادوا ملكة الشجاعة تحت ضغط النظم الاستبدادية .

لقد علموا أنهم لو خرجوا الى الشوارع لتعرضوا للموت ! فان الحكومات القــــائمة لا تريد تجريئهم على الخـــروج ، انهم لو خرجوا اليوم ضد اليهود فسيخرجون غــدا ضدها ، فلتغلق الباب ابتداء ..!

أرأيت ما انتهى اليه الحكم الفردى ، وضياع الشــــورى الصحيحة ؟

وانظر الى حركة المــال العام والخاص فى دار الاســـلام وبعيدا عن دار الاسلام ! ان استغلال النفـــوذ لكسب درهم من طريق قريب يقتل صاحبه ادبيا فى اقطـــار الارض كلها ، اما لدينا وحـــــدنا فان امتلاك القنـــــاطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والمساحات الشاسعة من اراضى الزراعة والبنــــاء يتم بلا ضبط أو حساب ، وتسعه امشـار الاغنياء من هذا القبيل !!

هل لهذا العوج الرهيب صلة بالاسلام ؟ ان ديننا اول من أعلن الحرب عليه ! فماذا سنصنع لاتقاء هذا البلاء ؟

هناك من خوف بالله وذكر الدار الآخرة فى وعظ بليغ أو غير بليغ ..

وهناك من سكت وآثر السلامة ! هناك من تحدث عن بدع المساجد وسخط لزيارة النساء للمقابر ! هنا كمن تحدث عن أن الحلف بغير الله شرك ونسى أن الرياء شرك ! وممالاة الظلمة كفر ! هناك وهناك ...

فاذا عمدنا الى أصل الداء واستفدنا من أدوية اصطنعها غيرنا لاتقاء مضاعفاته اعترضتم طريقنا ، واتهمتم سيرتنا ...؟

الحق أن موكب المتحدثين فى الاسلام ملىء بالهازلين . وهؤلاء يميتون الاسلام ولا يجددونه ..

ثم سل نفسك أيها الاخ المعترض : لو كان السلف الاولون يعتمدون فى غذائهم وكسائهم ودوائهم على ما يرد اليهم من الفرس والروم أكان ينجح لهم جهاد ؟ أو يقدرون على تحرير مستضعف وحماية حقيقة ؟؟

انهم سيموتون فى أماكنهم هزالا !! فاذا شرعنا نتحدث عن الموات المادى والضياع الانسانى لأمتنا ، وبدأنا تحريكها لتخدم نفسها ورسالتها ، جاء صوفى أو سلفى ليطعن فى كفاحنا .

ان تجديد الفكر الدينى يتطلب عقلا أنضج ، وقلبا أزكى ! يتطلب بصرا بأخطاء التاريخ ومزالق الاجيال ، يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء ، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة ، وفقهاء فى الشرع لا مجرد مقلدين ، وبصراء بالتربية والتثقيف لا عبيد تقاليد سائدة ، واصحاب دراسات عفنة .

٤٩ — ما مكانة الفقه الاسلامي في الاسلام كله ...؟

عندما اراد النبي صلى الله عله وسلم أن يدعو لابن عمه عبد الله بن عباس دعوة ترفع شأنه وتعلى رتبته قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وثبت أن الله اذا حبا أحدا فضلا ، وآتاه من لدنه خيرا رزقه الفقه « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

وكلمة الفقه فى ثقافتنا التقليدية تشبه كلمة الفكر فى عصرنا الحاضر ، فاذا وصف أحد الناس بأنه مفكر فمعنى ذلك أن فى ذكائه حدة ، وفى بحثه عمقا ، وفى نظره بعدا .

وقد تميز الفقهاء فى تاريخنا العلمى بأنهم الاعرف بأسرار الدين ، ووجوه الحكمة ، وعلل الحكم ، وأهداف الشريعة ، ومن ثم القت الجماهير اليهم بالزمام ومشت وراءهم فى أغلب شئونها ..

ويوجد ناس صالحون قليلو الفقه لعلهم المعنيون بقول القائل : من أصحابى من أرجو دعوته وارفض شهادته .. والواقع ان هناك متدينين لا تقبل فتاواهم ولا أحكامهم ، كبعض الخوارج وبعض الصوفية وبعض المحدثين ، فانهم مع نقاء سرائرهم لم يرزقوا الحكمة ، والوعى ، ولم يحسنوا العمل بما يعلمون ؛ لانهم حرموا الفقه !!

والحاجة الى الفقهاء ماسة ، لأن الفقه الاسلامى تناول شئون الحياة كلها ، فهو مع المرء فى يقظته وفى فراشه ، فى خلوته وجلوته ، فى سفره واقامته ، فى أدق شئون جسده ، وفى علاقته بالدولة ، بل فى علاقته بشتى الملل والأجناس ..

واستيعاب الفقه لنواحى الحياة الخاصة والعامة على هذا النحو يجعله المسئول الاول عن حاضر الامة ومستقبلها ، ويجعل الفقهاء القادة الحقيقيين للجماهير ..

ومعلوم ان الفقه يستمد احكامه من الكتاب العزيز ، ثم من الوف السنن التى نقلت عن صاحب الرسالة خلال ربع قرن ، ثم من القياس والاستصلاح والاستحسان والاستصحاب والقواعد المستفادة من أصول الاسلام الاولى !

والخبرة بهذا البحر المتلاطم من المعارف تحتاج الى عبقرية فذة ... ثم ينضم الى ذلك ما قرره المسلمون — باجماع — أن العلم النظرى وحده لا يكفى فى اعطاء قيمة ادبية لانسان ! لابد معه من تجرد لله ، وصلابة فى الخلق ، ونزاهة فى السلوك واستعلاء على اغراء الحكم والمال !

ان الفقه والفقهاء اسس شامخة فى حضارتنا ، ولا يضير البحر احيانا ان يحمل موجه بعض الغثاء !

والمسلمون الآن يعانون هزائم فقهية وسياسية اليمة ! ومع تسلط الغزو الفكرى على اقطارهم حسب البعض ان الدين صلة خاصة بالله ، وان الصلات الانسانية بعد ذلك موكولة الى الفكر الانسانى العادى ، وبذلك يسقط الفقه عن مكانته ، ويتحرك الناس وفق ما يضعون من قوانين !

وهذا الكلام جهالة فاضحة بالاسلام ، بل هو ارتداد حقيقى عنه فان القرآن الكريم كما تحدث عن العقائد والاخلاق تحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية ، ورسم للأسرة ، وللدولة جميعا ما شاء الله من شرائع وتوجيهات ، وسيرة محمد صلى

الله عليه وسلم لم تكن سيرة رجل يعيش فى صومعة ، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق ، كما يشرف فى الوقت نفسه على توزيع المال فى المجتمع ، والامساك بدفة الحكم ، وشئون الحرب والسلام ، اى ان صومعته كانت الدنيا كلها . . .

وموضوع الفقه الاسلامى بعد العقائد والاخلاق يتناول اعمال المكلفين دون استثناء ، ويبت فيها وفق توجيهات الكتاب والسنة،وما يعتمد عليهما من دلائل .. الا ما أرحب هذه الدائرة واغناها . . .

وارى أن اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاة فرصا كثيرة للتصرف فى نطاق الشريعة على هدى من مبادئها . ولنضرب مثلا مما يقع فى عصرنا هذا الذى تقاربت فيه الأزمنة والأمكنة والشعوب والملل ..

يقول الشيخ محمود شلتوت « من مسائل الخلاف أن أبا حنيفة يرى مسئولية المسلم — وتغريمه — اذا اتلف مالا لذمى اذا كان هذا المال مما يحرمه الاسلام كالخمر والخنزير ، ولو كان المسلم قاصدا باتلافه وجه الله وثواب الآخرة .

وخالف الشافعى فى ذلك ، وقال لا مسئولية ولا غرامة عليه اذا اتلف ما يحرمه الشارع !!

ويعتمد أبو حنيفة فى تقرير الضمان على المتلف ، بأن الاسلام أمرنا بترك اهل الكتاب وما يدينون ، وقد روى أن عمر بن الخطاب سأل عماله : ماذا تصنعون بما يمر به اهل الذمة من خمور ؟ قالوا : نعشرها !! فقال : لا تفعلوا ، وولوهم بيعها ، وخذوا العشر من اثمانها !

قال أبو حنيفـــــة : لولا انها متقومة — اى لها قيمة — وان بيعها جائز بينهم لمــا امرهم بذلك ! ومن المعلوم أن التقـــوم اصل الضمان والمسئولية ، أما اهدار تقومها فانما هـــو بالنسبة الى المسلمين وحدهم » .

ومن مسائل الخلاف كذلك أن أبا حنيفة يرى الاقتصـــاص من المسلم اذا قتل كافرا من أهل الذمة ، ويحكم بقتله ، ويخالف فى ذلك الفقهاء الآخرين ...

وكلام الاحناف هو الذى يمكن امضاؤه فى عصرنا . وتستطيع الدولة الاسلامية به أن تتعايش مع الاسرة الدولية ، وتستطيع من خلال هذه المعايشة ان تبلغ رسالتها وتعرف شعوب الارض بما عندها ..

وكل ما تطلبه الامر اذا اختارت الحكومة مذهب الأحنـــاف ان يتقبل الشافعية والحنابلة الموقف بغير اكتراث ، والا يفـــكر بعضهم فى اللجوء الى عصيان مسلح !!

ان ضيق الخلق والافق يجر على المسلمين البلايا ، وما كان الفقهاء قديما يرون الخلاف مثار فتنة بل وجـــــدنا الشافعى — يقول : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة ، مع رفضه لكثير من آرائه !

كنت اسمع برنامجا فقهيا فى احدى الاذاعات العـــربية : فعجبت لاجابات المفتى على الاســـئلة التى توجه اليه ، وقلت : هذا كلام أقرب الى الهدم منه البناء ..

سئل — عفا الله عنه — عمن اخـــرج زكاة رمضان نقدا ؟ فقال : لا تقبل ، الا ن تكون شـــعيرا أو تمـــرا او شيئا من غالب قوت البلد ! ثم استطرد يصف اخراجها نقدا بأنه مخالف للسنة .

وان رسول الله صلى الله عله وسلم يقول : « من أحدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو رد .. » !!

وبدا من حديث المفتى أن اعطاء الفقير مالا — ريالات أو جنيها — بدعة ... وان الأحناف بهذا المسلك أصحاب بدعة !

وقد رفضت كلام الرجـــل جملة وتفصيلا ، فان مصلحة الفقراء هى التى ترعى ، واخـذ المـال اجـدى عليهم واطيب لانفسهم ، وجمهرة المسلمين تخرج زكاة رمضان نقدا تبعا لمذهب ابى حنيفة ، وهو اقرب الى العقل ولا يصادم نقلا ...

وسئل — هو او زميل له — من طلبة احدى المدارس عن الكتب التى بين أيديهم ، وما تحتويه من صـــور كثيرة ؟ فاجاب بعدما شكا عموم البلوى بأن رءوس هذه الصور تقطع ! وبذلك يحل تداول هذه الكتب !

ولماذا تقطع تلك الرءوس ؟ لان المصور يكلف يوم القيامة بنفخ الحياة فى هذه الصور ، اذا كانت تامة !

وتساءلت دهشا : كيف تحيا صور على ورق ، أو على شاشة تلفاز ، او عـلى سطح مرآة ســواء بقى الجسم براسه او بقى بلا راس ؟

ظاهر ان المفتى يريد نقل حكم التماثيل الى الرسوم المسطحة. وهو نقل مرفوض .. والاجيال تشب بهـذه العقليـة تفقـد الحس الاجتماعى السليم .

ونعود الى فقهنا الاسلامى الذى يتسع طولا وعرضـا ليشمل كل شىء ، أنه يتحدث فى شئون العبادة من صـلاة وصوم وزكاة وحج ، ويتحدث فى شئون الاسرة من زواج وطلاق وحضانة

ومواريث ، ويتحدث فى الشئون التجارية من بيع وايجار وشركات وكفالات وحوالات ... الخ . ويتحـــــدث فى الجنح والجنايات المتعلقة بالعرض والدم والمال ، ويشرع انواع الحدود والقصاص، ويتحدث فى الشئون الدولية وما قد يقع من حرب ، أو يعقـــــد من صلح أو هدنة أو امان ... الخ .

وهناك ميدان ندر الكلام فيه أو انعدم وهـــو الفقه السياسى الضابط لعلاقات الامة بحاكمها ، وكيف يحاسب ويختار . وميدان آخـــر لشئون العمل والعمال يؤسفنى ان اكثر قوانينه ينقـــــل الآن من الخارج لعجز فقهائنا عن تلبية مطالبه !

والذى أقترحه لخدمة الفقه الاسلامى أن تطوى مســــافة الخلاف بين رجاله وان يتعاونوا على ســـد الثغرات واستدراك ما فات ، ويواجهوا ببصيرة نيرة قضـــايا اليوم والغد وأخــــيرا هنا كموضوع جدير بالدراسة الجادة ، موضوع تقنين الفقــــه الاسلامى وصب أحكامه فى مواد محدودة ، يتصرف القاضى على ضوئها ، وفى نطاقها ..

ان ذلك ابعد عن المجازفات وادنى الى العدالـــة ، وما زلنا نذكر أن فوضى الافتاء والتقاضى قديما هى التى انتهت باغلاق باب الاجتهاد ، وتجميد الفقه كله ، وما تبع ذلك من ركود وتراجع ..

٥٠ ـ لماذا يجب ان يكون الفقه الاسلامى المصدر الأساسى للتشريع ؟

وظيفة القانون فى أى مجتمع يحرس عقائده وقيمه ، وان يحمى افراده ، ويصون حقوقهم المادية والادبية وفق ما استقر بينهم من مبادىء ومثل ! ..

وبديهى أن تختلف القوانين باختلاف المجتمعات التى تسودها ! ففى العالم مجتمعات وثنية وملحدة ومجتمعات تنتمى الى اليهودية أو الى النصرانية .. ووظيفة القانون فى بلد يرى الدين خرافة غير وظيفته فى بلد يحترم الدين على نحو ما ..!

وفى الاقطار التى بقيت للأديان فيها قيمه اسمية قد يمنح الدين قدرا من الحركة بقدر استكانته الى الانظمة الغالبة وهروبه من مواجهتها ، فاذا ظهرت عليه أعراض المقاومة ، لاحقه النظر الشنزر ليسكن أو .. ليذهب حقه فى الحياة .. !

وخلال القرنين الاخيرين سقطت مساحات هائلة من العالم الاسلامى فى ايدى اعداء الاسلام فاستولى الاستعمار الشيوعى على اقطار رحبة فى آسيا وأوربا وأفريقيا كما استولى الاستعمار الغربى على اقطار اكبر واخطر .

وشرع كلا الاستعمارين يفرض قوانينه على الاراضى التى احتلها،ويعمل بدابءواصرار على سلخ الامة من عقائدها وشرائعها وقسرها على قبول نظم أخرى لا تمت بصلة ما الى كيانها الروحى والعقلى ..

كان المسلمون كجسد انتزع قلبه ثم جيء له بقلب ثور أو ذئب ليحل محل القلب المقتطع !!

ان معنى ذلك الموت البطيء أو السريع ! ليكن ، فذلك هو المطلوب !

فى اليمن او فى التركستان ، يكلف المسلم أن يحيا وفق معتقد جديد يضع الوحى الاعلى فى المتاحف ويجعل الولاء لسماسرة الفكر الاحمر ، لا لله وانبيائه !

وينهض القانون بدور التنفيذ الصارم لمتطلبات الوضع الجديد .

وفى اغلب عواصم العالم العربى الاخرى يكلف المسلم ان يصم اذنيه عن نداء الكتاب والسنة ، يكفى ان يكون للاسلام وجود رمزى لا يتخطى حدوده ، اما زمام الحياة الخاصة والعامة ، ففى يد أخرى تمحو وتثبت كيف تشاء ..

وعلى القانون أن يلوى عنق المجتمع وتقاليده ومواريثه نحو هذا الهدف الجديد .. نعم ، على القانون الذى وضعه الاستعمار أن يصرف البصائر والابصار عن شرع الله وهداه حتى يعمل الزمن عمله فى تمويت الاسلام كله بعدما مات تشريعه فى كل ميدان !!

ان للقوانين الوضعية التى جلبها الاستعمار معه وظيفة مقررة ، وظيفة أهم من اقتياد أمة مهزومة عسكريا وسياسيا ، وفرض ارادة الغالب عليها ! ان القوانين الوضعية هنا تشويه متعمد لوجه الامة الاسلامية ، أو مسخ حقيقى لكيانها الروحى والعقلى ، والهدف الاخير الاتيان على الاسلام من القواعد !

وعندما نقيس المسافـــة بين الدين ومطالبه وبين القوانين المجلوبة وآثارها ، تبدو الشقة بعيـــدة .. بعيـــدة ! خذ مثـــلا قضية الخمر – وهى نموذج للتقاليد الغربية الوافدة – أن المسلم يراها رجسا من عمل الشيطان ، ويراها تصد عن ذكر الله وعن الصـــلاة ، ويرى شاربها ساقط المروءة واجب العقوبة ، ولكنه ينظر الى أرجاء المجتمع فيرى مصانعها تقـــــام وحوانيتها تفتح واسعارها تقدر ، وأحفالها تبرز واعلاناتها تكثر وشاربيها يكرمون ولا يهانون ! فأى تحد لايمانه أبلغ من هذا التحدى ؟

ان ولاءه لله ولاحكامه يصـــــدم ، ومبدا السمع والطـــاعة يهتز ، والانزلاق عن سائر التعاليم الدينية الاخرى يمهد !!

ومن حق المسلمين فى كل شبر من ارضهم أن يرغضــــوا القـــوانين الوضــــعية وأن يعلنـــوا عليهـــا حـــربا دائمة فهى الوجه الرسمى لغلبة الجاهلية على دولتهم ، وهى الاساس الموضوع لضرب بقـايا الاسلام الخلقية والاجتماعية ، بل هى الجرثومة المتحـــركة لمحو الايمان من القلب وجعـــل الولاء لله ورسوله صفرا ...

من حق المسلم الذى ولد فى عصر الهزيمة الاسلامية وانتصار الجاهلية الحديثة أن يشعر بالدهشة والتســـاؤل : لمـــاذا كتب على آيات من المصحف أن تموت وأن يرفض انطلاقها الى الحياة ؟ ولمـــاذا تركت آيات اخرى يستطيع من شـــــاء أن ينفذها وان يهملها ، وهل هـــــذه الاستطاعة باقية ام الى حين ؟ ثم تلحق بالآيات المعطلة اى الميتة ؟ !

ان تطلع اى مسلم الى طاعة ربه فى كل ما أمر به او نهى عنه شىء عادى أو هو الشىء المرتقب الذى لا يرتقب غـــيره .

ولذلك فمن السماجة التى لا قرار لها أن يستغرب أحـد المطالبة بحكم الله ، وان يعرقل سـير القوافل المؤمنة وهى تنتصر لشرائع السماء .

ولكنه الغزو العسكرى تحول الى غزو ثقـافى خبيث ، وسخ مخ الجيل الجديد وضلل سعيه ، وخلق عصابات من الأدباء والمترجمين والاعلاميين والمؤلفين والفنانين ، هجموا على تراثنا يبتغـون محوه ليحلوا محله أردأ ما فى الحضارة الغربية ..

بذلك ينتهى وجودنا الادبى باسم التجـديد ، وتتحـول هزيمتنا السياسية الى غناء باسم التقدم .

بيد ان الله احبط كيد الخائنين ، ونشأت فى العالم الاسلامى شرقه وغربه نهضة عارمة تنشد العودة الى دينها وتزدرى ما ادخله الاستعمار علينا من قوانين ما انزل الله بها من سلطان !

ومع المطالبة بعودة الشريعة الاسلامية الى المجتمع الاسلامى ، نحب أن نلقى نظرة فاحصة الى هـذه القوانين الوافـدة .. ان المستعمرين الأوائل الذين فرضوها كانوا نصارى ، فهل هـذه القوانين نصرانية ؟

الواقع ان الاناجيل ليست كتب تشريع ، وان عيسى عليه السلام بين انه منفـذ لتعاليم التوراة فى الجملة ومعنى هـذا ان شرائع العهد القديم هى التى يجب تطبيقها ، فهل طبق النصارى هذه الشرائع ؟ كلا ! لأن اليهود انفسهم أهملوا اغلبها فكيف يجيء غيرهم ليرد اليها الحياة ؟ بل ان « بولس » داعية النصرانية الاكبر وسع دائرة التعطيل ، فألغى الختان وهو مقرر من عهد ابراهيم الخليل ، وأباح أكل الخنزير ، ونصوص التوراة تأبى ذلك ..!!

واتباع النصرانية فى العصـــور الاخيرة ينظرون الى شرائع التوراة نظرة ريبة وتهمة .. فبعضها يستحيل علميا قبوله لقسوته وشناعته كتهديم بيوت بعض المرضى ونقضـــها من أسســـها ، وبعضها حف به ما وقف تنفيذه كشريعة الرجم ..!!

وعلى اية حال فان اليهود والنصارى جميعا اماتوا اغلب الاحكام السماوية وشرعوا لأنفسهم قوانين أرضية تحكم شئون الأموال والدماء والاعراض ..

وظاهر ان عددا من القوانين والنظرات الرومانية ســـاد المجتمعات الأوربية وساقها الى وجهته ، والقوانين الرومانيـــة وثنية الأصل أرضية النزعة لا علاقة لها بالسماء .. وانما تستمد وجاهتها من تقاليد يتبغى ـــ لأمر ما ـــ أن يحتكم الناس اليها ..!!

وعند التأمل نشعر بان واضع القانون كان يتخيل نفســـه مكان المنحرف ثم ينشىء العقوبة المناسبة فتجىء وكأنها اعتذار عن المجرم أو تقدير لوجهة نظره ، او اتاحة لفرص النجاة امامه ..

أعنى انه ينظر فى حال القاتل ، فان كان الدافع الى القتل شعورا مفاجئا تملكه ، ابعـــد عنه القصـــاص ومهـــد امامه طريق الحياة !

ان واضع القانون فى الحقيقة كان ينقذ نفســه من القتل لأنه يتصور نفسه مكان المجرم ، اما الآثار الاجتماعية لمنع القصاص فهو يتجاهلها .

وقـــد مضى هذا الشعور المعتل فى طريقه حتى ابطل أو كاد عقوبة الأعدام لجماهير القتلة .. وأمسى من العدالة أن يغتصب رجل ذئب بضع عشرة فتاة ، ثم يقتلهن جميعا ، ثم يقضى بقيةحياته فى سجن مهذب !!

وفى نظر القانون الوضعى ان الجسد ملك صاحبه . ليس لله حق فيه ! فاذا زنى انسان بملء ارادته فلا حرج ولا جريمة ، واذا كان هناك حق لزوج ، كانت المؤاخذة محدودة ، تذهب بتنازل الزوج !

والمال اخطر من العرض ، فسن الرشد المالى احدى وعشرون سنة ، أما سن الرشد عندما يتصرف أمروء فى عرضه فثمانى عشرة سنة . والقضاء فى شئون المال ملزم بما كتب ، فلا تسمع الدعوى فى دين شفوى زاد عن عشرين جنيها ، ولا مكان لضمير القاضى هنا فى محو أو اثبات .. أما فى شئون الدم والعرض فللقاضى أن يتصرف بما يراه أدنى الى الصواب ، والصواب هنا وفق مقررات البيئة ، وفى قضية الثرى المصرى على فهمى الذى قتلته زوجته الفرنسية ، رأت المحكمة أن القاتلة لا تستحق عقوبة ما تقديرا لظروفها النفسية !!

وانقطاع الصلة بين التوجيه الالهى وعلاج الانحراف انتقل من القضايا الخاصة الى القضايا الدولية فاذا قتل يهودى فى روسيا قامت الدنيا وقعدت ، واذا قتل ألف مسلم فى بلد آخر لم يتحرك احد ..!!

ومظالم الزنوج فى جنوب افريقيا قد تثير قليلا من التعليق . ولكن هذا التعليق يختفى عندما تبلغ القضية مجلس الامن ويقترح توقيع عقوبات على جنوب افريقيا ! ان الدول العظمى كلها تستغل حقها فى الاعتراض لتبقى جنوب افريقية ملكا خاصا للرجل الأبيض — يقترف ما يشاءون حرج — ويجتاح حقوق السود بلا وجل .

وكان هلاك الامم السابقة انهم اذا سرق الضعيف قطعوه واذا سرق الشريف تركوه ، أى أن العدالة تتلون مع القوة والضعف . وذاك ما يحدث الآن مع التقدم الحضارى الكبير ، انه

تقدم علمى حقا ، ولكنه مثقل بأوزار الهوى وأوحال الشهوات لانه لا يؤمن بالله ولا يخضع لحكمه ، ولا يتبع هداه .

ولا نزعم ان القوانين الوضعية شر كلها ، فهى من صنع الانسان الذى يصيب ويخطىء ويضل ويهتدي وربما تضمنت امورا جديرة بالقبول خصوصا عندما تعمل فى الميدان الادارى أو الدستورى .. لكن ذلك لا ينسينا امرين : أولهما انها جعلت اقصاء الاسلام وازهاق روحه هدفها الكبير ، والآخر أنها تنقل الينا قيم واعراف اقطار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر !

ومن ثم كان الخندق عميقا بين هذه القوانين الغازية المفروضة كرها ، وبين جماهير لم تنس ولاءها لله ورسوله ، ولم تتنكر لماضيها الأسلامى الثابت .

والصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجى عقائده وأنظمته .. وبين حراس الاسلام والأوفياء لتراثه وتاريخه وأمته ..

ولما كان الاسلام دينا متعدد الشعب ، له فى كل ميدان توجيهات ومعالم فأن رحى المعركة تتسع يوما بعد يوم تتناول السياسة والاقتصاد كما تتناول الزواج والحضانة ، وقد رفضت الجماهير أن تقسم ولاءها بين ما تريد وما يراد لها .

وكل يوم يمر يزداد صوتها علوا بضرورة تحكيم الاسلام فى كل شىء ، وانزال العبادات والمعاملات جميعا ، على شرائعه المقررة فى الكتاب والسنة ...

واعداء الاسلام ايقاظ لموقف أمته من شريعته المهدرة ، وهم يضعون العوائق علنا وسرا امام عودة الشريعة الاسلامية ..

وامل الفريقين لا يخفى،فأعداء الاسلام يريدون بقاء القوانين الوضعية تمهيدا لأزالة الاسلام كله ، حتى من مجال الأخلاق ، فالاخلاق المدنية لديهم أفضل من الاخلاق الدينية ..

وأنصار الاسلام يبغون من عودة التشريع الاسلامى حماية الايمان ذاته وحراسة آثاره فى شئون الحياة كلها ، ورد ما انتقص منها وارغام المغيرين على الانسحاب بكل مقوماتهم المضادة لتعاليم الاسلام المناوئة لشعائره وشرائعه .

بيد أننا بعد ما كشفنا جبهـة العـدو لا نريد ان ندافع عن أنفسنا بالباطل ، فقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهنا الف عام ، واخذنا نطحن فى الماء خلال تلك القرون ، ما نزيد ولا ننقص.وكأنما أثبتنا الفلك واغمضنا عين الزمان ..

وعندما أرغمنا على الحركة شرع لفيف منا يبدأ العمل من حيث وقف الآباء غير معترف بأن شيئا ما قد حدث فى طول العالم وعرضه ..

انه لا بأس ان نغالى بما عندنا ، على شريطة الا نبخس ما حققه الآخرون فى فترة غيابنا عن قيادة العالم فقد يكون فيـه

وشىء آخر لابد أن نراجع انفسنا فيه ، ان الشمال الافريقى لا يعرف الا فقه الامام مالك ، واغلب الاتراك والهنود وجمهور من العرب لا يعرف الا فقه الامام أبى حنيفة .. ولكل امام كبير اتباع متحمسون ..

وهؤلاء الائمة الاعلام صنعهم الاسلام ولم يصنعوه ، وما اتردد فى اعتبارهم قمما مرموقة . لكن مسلمى العصر الحاضر لا يجوز ان يلقوا حضارة العصر وفكره المواير بوجهة نظر واحدة لامام لا يعرفون غيره .. الاسلام أكبر من ذلك .

الفقيه المسلم فى هذا العصر يجب أن يستوعب ما قالـــه رجالات الاسلام فى تفسير نصوصه ، وأن يواجه بهذه الحصيلة الفنية ما طلع به العصر من نظرات ومبادىء !

ان التعصب المذهبى منكور بين العــامة ، وارى انه بين الفقهاء جريمة غليظة .. فاذا شرعنا نرد القوانين كلها الى فقهنا الاسلامى ، فسنجد انفسنا امام ينابيع دفاقة وثروات طائلة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير .. وما علينـــــا الا ان نحسن التاسى ونسرع المسير .

انتهى الجزء الاول ويليه ــ ان شاء الله ــ الجزء الثانى

فهرس

رقم الايداع / ٣٧٧٩ / ٨٣

المطبعة الفنية القاهرة ت ٩١١٨٦٢

كلمة الناشر

توجهنا الى فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى بمائة سؤال عن الاسلام ...

وتوخينا أن تكون الاسئلة اثارة وتبيانا .. اثارة لشبه الذين يضعون الشبهات فى طريق الاسلام والذين يجهلون حقائقه فَهُمْ فى جهلهم يعمهون ..

وتبيانا ونورا للذين هم مشغوفون بأن يزدادوا بالاسلام علما وله فهما حتى يثبتهم الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة.

والشيخ الامام، من الذين لهم قدم صدق عند ربهم، ودراية كاثرة بدينهم نحسبه كذلك ولانزكى على الله أحدا ..

وحين توجهنا اليه بهذه الاسئلة المائة لم يخامرنا شك فى أننا سنظفر منه بأصدق الاجابات وأزكاها ـ كما لم يداخلنا ريب فى أننا نقدم للمسلمين ولغير المسلمين من الذين يبحثون عن الحقيقة فى شوق عظيم نورا مبينا ورؤية جديدة ومجيدة لطائفة من قضايا الاسلام ..

فالشيخ الغزالى من عدول هذا العصر الذين توجه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله. «يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوله. ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».



الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد ـ القاهرة

٢٠٠ قرشاً

طبعت بالمطبعة الفنية